



تسوف

كنت نبياً فنضجت

خالد محمد عبده

المكرهسة

كُنْتَ نِيًّا فَنَضَجْتَ

خالد محمد خالد

حصرياً لقناة محبتي الكتب على
تيليجرام

إِهْدَاءُ النُّسخَةِ النَّصِيَّةِ الْمُحوَّلَةِ

إلى المكفوفين، المناضلين لأجل
القراءة..

إلى عموم القراء الشغوفين..

ببصيرتكم نستتير، وبشغفكم نسير.

نهديكم جميعًا هذا الكتاب، عسى أن
يكون إضافة مفيدة لبنائكم الفكري
والروحي، وأن تكونوا نبراسًا
للعالمين.

ونسأل الله أن يتقبل هذا العمل خالصًا
لوجهه الكريم، وأن ينتفع به العالمين
من كل كفيفٍ وذوي الأبصار.
وعسى أن تشمّلنا نواياكم الصالحة
ودعواتكم الطيّبة، المُستجابة بإذنه
سبحانه جلّ علاه.

ونسأله أن يرزقنا جميعًا جنّة الدنيا
والآخرة، وأن يهدينا وإياكم سَوَاءَ
السَّبِيلِ، صراطه المستقيم. فعسى
ربّي أن يهدينا لأقرب من هذا رشدًا.

المُحمّدين

إهداء الكاتب

إلى مَنْ قَالَ: تَكَلَّمْ مِنْ قَلْبِكَ

إلى كُلِّ إِنْسَانٍ أَرَادَ أَنْ يَحْيَا وَلَا
يَمُوتَ!

بداية

لخص مولانا جلال الدين الرومي مراحل حياته الصوفية في ثلاث كلمات، فقال: حاصل عمري في ثلاث كلمات، كنت نبيًا فنضجتُ فاحترقت! وقد سارت حياته بالفعل على هذا النحو، فالبذرة التي سقاها والده وصقلها بالمعارف الصوفية برهان محقق ترمذي كانت تُعد لمرحلة النضج والإثمار، دخل مولانا مطبخ العشق فنضج واحترق بعد لقائه بشمس تبريزي، فظهر جليًا ما انعقد عليه قلبه من إرادة للحياة الحقّة، كانت هذه المرحلة الأخيرة في الإعداد والتجهيز الربّاني لرسالة كونية بداية للتحقق، مات الرومي قبل أن يموت، وأعلن قيامته ليصبح فردًا كما جاء

فردًا، نَفخ في صورهِ فاحترق وظل أنينِ نايهِ حتى
يومنا هذا معبّرًا عن الاحتراق شوقًا والتحقق
إنسانًا.

لا يمكن لمن عرف حقيقة نفسه وقدره أن يدّعي أنه
صار كالرومي ناضجًا ومتحققًا، لذا يقتضي المقام
أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن هذا العنوان لا
يعبر عن حقيقة كاتب هذه السطور، فهو لا يظن
في نفسه أكثر من كونه مسجلاً لبعض مشاهد
وصور مرّ بها أو عاشها مع التصوف
والصوفية والادميين على اختلاف مشاربهم، فهو
مجرّد بذرة تحاول أن تُسقى من ماء غير
أسن، من طعام المخلصين الذي لا يتغيّر مذاقه
بتغيّر الظروف والأحوال، يحاول جاهدًا أن يكون
صادقًا مع نفسه ومع الآخرين، دون أن يتقيّد بقيود
كتابة أكاديمية جافة، ودون أن يخشى أو يراعي
المحاذير الكرتونية الهشة.

يحاول هنا أن يكتب الهامش الذي يراه جديرًا بالتسجيل عن المتون الضخمة التي لا تحمل من بصمات الصدق شعرة، يحاول أن لا يغض الطرف عما يلمس الناس وهو منهم، يحاول أن يكتب نفسه، لا أن ينقل من الآخرين ما لا يعبر عن حقيقته ليُدَّعي مكانة ليست له، وقد جمع في أشتاته المتفرقات جملة من الأحاديث عن الإنسان والقرآن والنبوة والأولياء والتصوف، راجيًا أن يكون فيها ما يبعثه ويبعث غيره على الاستمرارية في البحث والتفكير والكدح.

كنتُ نبيًا فنضجت! على سبيل التقديم

بددتُ ما حفظته من القرآن صغيرًا غير آسف وقتها على ما ضاع من حظي، لم أكن أعلم أنني سألتقي مسيحيًا يحفظ القرآن ويتدارسه ويستفيد من حفظه لأياته، لم يدر في ذهني أنني سأستمع يومًا إلى من يجتهد ويتلعم في نطق حروفه ويرجو من الله أن يتمكن من قراءته بالعربية! لم أتوقع أنني سأتحدث مع أحدٍ لا يؤمن بالكتاب ولا بقدرسية الرسالات وفي الوقت نفسه يدمن النظر في أحرفه، ويحاول فهم معانيه. كنتُ غير آسفٍ وقتها رغبة مني في الإعلان عن ذاتي، وإشباع لذاتي، فما كنتُ إلا صبيًّا مراهقًا يحاول أن يثبت

لمن حوله أن له صوتاً مسموعاً، والصوت عنده
في رفض كل موروث، وتحطيم أحلام
الآباء وتعجزهم عن رؤية ما يرغبون في أن
نكون عليه، وكأنهم عاشوا أعمارهم في سعادة ولم
يروا شقاء بعد! حاولت أن أتخلص من كل
ما تربيت عليه، جريت هنا وهناك، ولم أعبأ
بما يُقال عن فلان أو فلانة أو مكان أو زمان،
كان كل ما حولي من عبث يجعلني مرتاحاً
لأن أمضي في طريق غير ما رُسم لي، فعلت ما
فعلت لا عن قناعة أو رؤية بالطبع، كان هوى
النفس أعظم معبود وأجله!

فما كنتُ نحفظه ونردده في الصلوات وفي الجمع
يخالف ما يضمره القلب من ملل ورتابة وخوف
وقلق، لم يفهم أحدٌ ما نمرّ به من مراحل، ولم يقرأ
أحد ما دُونَ في كتب علم النفس أو يسمع بأنواع
السلوك، السلوك لا بد أن يكون على صورة

واحدة! وما نحن إلا عرائس أو ريشات في
يد الأرباب المقهورين، لذا تربى النفاق في قلوب
كثيرة وفرّخ أجيالاً عاشت وتعيش ولا تدري عن
أنفسها شيئاً!

أذن الله بلحظة من لحظات اليقظة تخفف ما عاناه
الآباء من سخطنا وكفرنا بكل موروث،
لكن الصحو لم يكن مكتملاً، حسب المتهمّم
عظماً والضعيف عقلاً أنه انتبه! أذن الله أن يلمس
القلب الحب ويحيا للحظات، يراهق، يفرح، يلعب،
يغضب، يسبّ، يضجر، يتألم، يغفر، يصفح، يعلم،
ينكر، يطعم، ويبيت راضياً، ويغني كطفل يريد أن
يعود إلى لحظة المهد فيرضع من لبن الأم حناناً
بعد أن صار يعرف أن للوعي قيمة، وللحفظ قيمة،
وللفكر قيمة.. لكن كما يزيد الإيمان وينقص، توجد
اليقظة لحظة وتغيب للحظات.. قد تطول عمراً.

تعلق القلب بالأغيار بعد أن عرف الفرق بين التآله
وعبادة الذات، تعلق بهم رُغمًا عنه،
فسطوة الغير على قلب الضعيف مسلك
بشري مغروس في الجبلة والطبع مهما بدا
الإنسان وديعًا ورقيقًا، فما إن يُمنح الفرصة
لذلك ترى الحمل تحوّل إلى ذئب والفأر الصغير
إلى أسد يملك الغابة التي لا سور لها ولا حدّ.

أذن الله وهو القاهر فوق عباده أن نغيب بمن حولنا
عنا، وأن نكون معهم في كل فعل شائن وإن
لم نرتكب من أفعالهم شيئًا، ظللنا نراهم ولم نر
الله بعد، ظللنا أسارى لشجبهم والتدديد بهم ولم
نبدأ بخلق جديد، ظللنا في غيابة جبّهم نحيا
وننظر إلى أفعالهم، رددنا بألسنتنا (الله أكبر - الله
أعلم - الله ألطف - الله غفور - الله رحيم) ولم نؤمن
برحمة أو لطف أبدًا! كان الله معنا ولم نكن معه
أبدًا!

كنتُ نبيًّا فنضجت!

هو عنوان اخترته لجمع أشتاتي التي توزعت معبراً فيها يأسِي ومحاولاً فيها أن أكون صادقاً مع نفسي، لا أخجل فيها من الإعلان عن ذنب اقترفته، أو متحرّجاً من فرح حقّ لي أن أظهره، وإن كان فرحاً بشيء زهيد، تحدثت فيها عن كل ما أهتم به، أو التقطته من دروس مما أقرأ أو أشاهد أو أسمع، كل ما فيه يخص هذا الإنسان الذي يحاول أن يحيا ولا يحب أن يموت أو يُقبر، كل ما فيه أنا راض عنه وسعيدٌ به كخطوة من خطوات صعود سلّم الإنسانية الذي أؤمن أن أوله هنا وآخره غير معلوم لأحدٍ من هنا.

كنتَ نبيًا فنضجت!

أرجو أن أختتم به مرحلة من مراحل الفوضى في حياتي، وأن يكون بداية لمرحلة جديدة فيها من الوحي والنبوة والحكمة، فيها من الغيب والشهادة والحياة، فيها من الصدق ما يدوم، ومن الدروس ما ينفع، وما سرده هنا مجرد محاولة للتقديم ومحاولة لبدايات لن تنتهي ما دمت حيًّا.

خالد محمد عبده

باريس 2018-12-20

إشارات إنسانية

لا يكتبُ على الحقيقة إلا من يبذل من دمه ولحمه
وحياته قدرًا كبيرًا. لا يحيا إلا من يموت في كل
لحظة مئة مرة. لا تبصر على الحقيقة إلا عين في
الموت تلمع من الحزن، وفي الرضا تدمع حتى
يغتسل وجه القلب.

أرهُقْتُ العَيْنَ وَاَنْحَى الظُّهْرَ فِي البُعْدِ عَنْكَ. القُرْبُ
مِنْكَ رَحْمَةٌ. فَقْرَبْنَا، وَخَلَصْنَا، لَتَبْصُرَ العَيْنَ نورك،

ويشعر القلب برحمتك!

يلتقون حولك وكأنهم يعرفونك، ويدركون ما
تشعر به وتفكر فيه، وهم أبعد الناس عنك!
ربما يعرفون ملامح وجهك جيداً، لكنهم لن
يشاركونك في أمر تبحث عن حمله معك أو
بيد قلقك ويسكن ما أنت فيه!

حياتنا مجاهدة! قد نصل فيها إلى حسن المشاهدة
وقد لا نصل! لكن المجاهدات نعمة ودليل حياة،
تجعل العين تدمع أحياناً وتلمع أحياناً وتشرق
أحياناً. ولا غنى لمن أراد الحياة الحقّة عن
المجاهدة المستمرة حتى لقاء الله ولقاء النفس
الراضية!

كلنا منحٌ وعطايا لبعضنا البعض إن استيقظت
إنسانيتنا. لا فرق بين معطٍ أو معطى له.
تتبدل الأيام في لحظة ونتبادل الأدوار!

غِبْ عَنِ الطَّرِيقِ تَصِلْ إِلَيْهِ!

هل يمكن أن تقابل بعد يأس وتعب من يدهشك؟ هل يمكن أن ترى النور في عين أحدهم؟ هل يمكن أن يحول أحدهم وحشتك إلى دفاء وأنس وحياء؟ سألت صديقي عن ذلك، بعد أن كتب عن الصداقة كلمة مطوّلة. السؤال يوجّه إلى حاضر ولا يصح توجيهه إلى غائب. وأغلب من نكتب عنهم غائبون عنّا، مفقودون في حياتنا، لذا نسأل أنفسنا ولا نسأل غيرنا، نلقت إلى ما نراه من أنفسنا، نبحت عنها لا عن الأغيار، ضيّع الانشغال بالأغيار من حياتنا وقتنا طويلاً، أهدر الكثير منّا، أزعجنا، ألمنا، ولم يبق لنا إلا القليل. من ترى النور في عينيه ومن ترى نفسك فيه ستقابله، لحظة، وقتاً، دهرًا، ستراه، لكن مع كل طلب لا يأتي إلا الغير والمُغير، لذا أثق في كلام القوم الصوفية "غِبْ عَنِ الطَّرِيقِ تَصِلْ إِلَيْهِ"، ومن نصل إليه لا نصل إليه بأنفسنا،

جزء الروح المفقود يتممه هو، باجتماعه، بالحديث معه، بالنظر إليه، بالرغبة فيه، بالوحشة المرهقة في غيابه. يمكن أن نبصر بنوره!

السير على طريق الإنسانية

كانت نيتنا في إدخال السرور على قلب أحدهم وتقريج كربة يمرُّ بها، أن نحاول السير على طريق الإنسانية، فأُنْ يفرح واحدٌ من أبناء هذا الجسد الإنساني فرحٌ لنا، وإن لم يمس قلوبنا اليوم، فغدا سيكون فيه ما يفرحنا!

فهمُ الفائت

محاولةُ فهمِ الفائت لا معنى لها، عيشِ الفائت لا معنى له، كيف تشرح لمن لا يشعر بما تشعر به أنت، أن فقدًا حدث لا يمكن تحصيله مرة أخرى، أن جسدًا تقطَّعَ أشلاءً ولا يمكن جمعه مرة أخرى، أن عزيزًا غاب، أن طفلًا تيتَّم، أن بقايا جسدٍ حُبِسَتْ فيما يظنه هو وطنًا جميلًا وشبابًا يتجدد؟!!

الطبيعة الإنسانية

تقتضي طبيعتنا الإنسانية ألا نخجل من ضعفنا، ألا
نحبس دموعنا، أن نفرح أننا لا نزال نتألم ونشعر
وتعترينا بعض المشاعر التي تشعرنا بآدميتنا،
بعض الناس تتمنى أن تبكي وتتألم لكنها لم تعد
تملك القدرة على ذلك! تقتضي بعض الأحوال
التي تداهمننا ألا نرهق أدمغتنا بالتفكير في أي
شيء، كفانا ما نحن فيه من إرهاق وعنت، لننتذكر
أحياناً أننا آدميون فقط ونحتاج إلى أن نعيش
لحظتنا الراهنة!

الإنسانيةُ ومجتمعُ الحلالِ والحرامِ

هناك مجتمع أرقى بكثير من مجتمع الحلال والحرام والجائز والمكروه، مجتمع تجاوز عتبات الضيق وسوء الظن والجلد على كل تفكير مغاير، يمكننا العيش فيه بكرامة وحرية وعدالة، لا يحتاج الإنسان فيه إلى أن يصرخ ليُسمع الآخرين صوته، لا يسب ولا يقتل لينتبه إليه خصمه، هناك مجتمع يمكن أن تكون لك فيه حياة ولونك أسود أو أحمر أو أبيض لا يفرّق عائش فيه بين بشر يوثون الحياة مثله.

تسقيمُ حياةُ نَفَرٍ قليلٍ من أهل الدين بالسير وفق أوامر الشرع الحنيف كما ورثوها، طبيعة هؤلاء وتركيبية شخصيتهم وطريقتهم في الحياة تستقيم جدًّا وفق هذا المسلك، كثيرون غيرهم ينشغلون بالحلال والحرام إلى حدِّ الهوس وحياتهم العملية بعيدة تمامًا عن أن يلتزموا بحلال أو ينتهوا عن حرام هم أنفسهم يصرّون عليه!

لا أرى طبيعتي تتوافق مع سلوك المجموعة الأولى، ولا أنشغل بترديد كلمات الحرام والحلال، وأسير في حياتي وفق ما أرتضيه ويساعدني على أن أكون إنساناً سوياً غير مريض بأمراض النفاق أو متقنعا بقناع لا أرتضيه في المنام. في الحياة ما يستحق العيش لأجله غير هذا العبث!

لا حرام أصعب من هدم الذات، ولا حلال أفضل من بنائها.

قسمة الحلال والحرام هي لعبة الصغار والموتى. أن تكسب نفسك ولا تخسرها هذا هو الأصل.. أن تعلق على كل هذا العبث.. تشهده كمشاهد خاطفة لا تستقر في ذاكرتك لأنه لا يستحق.. ثم تسعى أو تجري أو تطير كي تريح نفسك وتنتشلها من أن تخوض مع الخائضين.

فلتمت إحساسك

تحدّث اليوم الشيخ وأعلن أن أذان الكآبة ومشاكل النفس لن تفيد...

لا بد أن تكون قويًّا وجلدًا وصبورًا وأيوب ويونس الذي يسبّح وإن ابتلعه الحوت.

لم يعد بالجسد قدرة على الوقوف مولانا.

لا بد أن تصمد وإلا فلتمت تحت أقدام الأسود.

لا أستطيع، فكلما جريت لأقف أتكوم كتراب قديم هس.

فلتمت إحساسك.

لن يبقى منّا إذن شيء.

أنت لن تتفع هاهنا. أتعرف سورة البقرة الطويلة
وما يتلوها من توائم وما يسبقها من معلقات؟

نعم.

قرأتها على الشعور والإحساس منذ أعوام فمتّ
واسترحت.

لا أستطيع للأسف أن أقرأ أو أكتب ومثل هذه
التلاوات لا تجدي إلا في الحرم.

أستطيع أن أخبرك أنني أبكي كل يوم وإن أكثرت
المزاح وإن ضحكت من المؤذن وسخرت من
صوته المزعج.

لم أعطِ ظهري يوماً للقبلة.

القِبلة المفقودة هي ما أنشد، هذه القبلة التي
تعشقتني وتحمّل بكائي وصمتي وضجري، ولا
يتنازع عليها أحدٌ من أهل الأديان فهي ليست
حائطاً مقدساً، بل هي الحياة، تماماً كما توجهه
مولانا الرومي وأعطى كَلَه لشمس فصارَ حياً بعد
أن كان يردد الأذان أعواماً وهو من جملة
الأموات!

من كلمات الطيبين
يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

من أجمل الأشياء الاستماع إلى كلمات
الطيبين الذين ينطقون برضا وبمحبة أسماء الله
ليستفتحوا بها يومهم، ما في قلوبهم من رضا
وإيمان ينشر السلام والطمأنينة أكثر من آلاف
الكلمات التي نقرأها هنا ويعاني أصحابها من
القلق والأمراض الكثيرة.

بيع النفس ومجارة الحال!

فرق دقيق بين بيع النفس ومجارة الحال كما هو
عليه. حدّثني أحد الأصدقاء اليوم عن بعض
المبادئ التي يحافظ الناس عليها وهم في باكورة
العمر، رأى أن هذا السلوك لا يحسن العيش به

اليوم، يحتاج الإنسان إلى الخبز، يحتاج الإنسان إلى ما ينفعه عند أزمة يمرُّ بها، أو نازلة تداهمه في صحة وغيرها من الأمور. ما يقوله جورج صحيح في بلاد أقل شيء فيها قيمة هو الإنسان! يحتاج الإنسان إلى مقومات الحياة، ولن تدعمه فكرة أو يساعده إيمان في ظل وضع يجعل الإنسان يكفرُ في اليوم مئة مرّة بكل ما تعلّمه وتربّى عليه وطمح إليه. ما الحل؟ أن يبيع البرسيم لمن يعبدون البقر ويساعد في تزيين الصنم من العجوة كان أو من الحجر، أن يمضي على الطريق المغيَّب للطريق، أن يأكل ويشرب من موائد أهل التخمة وإن طعم لحوم البشر، أن يداهن هذا وذاك كي ينجو من الفاقة والعوز، أن يضحك ويبتسم ويبجل ويصفق دون أن يلتفت إلى ما آمن به في لحظة إفاقة وظن فيه الحياة! كثيرٌ من الناس حولنا يفعل ذلك ليل نهار، بطرق عدّة، وبأسماء وأوصاف مختلفة لكنهم يصلون إلى نتيجة واحدة،

لا يبقى منهم شيء وإن ملكوا كل شيء صورة،
الفراغ والهشاشة التي يعيشونها تحرمهم من البكاء
بصدق، والضحك بصدق، والسعي بصدق، كل ما
فيهم عطش إلى الحياة التي حرموا أنفسهم منها، ما
ظنوه أماناً في الكبر أفقدهم الأمن والراحة اليوم،
جعل وجوههم قبيحة في المرأة عند الخلوة،
صارت شفاههم جافة، نظرات أعينهم تميت
دوماً. لو لم يقل المسيح في الإنجيل سوى هذا
النص لكفاه: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم
وخسر نفسه؟! ولعل من أجمل دروس حضرت
مولانا جلال الدين الرومي قوله: لا تبغ نفسك
رخيصاً، وأنت نفيسٌ جداً في عيني الحق! يظل
الحق حقاً وإن أنكره كل من نعيش معهم، ويظل
الباطل باطلاً ولو اعتنقه كل من تتشق الأرض
طلباً له!

التخلي عن الأوهام

في البداية يكون التخلي عن كل من عرفتهم سابقاً صعباً، يكون هناك حزنٌ بسبب ما عشته أنت ورأيت أنه ساهم في تذوقك لأشياء جميلة، بعد وقت يزداد الحزن حزناً! لكنك تتجرع مرارة هذا الحزن وحدك لا أحد ممن حولك يزوق معك ما تشعر به، فتتبه لأن الناس مجرد أشباح ومن يقول لك أنت "حبيبي، صديقي، أخي، عمي..." إلى آخر هذه الكلمات التي أفقدتها الأشباح معانيها النبيلة، هو مجرد هيكل وشبح مثل البقية، هنا لا بد أن تتبه لنفسك وتتخلي عن كل هذا العبث، لتصل إلى نفسك! هذا مما أقوله لنفسي منذ أيام.

يناديك: حبيبي.. أخي.. صديقي

يخبرك أحدهم أنه يحبك، وأحدهم يناديك بصديقي، وأحدهم يناديك بأخي. هذا الكلام مجرد كلام مجازي فحسب، على الحقيقة ليس محبباً لك أو محبةً لك، ففي بلادنا لا ضريبة على الكلام، والناس لا تؤاخذ بما تتطرق!

كيف يحبك شخص؟ لكل شخص كيفية تعبر عن محبته بالطبع، لكن، كيف يحبك فلان وهو لا يدرك شيئاً من ألمك وتعبك أو يخفف عنك ما أنت فيه؟ فضلاً عن مشاطرته لك الأحران والعيش معك في الأفراح؟! كيف يحبك شخص ويمر يوم دون

سؤاله عنك وعن نومك وصحوك ونشاطك
ووهنك؟! كيف يحبك شخص وهو عنك في شغل
طول الوقت؟!!

هو يحب صورة لك رسمها فحسب، إن ظلت في
حدود الصورة دامت المحبة الصورية لك، وإن
خرجت عن النمط محاسنك من دفتر المعشوقين
بقطرة ماء! فلانٌ يناديك بصديقي مجازاً، وإلا
فالصداقة صدق ومرآة ترى فيها صورة
نفسك، تطهر نفسك، تطور نفسك، تقوّم نفسك، تقل
عثراتك، تبدد همومك. هل ترى ذلك
من "صديقك" المجازي؟! أخوك بالدم والصلة
أندر من الكبريت الأحمر، أخوك الحقيقي هو ابن
والد غرس الحب في بذوره وثماره وسقاها حتى
بعد مماته بماء المحبة الذي لا ينضب. العالم الذي
تعيشه مجرد مجاز، فمن العبث أن يؤخذ ما يحدث
فيه على محمل الجد!

فقدت كلمة (الصديق) معناها منذ زمن بعيد، أدرك ذلك القدماء، وكتبوا عن الصداقة ما يعبر عن حزنهم لهذا الفقد، ولعل ما كُتب عن الغربة يعطينا تصوراً لما عاناه من قبلنا.

اليوم ابتذلت الكلمة وفقدت معناها، لكن الفارق بين اليوم والأمس أننا نرى الابتذال يسعى جسداً بيننا، في الطرقات، وينطق على منصات التربية والتعليم، وفي الفضاء يحاول كل مبتذل أن يشوّه ما بقي من إمكانات العثور على منفذ أو خلاص من الواقع الكئيب. في لحظات الضيق حينما أبحث عن شخص أتصل به رغم الكثرة التي أعرفها وتعرفني لا يمرّ على بالي شخص أحكي معه، عما أعيشه أو أضجر منه، هذا المفقود هو الصديق الذي أومن به، أما غير ذلك ممن أعرفهم من الطيبين والطيبات فهم متشاركون معي في أمور معينة، ولا أظن أن أحداً مرآة للآخر يخلص

كل منّا للأخر ولا يستطيع العيش دون أن يراه أو
يسمعه!

إذا كانت هناك إرادة فتمة طريق

لو رأى الانسان طيراً يطير بجناحين،
سيسعده أن يرى الطير محلقاً في السماء يسرح
أينما يشاء. فلو كان الطير جريحاً ويقاوم.. يطير
مرة ويرقد في عشه مرات، ويغيب مرات، فلا
يصح أن ننزعج منه، بل نلتمس له العذر لنسعد
بطيرانه من جديد. هكذا أنظر إلى بعض
الناس الذين يحاولون ما استطاعوا ألا يعيشوا
نمطاً مكرراً، ويحققوا أنفسهم بعيداً عن النماذج

المرسومة سلفا، وهؤلاء الناس قليلون جدًا في الحياة، نادرًا ما أصادفهم، ونادرًا ما ألتقي بهم، ونادرًا ما يزعجونني أو أزعجهم. أحبهم من كل قلبي!

ماذا نفعل في هذا العجز؟!

عندما يشيع الخلل وتكثر الأمراض وتنتشر في كافة صور الحياة من حولنا، يصعب الفهم، ويحار الإنسان في كيفية التعامل. هل هذا حسن؟ هل هذا يضرني؟ هل هذا طيب؟

هل هذا قبيح؟ لا ندري!

يكون ذلك صعبًا جدًّا على النفس، نبتعد.. أو نصمت، نخفّ من وجود كثيرين في حياتنا، حتى وإن لم يقع ضررهم علينا، نخشى أن يزعجوننا كما أزعجنا غيرهم، نخشى أن نقترّب من أحد، ففي كل اقتراب خطر على ما بقي منّا، وإن اقتربنا نتعلم أن ما فعله خطأ، فمن النادر أن يفهم الناس قربك أو يفهمونك مهما اقتربت!

نقول للصلحاء والطيبين ذلك حتى لا يجرّحهم منّا شيء، ونعتذر لأنفسنا على ما أصابها من رُهاب وخوف كان أجدر بها ألا تقع فيه!

هل نشاطر بعضنا الأحران بالفعل!؟

لا أحسن كتابة التعازي أو المواساة. لكن لفت نظري ضياع المواطنين "الغلابة" في (نابل-تونس).. أعادتني طرق الإنقاذ التي شاهدتها عبر مشاركات الأصدقاء إلى ما قبل عصور الظلام، وكل ما يُقال عن الحداثة والتتوير والاهتمام بالإنسان يصبح محض هراء في لحظة! المواطنون يعتمدون على بعضهم، بعيداً عن الحكومات المقصرة، التي لا يعول عليها في أغلب البلدان العربية..

لا أحسن كتابة التعازي، لأنني أخشى في هذا الهوس الذي نعيشه، أن أكتب تعزية وأشارك البعض في الإعجاب برقصة، أو أتحدث عن جمال القهوة الصباحية وأنا أسمع أغنية لفيروز. لا أحسن المشاركة في شعور عام، سرعان ما يغيب وينتهي، بمجرد أن تظهر في بلادنا حادثة جديدة

فتمحو السابقة. فمن بكى رشيد طه، نسيه
وانتقل إلى البكاء على جميل راتب، ومن
شارك في بكائية جميل راتب، انتقل إلى
متابعة مهرجان الجونة وضحك على فستان
ممثلة، وفتته وشم أخرى. أغلبنا هنا مجرد ريشات
تحركها الرياح كما تشاء، ومع ذلك ننكر الجبر
والتسليم، ونتبجح بقولنا إننا أحرار!

الحضور مع النفس

أحدت نفسي الآن: اكتب أي شيء يخصك،
يعبر عنك، يمثلك، لا تذكر من زمان أو من الآن
شيئاً، لا يخصك. لا تتذمر من عدم امتلاكك

للسان آخر غير لسانك، لثياب غريبة عنك، لا
تحمد أو تقخر بما لم تمتلكه أو بما يملكك، لا شيء
سيزعجك أو يعجزك أو يقهرك ما دمت أنت الآن
هنا، ولست غائباً عنك، اشكر الله على نعمة الغنى
بالنفس، اشكر الله على فقدك لرغبة حبس غيرك
رهينة عندك، اشكر الله على أنك لا تزال حرّاً ولا
يقيّدك شيء تقيّد به غيرك، اشكر الله على الجحيم
الذي يتحول إلى جنّة بنعمة أو بكلمة أو بصورة،
جحيم غيرك لا يتبدد بمجسمات يمتلكها أو بسلطة
يستبد بها.

كُنْ فَيَكُونُ

في الليلة الماضية رأى أحدهم جسد امرأة، وكأنه اكتشف هذا الجسد للمرة الأولى، لم تكن واقفة أو نائمة، كانت تجلس معطية نصف وجهها له حتى أسفل ظهرها، تحادثه وهي فرحة بما منحها دون أن يدري، أما هي فكانت ككلمة التكوين "كُنْ" أو كآية بكرٍ تنزل للمرة الأولى، على رُقعة لمكافح في الغار، تصبّب عرقاً، وبكى حزناً، وجاع حتى أدرك طعم قولها "اقرأ".

أمسك بالقلم وظلّ يكتب لساعاتٍ طوال، كتبَ مُصحفاً أو مصحفين، حتى مطلع الفجر، دون أن ينهش جسداً، أو يحطم عظاماً، أو يكذب من أجل حصاد رخيص.

في الصباح أعلن أن كلّ ما مضى لا يمثل له أي شيء، وأنه وُلد اليوم من جديد.

بعضَ الأجسادِ ليستُ أجسادًا، بعضُ الأجسادِ
عطايا وهبات.

التحقُّقُ والعيشُ

عِشْتُ ثم كتبتُ، عِشْتُ ثم أُمليتُ، عِشْتُ فصرفتُ
النظرَ عن تقييدِ ما لا يمكنني تقييده، عِشْتُ لحظةً
صدق فوجدتُ أن ما سجَّلتَه سابقًا لم يكن أنا، وعليّ
أن أبحثَ عن نفسي في مكانٍ آخر، عليّ أن أجدَ
ملحمةً أخرى غير هذه الملاحم التي لا يمكن أن
أؤدي فيها دورًا، ولا مكان فيها يجذب روعي.

عشتَ ثم كتبتَ! لا يمكن أن ينطقها الكثيرون منّا،
قصصنا الأوراق، جمعنا القصاصات، وضعنا
كلمة من هنا ومن هناك، نمّقنا الألفاظ، قلنا كلامًا
كثيرًا ولم نقل شيئًا! هذا ما نفعله في الأغلب. لذا لا
يترك الحرفُ علامةً في القلوب ولا يظهر في
الوجوه التي نراها.

قليلون جدًّا من يعانون من أجل أن يمنحونا خبرًا،
يتحوّل إلى جسدٍ حقيقي، وهؤلاء لا تسعفهم الحياة
القوالبية التي نوضع فيها. هؤلاء أنبياء مجاهيل
مضوا في حياتهم كروح عابرة، نلتقي بهم في حلم
أو في قطارٍ أو طائرة، يظهرون فجأةً ويختفون،
هم كالخضرِ الذي ظهرَ لموسى، ويحبُّ المجازيب
أن يظهر لهم ولأوليائهم، لكنهم لا يظهرن، ولا
يُقَدِّسون، سيظلّ ذكرهم موضع خلاف
ووجودهم محل شك!

حديث مع النفس

جلستُ ذات ليلة على حافة جبل، أنظر إلى الأشجار وأراقب السماء بنجومها المدهشة.. لم أكن ثملاً كما يقتضي الحال في مثل هذا المشهد.. لم أكن أتحدث مع أحدٍ.. كنت أقوم وأقعد وأمسك ببعض الأوراق.. أقرأ وأكتب.. كتبت بعض كلمات عن نقاط كثيرة مشتركة عند الرومي وابن عربي، وظللت أفكر في كيفية وجود أمثال هؤلاء المفردين في أجواء مشحونة بالحروب والفقد والقتل، عن كيفية النطق بالشعر وبالفتح في ظل غربة ممتدة، عن صورة الإنسان الذي لا يشاركه في حلمه غيره..

حاولت بعدها أن أنام قليلا وأن أنسى كل ما يلاحقنا من تعب.. لم أتمكن من ذلك، وظللت حتى النهار التالي مستيقظا.. آثرت بعدها أن أفارق المكان من فرط جماله وهدوئه.. هذا الجمال سيصيب المرء بالجنون إذا قارن بينه وبين ما يحيا فيه من واقع بعيد كل البعد في لبه وصورته عما يشهده.

أحدت نفسي الآن حديثاً كله صمت.. واستسلام ليد القدرة التي تمحو سخطنا وغضبنا حينما يبتسم ملاك وينطق بما كنا نرجوه طيلة أعوام.. يتبدد الرجاء.. وتتبدد الأحلام بهاتف السماء: فما تريده لا يُمنح لنا.. وما نريده نحن نمحنه في وقت صدقت أنت فيه وتخلّيت عن كل إقبال وسعي!

لا تتصرف عن القبلة عند المضي قدماً نحو سمائك.. أنت لا تقدمُ أحداً أو تسبقه.. كما أنه لم يفتك شيءٌ أو تهرب منك أشياء.. كلُّ ما سبق من خطوات تذكره جيداً.. ولن تتساه أبداً وإن ظننت أنك فقدته.. لا تستمع لمن يقول لك عن وجوب محوه..

سيبدو لك كلُّ شيء ككتاب قرأته لمرة، وظننت أن شيئاً منه لم يثبت في ذاكرتك.. ثم يأتيك وقت صدقك وشدتك.. ستتطق بلغة لا تتقنها وتضحك على ظنونك التي رددت على مسامعك آيات ضعفك.. عند المضي نحو السماء التي تظهر لك وحدك.. كن بالحقِّ حقا.. لا تتصرف عن القبلة بعد الوضوء.. لا تفكر في الغسل أو الصلاة..

لتسأل الله إيماناً يُباشِر به قلبك.. لترى أثر إيمانك
في وجهك وجسدك! عند المضي نحو السماء لن
تنتظر معجزة من سماء أخرى، ولن تفكر في
أحلام اليقظة! ستري أن أسوأ كلمتين ازدحم
بهما معجمك: (ليت، ولو).. ستبدأ بكتابة
صفحتك وتتلو في قلبك آيات وحيك!

الإثبات والمحو

في المخاطرة جزء من النجاة.. نطق بهذه العبارة
رحماني التجربة الذي وقف مع ربه
مواقف عدّة وخاطبه ربه بمخاطبات جليلة
تعجب أهل الحرف والشعر والغربة..

جرّب وعانى وأهمل ذكره.. نسيه الناس ولم يبق
منه إلا ما سجله وأبقاه من ثمار التجارب.. لم يبق
منّا اليوم شيء..

فلا أظن أن حرفاً من حروفنا يستحق الإثبات.. لأن
المنبت لذاته وأهم ليس إلا! حياته طفولة
ورعونات.. وخصومات وتردد.. وضيق
وضجر.. كيف يثبت ما لم يتخلّق بعد ويتمّ
نتاجه؟! لا نخاطر ولا نفارق عتبات حدودنا
التي رسمناها ونحن عجزة ومساكين.. لا نخاطر
ونحاول أن نعلّم أنفسنا ألا نعبد هواناً.. لا نخاطر
ونشكو ربنا إلى أقرب عدو لنا! لا نخاطر ونودّ
الحياة.. حبة الحمص المسكينة تغمس نفسها
في الماء المغلي كأخواتها حتى تتضج
ويصبح لوجودها معنى.. لتتعلم من رؤية
القدر الذي نشاهدها كل يوم ونطعم منه باسم الله
الرحمن الرحيم ونحاول أن نعيد قراءة الفاتحة التي

نستهل بها صلاتنا الجافة وننطق بالحمد لله رب
العالمين!

حياة الروح وضلالها

لمن ضلّت روحه الطريق واختار الجُبّ وقنع به:
أنت ابن وقتك يا من كنت عزيزاً عند نفسك
في لحظة.. حتى كفرت بالعزّة والغيب وأسريت
بنفسك إلى وادٍ ظننته أهلاً للحصاد والزرع.. شُبّه
لك أن هذا برّ الأمان.. شُبّه لك أن هاهنا الحياة..
رحلت من كوخ صغير كان يمكن أن تزرعه
وتحصد فيها ثماراً أبقى.. إلى صحراء لا تحمل
من المشاعر سوى بكائيات قاتل لأخيه.. يجاهد

بقدر استطاعته أن يدفنه ويستره في رمال لا يمكن
أن تحصي فيها بقايا بشر قبروا كانوا يوماً ما
مثلك.. وقت أن نبتت بذرتهم في الكوخ الصغير
الذي هربت منه! أبارك لك ما يجعل عينيك تلمع..
ولا أخشى عليك من قطار أنت سائقه.. أسرعت أم
أبطأت فقد حددت وجهتك التي لا تؤمن إلا بالبعير
الطازج والحريير الناعم.. تلمح جيداً في البرد بما
وهبت لروحك من قماشٍ بالٍ.. ولا تبكي رجاء في
ساحات المساكين..

مكانهم لم يعد يليق بك! هؤلاء لا يقرأون لنيته
مثلك ولا ينطقون من أفواههم!

الصدق الصعب

جزاء الصدق في الحياة تعبٌ كثيرٌ.. جرّب أن تمرّن نفسك على الصدق مع نفسك.. على الصدق مع الآخرين.. لن يلقي عليك السلام أحدٌ.. ولن تحظى نفسك بسلام وسط عواصف تلاحقك أينما توجّهت.. اختيار البوح عن مكنون نفسك لا يتحمّله أقرب الناس إليك.. لا تتحمّله أنت إلاّ بشق نفسك، وسجنها ومنعها عن كلّ مرغوب ومحبوب..

ربما تظنّ نفسك صادقاً في وقتٍ ما.. وأنت تمارس الصمت أو تلبّس على الناس الحقائق بغموض لفظ أو بعموم كلمة..

لكنك تدرك جيداً أنك بعيد عن التحليّ بأمّ الفضائل (الصدق) وبعيد عن صيانة الأمانة (نفسك). ربما تبكي على فقدٍ، ربما تكتب كلمات

جارحة، ربما تعلن مرة ثلو الأخرى عما كنت تخفيه.. تحمّل نتائج عمرٍ مرّ أغلبه في الكذب..

سيكون الآتي قاسياً عليك.. لكن لا بدّ من الاستمرار في تطهير ذاتك حتى تفيق.. حتى لا تظلم غيرك.. حتى لا تأخذ مكاناً ليس من حقك وتزاحم به غيرك.. في وقت معين ليس في مقدور روحك أن تترك عينك المشتتة في النظر إلى بساتين عديدة ليس لك فيها ثمرة أو زهرة..

تضع هنا عيناً وهنا عيناً أخرى.. صوّب نظرك نحو مرادٍ واحدٍ واعلن لنفسك عن معبود واحد وغاية واحدة.. مع التعب ستدرك ما عانيت من أجله.. لا يطعم الخبز إلا من يحصل على الدقيق ويعجنه ويخبزه ويضعه في النار ليستقيم عوده وتتم حياته!

معجزةُ النورِ والإبصارِ

في النفقِ المظلمِ تنتظرُ معجزةَ النورِ، لا يهْمُكَ كثيراً مصدرُ النورِ، شمعةٌ كان أو برقٌ لمع فوق الظلامِ، وتسربَّ من خلفِ الجدارِ. لا يهْمُ أن يصلَ السلامُ قلبك بفعلِ عصفورٍ أو حمامةٍ أو تلاوةِ عجوزٍ لآيةٍ. تنتظرُ معجزةً وإن لم تكن مؤمناً، لا تهتمُّ المعجزةُ بعواطفك أو بمشاعرك، هي تأتي بعد الكدح لتخبر أظافرك التي نهشت رأسك وجلدك وقدميك أن حركتها لم تكن للألمِ والعذابِ فحسب، بل يحتاج الضوء إلى حركات كثيرة من الجسد حتى يلمع وتبصر من جديد.

ارحمهم واكفر بهم!

هذه هي النصيحة الذهبية التي تلمع في ذهني دائماً، حينما أواجه مشكلة في التعامل مع بعض الأشخاص الذين يتعاملون بمقاييس مع البشر أرفضها ولا أومن بها، يستطيع كل شخص أن يتعامل بما ارتاح به، ورأى أن حياته في مأمن ورغد، ما دام يحيا وفقاً لسياسة المادة والواقع، بكل ما يفرضه الواقع عليه من إملاءات أو يحسنه له، ويجد في نفسه المؤهلات المناسبة، التي تجعله يحوّل الفرض إلى قانون وسياسة يسوس بها أموره ويحقق حلمه المنشود.

يمكنني أن أصف هذه التعاملات بالرخص والضعة والحقارة، ما أسهل ذلك!

يمكنني أن أنشد قصيدة في ذم الآخرين. في
مستطاع كل امرئ أن يفعل ذلك! يمكنني أن أختبر
قدرتي على التلون بالألوان التي أرفضها. ربما
أبدعت بخلق لون جديد! فقرة البشري لا تحدها
أية حدود! لكنني أتذكر دائماً هذه الكلمة: "ارحمهم
واكفر بهم!" وأحاول أن أطبقها على نفسي.

في البداية إذا مسّ نفس الإنسان ضرراً،
وشعرت روحه بالانزعاج، وحزن لما آل
إليه أمره، سخط وغضب، لكن صوت:
(ارحمهم) وانجّ بنفسك يعلو! فتسكن النفس قليلاً،
وتجد أن الحق يُجري هذه الصور في العالم
لمرادٍ غير انفعالات الغضب والضجر. ربما
يغلي الحق الحمّص حتى ينضج، ربما يطعمك من
الدسم ما هو محتاج إلى أن يفرز العظم فيه من
اللحم الشهي، المهم أن هذه الموائد الهابطة لا
تُبسط أمامك عبثاً!

كانت بداية هذه الكلمة في الأصل: لا تنته في سوق
انتكاس الأخلاق ووضاعة النفوس، يكفيك أن
أصحابه لا يرفعون وجوههم في وجهك، ولا
يستطيعون أن ينطقوا بكلمة في حضرتك، لكن
بفضل (ارحمهم واكفر بهم!) تحوّلت الكلمة إلى
هذه الصورة، التي تبعث في النفس الرحمة والرأفة
وجمع النفس بدلاً من شتاتها في غبار وأتربة مآلها
المحو!

القراءةُ والكتابةُ

القراءةُ أفضلُ من الكتابةِ مئةَ مرةٍ! تمنحنا القراءةُ
أضعافاً مضاعفةً مما يمكن أن تسجله الكتابةُ.

القراءة لا تقتصر على ما هو مدوّن فحسب، بل تتعدّاه إلى كلّ ما يمكن أن يُحسّ بالحواس الظاهرة أو الباطنة. السماعُ قراءةٌ، والرؤيةُ قراءةٌ، واللمسُ قراءةٌ، والإحساسُ قراءةٌ، عمل العقل قبل القراءة وبعدها قراءةٌ، الابتسامَةُ كتعبير عن نطق أحدهم عما نشعر به قراءةٌ. صدقَ مَنْ رأى أن كلّ قراءةٍ تمنحنا حياةً جديدةً.

لنترك أماكننا لغيرنا!

تنازلت عن مقعدي في الطائرة لامرأة لم أر وجهها، طلبتُ ذلك كي ترتاح في مجلسها، وما دامت هناك أماكن فارغة فلم لا؟! ليكن لها ما

أرادت. جلستَ في المقعد الخلفي وكانت هي أمامي، بعد دقائق ارتفعت ضحكاتها ولم تصمت حتى هبطت الطائرة، كانت قد خلعت أغلب ملابسها! ربما ظننت أن القيامة قامت ورُفعت الحجبُ، وطُمت أعينُ الرقيب، ليكن لها ما أرادت.

اكتفيتُ بمشاهدة فيلم ممتع في البرامج المتاحة أمامي ووضعت السماعة على أذنيّ، ولم أهتم كثيرا للزلزال المتحرك أمامي. في رحلة العودة أصرتُ سيّدةً عجوز أن تأخذ مقعدي بجوار شباك الطائرة، تذكّرت ما يحدث في حافلات النقل عندنا في مصر، وضحكتُ ولبّيت للسيدة طلبها، أصبحتُ جلستُ وقتها بين سيدتين، عربية وأجمية، نامت كل واحدة منهن بطريقة وبأنغام تخصها، تصمتُ واحدة فتعمل الأخرى

كيدًا فيها ربّما، وفي وقت كانت تعمل الاثنتان على
إحداث نغمات لا عهد لي بها.

انتشلتني شابة صغيرة، تكبرني بعامين، كانت على
الطرف المقابل تقرأ عن الموت الصغير، انتهى
حديثنا عند استلام الحقائب، والتقيتُ صدفةً عند
باب الخروج بامرأة عجوز، كانت تسند رأسها إلى
كتفي في الطائرة، طلبتُ سيجارة، دخنا معًا لدقيقة،
ثم أراد الله لها أن تغيب فجأة.

تذكّرت هذه الرحلة قبل أيام، والناس وقوفٌ في
القطار، كنتُ قد نُصحتُ من بعضهم ألا أتنازل عن
حقٍّ هو لي، حتى لا أتعب. أحبته أنني سأعمل على
ذلك، لكنّ عائل أسرة وفررنا تذاكر القطار قبل
تحركه بدقائق معدودات، لم نكن نعرف
الرجل من قبل، ورأى الرجل في منتصف

رحلة العودة أن امرأة أربعينية تقف في أول
العربة، فترك مقعده لها.

رأيت أن نصيحة التمسك بحقي وعدم التنازل عنه
لا تعمل معي. مسافة القطار نفس مسافة الطائرة،
والرحلة لا ندري من سيصل أولاً أو من يكملها
حتى الوجهة الأخيرة، ليكن فيها ما ينفع، ولنترك
أماكننا لغيرنا، عليهم يستريحون من وعناء السفر،
أمّا نحن فعلى سفر دوماً، ولن يحبسنا مكانٌ ولن
يُجدي معنا نصحٌ، فطبيعتنا لا أظنها ترتاح لكلام
من هنا.

مشاهد ليست جميلة!

أجمل شيء في اليوم أنني رأيت طفلة ومعها والديها الشباب، ثلاثتهم يضحكون اليوم لمدة طالت حتى وصلت إلى خمس دقائق، ثم انشغلت السيدة بهاتفها، والرجل بهاتفه حتى لحظة مغادرتهم المكان، كانت الطفلة لاهية عنهما وهما عنها في شغل بالهاتف العظيم!

أجمل شيء في اليوم أنني رأيت عجوزاً وزوجته في المطعم، كانا يأكلان الطعام برتابة شديدة، لم ينطق أحدهما بكلمة حتى بعد أن جفت الأواني وفرغت مما فيها.

أجمل شيء في اليوم أنني رأيت شاباً صاحب لحية طويلة وزوجته تجلس أمامه وستة من الأطفال، يلعب اثنين منهم والبقية على مقاعدهم متراصين في انتظار الطعام، لا يتجاوز عمر الوالد الشاب

الـ35 عامًا، كنت أحسده على هذه البطولة في إنجاب هذا العدد الغفير من الأطفال، في بلد تشتكي من ازدياد عدد السكّان وقلة الموارد!

أجمل شيء في اليوم أنني تابعت موظف خدمات اتصال يعنّف سيدة لم تطلب منه سوى أن يؤدي خدمته، ضجرَ الموظف المسكين بعد أن انتصب (السيستم) الذي وقع، مارس الموظف حقّه في الضجر، ولم ينزعج من عودة السيدة إلى بيتها، وهي لم تحصل على ما أرادته، أحسد الموظف المسكين على هذا الأداء الجميل، هذه قطع من الجمال التي شاهدت بعضه اليوم، في بقعة صغيرة من بقاع مصر الجميلة!

الفوضى العربية الجميلة!

أحياناً تجد في الفوضى العربية شيئاً جميلاً مفيداً لروحك، هذا البحر الذي تقف أمامه ليلاً، والمطعم الذي يظل فاتحاً أبوابه للسكري الجائعين، هذا الرجل الذي يسير ويسمّعك أم كلثوم قبل الفجر بساعة، هؤلاء الشباب الذين يجلسون متراسين وجوههم إلى البحر وظهورهم للعالم، لا يأنسون لمن يمرُّ أو يقف أو ينام أو يقع، هؤلاء الراقصون نشوة من فرط الغياب، الرجل الذي يسألك عن رقم غرفتك ولا يتأكد إن كنت مقيماً أو متطفلاً! في هذه الفوضى نوع من اللعب الطريف!

رحلة الحج

أديت مناسك الحج قبل أو بعد أحداث عُرفت في مصر عشية الثورة بأحداث مجلس الوزراء. في ذلك الوقت قبل سبعة أعوام، عايشتُ كُفراً كثيرين ممن كانوا حولي، كفروا بكل شيء كانوا قد آمنوا به من قبل، بل إن بعضهم دنس الكثير من الأفكار والقيم، التي قُتل وعُذّب وسجن من أجلها الكثيرون.

كنت قد فررت تبعاً لنصيحةٍ خاطئةٍ إلى أرض الحرمين، عسى أن أجد فيها رحمة وسعة لم تكن في مصر كما ظننت وقتها. وخاب ظني بعد أول شهر قضيته في مكة مقيماً، كانت تلك البقعة المقدسة أضيق مما توقعت، لم أجد فيها راحتي، إلا

من خلال بعض أفعال حرصت على ألا أتخلى عن القيام بها، وأهمها فعل البحث والقراءة.

كانت المكتبة الوقفية المعروفة بمكتبة الحرم المكي، مجاورة لسكني في منطقة العزيزية، كانت ملاذاً آمناً من خراب كل النفوس التي التقيتها في الجامعات والمراكز، مكنتني من نفسي التي كدت أفقدها في جبال مكة القاحلة، هذا الفعل اليومي بالتردد على المكتبة، والصلاة في وقت الظهيرة الشديد الحرارة، والذهاب بعدها لشرب القهوة والتدخين في (المول) المقابل للكعبة الذي يغطي سماءها، كان هو وردي اليومي في الشهر الأول، حتى تمكنت من زيارة الحرم النبوي الآمن.

بعد شهرين تحمّلت فيهما كل ضيق ممكن، هلّ هلال شهر الحج، بحثت -قدر طاقتي- عما كُتب

عن الحج، حتى أفهم شيئاً من أسرار هذا الركن من أركان الإسلام الخمسة، أغلب ما كتب عنه في مدونات الفقه والأدبيات الإسلامية لا يقرب القلب من شعائره، التي يتقاتل أجدادنا وآباؤنا من أجل تأديتها، لماذا يتمنى هؤلاء الناس حج بيت الله الحرام؟! لماذا الكعبة مهمة ومقدسة إلى هذا الحد؟!

ظلّ هذا السؤال يدور في رأسي منذ أول لحظة رأيت فيها الكعبة، مندهشاً من كل ما قيل عنها، قبل رؤيتي لها، حتى سمعتُ صرخة امرأة هندية، كانت متعلقة بأستار الكعبة، حرّكت فيّ شيئاً جعلني أداوم على الزيارة في أوقات يكون الجو فيها صعباً ولا يُطاق من قاطني مكة!

كانت رحلة الحج التي دون تفاصيلها كل من علي شريعتي وجمال آل أحمد، وما استمده

الكتاب غير العرب، والمستشرقون
الدارسون للتصوف الإسلامي بصورة
خاصة، هي الزاد الذي أشبعني وأطعمني ما أحب
وأرضى، ظلّ ما قاله شريعتي عن الحج ماثلاً أمام
عيني، وأنا أقف في عرفة أو مزدلفة أو منى، غير
أنني لم أعد شيئاً مما فعلت حسناً، أو أنظر إليه
بعين الرضا، باستثناء حملي لبعض العجائز
ومساعدتهم في السير وحمل أغراضهم
والتخفيف عن كل من أقبله.

تعلمت هذا السلوك من الأتراك والجنسيات غير
العربية، كنت أقابلهم قبل فترة الحج، وأتعلّم منهم
أشياء كثيرة، من السلوك والأخلاق العملية، فأهل
التنظير والكلام من الأعراب لا يحسنون إلا الكلام
وعقد الوجوه، التي لا تعرف الابتسام إلا في
خلواتها! أما مع غيرها فلا تظهر إلا الجفاء!

الحجّ كما يراه كبار الصوفية

يتناقل بعضُ الدارسين للتصوف الإسلامي قصةً، يلخصون فيها رأي الصوفية بتهكم وسخرية واختزال لا يليق بعاقل، أتذكر أنني سطرت كلمة كان قائلها الصوفي الشهير بايزيد البسطامي، جاء فيها: "ينبغي أن نلتمس من الحياة المنافع التي تكون فيها منافع العباد جميعهم!" هذا هو الدرس الذي يمكن أن نستقيده من القصة التي تقول: إن بايزيد البسطامي كانت معه بعض الدراهم وأراد أن يذهب للحجّ، وفي طريقه وجد رجلاً عجوزاً صاحب عيال كان فقيراً للغاية، فسأله الفقير عن وجهته، فأخبره أنه ذاهب إلى الحجّ،

حيث الكعبة بيت الله، يطوف بها كما تقتضي المناسك.

فرجاه العجوز الفقيرُ أن يطوف به هو! ويعطيه المال، فهو أحوج إلى المال، فعِياله يعانون شظف العيش بسبب فقره، والبسطامي أحوج إن كان عبدًا لله أن يطوف ببيت الله الحي (فقلوب العباد عيال الله هي بيته كما يقول الأثر الشهير: ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).

كذلك تناقل البعض القصة المنسوبة إلى البسطامي، من أنه زهد في الحج، لأنه لا يريد أن يؤذي مخلوقات الله، إذ من مناسك الحج (ذبح أضحية؛ هَذي) وهو لا يريد أن ينتقل لأجل ألا يؤذي مخلوقًا كائنًا من كان! كذلك نُسب إلى البسطامي أنه قال: "ما النار؟ إنها لعبة

صبيان. اجعلني فداءً لأهلها"! كان البسطامي يريد أن يكون للعباد فداءً، كما كان في حياته، التي كان يزرع فيها الثمار حقيقة ويوزعها على عباده! وفي الوقت نفسه يبذر في قلوبهم محبة ربّ العباد ويعرّفهم به! لكننا ننشغل عن المعنى بصورة اللفظ، ونجتزّ من جدال السابقين، ونتخذّر في وعي الحاضرين المغيّبين، وننصرف عن كافة الدروس النافعة للعالمين لننشغل بـ(البسطامي) هل كفر حين قال ما قال؟!!

هل قال بسقوط التكاليف؟! هل الصوفية مبتدعون؟!!

ما يسكنك حيّ لا يموت

الشيء الساكنُ فيك بصدق ومحبة، مهما حاولت أن تهرب منه أو تغيب عنه لن تستطيع ذلك أبداً، وما دمتَ تحبُّ شيئاً ويسكنك، لماذا تغيب أو تهرب؟ لأنك لا تختار أحوالك بنفسك، هناك شيءٌ ما ينقلك من السماء إلى داخل الطين في لحظة، كلما حلقت نحو الأزل الذي تؤمن به يشدك طين الواقع، حتى تستفيق على صراخ جحش أو نهش لحم أو سجن طفل أو... ليخبرك من حولك بأفعالهم أنك مجرد حالم بئس لا يحسن عيش الحياة. لكن الجميل أن ما يسكنك حيٌّ لن يتركك أبداً مهما طالت غيبتك!

خمر هذه الحياة

أحترم جدًّا بعضَ الناس الذين يختارون الصمت في ظل هذا الضجيج، يقدِّمون لأنفسهم خيرًا، ولا يمتُّون على غيرهم ولا يتباهون بشيءٍ في استطاعتهم بذلِ أضعافه، أحترمُ جدًّا ألامهم الصانعة والمحفزة على الاستمرار، تجعلني أشفق على كثيرين ممن اختاروا الضجيج وقنعوا به، وباعوا أنفسهم لغيرهم من التائهين، يجعلني هؤلاء الطيبون أنسى كل هذا الكم من التشوّه ولا أشعر به، كمن احتسى كأس خمرٍ معتقّة بعد مفارقتها لها عمرًا. في الجنة خمرٌ وُعد المتّقون بها جزاء حسنًا، وهؤلاء الصامتون خمرٌ هذه الحياة الدنيا، وأجمل ما فيها. طوبى لهم أينما كانوا!

ما يسعدنا بسيط للغاية

تسعدنا كلمةً طيبةً نسمعها من أحد الصادقين، عن شيء يمكن أن يتحقق، عن ولادة جديدة حدثت لشخص دون علةٍ أو سبب، يسعدنا حلمٌ لا نبحث عن تأويل له في الكتب، يسعدنا فنجان قهوة في الصباح أو في المساء، يسعدنا أن نرى ابتسامة لصديق عانقت عيناه وجه من يحبُّ، يسعدنا تقديم أحدهم تمرًا أو حساء بيدٍ كلها محبة وكرم، تسعدنا رؤية صورة ليس فيها القمر، تسعدنا أشياء لم تعد تحدث في بلادنا إلا نادرًا.

نحن في سجن كبير يحتاج إلى أمل

نحن نعيش بالأمل، نحيا بشيء غير ما هو مبذول ومتاح لنا، نحيا بشيء غير مطلوب ولا مرغوب من الكثرة، فأبسط الأشياء التي قد تبدو تافهة لغيرك، هي ما ينضج بذرتك التي تنتفض من أجل الحياة الحقة، الأشياء التي تجعلك تبتسم لا شرط أن يكون فيها مسحة من مزاح.. ربما الأزمة تجعلك تبتسم بصدق، ربما وجه مبتسم يجعلك ترحل من هنا إلى فضاء أكثر سعة، ربما الكلمة الطيبة التي بشرَّ بها الرسول ذات مرة، نحن نعيش أياماً معدودات، لكننا لا نحيا فيها سوى لحظات أو دقائق على الأكثر، لا نحمل أرجلنا ونرحل من هذه المساحة التي ما عدنا نطيق الجلوس فيها، ولم نعد نشعر بأهلها أو يشعرون بنا، لم نخض في طريق الحياة الوعر، ولا نزال نخشى الموت،

نحزن للحظات من أجل سجناء الجدران ونحن في
سجن كبير ولم نعد نأبه.

كل ثمرة من ثمار هذه الرحلة المتعبة لا بد أن
نقدِّرها، لأنها جزء منَّا، ليس شرطاً أن
يرضى الناس عنها، أو يقبلون عليها، أو
يهتمون بها. نحن وحدنا من نعرف كيف حُرثت
هذه أرضنا وكيف أثمرت، وكيف عطشت وبأي
ماء ارتوت.

ثمارنا لنا لأنه لا فرق بيننا!

الأحرف ظلُّ زائف

ملاحُ الكثيرين ممن نراهم تغيب عنا رغم
إبصارنا لهم. تشعر أن أشياء وأشكالاً تسير أمامك
ولا يبقى منها شيء بمجرد عبور الشكل أمام
عينيك، لا فرق بين رجل أو امرأة، هي أجساد
وصور لا تعنيك، ولا شيء يربطك بها، لا يبقى
من اليوم شيءٌ يرسخ في ذهنك، يوم تلو الآخر،
تتمنى أن تمرَّ جميعها دون أن تهتم، ما اليوم وماذا
في غدٍ؟!!

لعلك تنتظر فرجة من السماء ينتزل منها غيث، أو
يطير بك براقٌ لتعبر منه إلى مكان تفارق فيه كل
هذا، تبدو الكلمات واحدة، لا فرق بين رواية أو
بكائية على طلل أو إطناب كثيرٍ حول جمالية هذا
وبشاعة ذلك، كل الأحرف ظل زائف سرعان ما
تمحوه زفرة أو لحظة تتذكَّر فيها أن كل هذا لم يعد
لك ولا شيء فيه يساعدك على رؤية اليوم الجديد.

حياة الصلابة

فكرت ذات يوم وأنا في اسطنبول، صعبة بعض الدراويش ألا أغادر مكاني، أن أقف بجوار أي بائع يقدم الشاي والطعام للزوار، وحينما تنتهي الزيارة أجلس في المكان نفسه ولا أغادر، أو أسير وحدي، أشاهد السماء الواسعة، وأنظر إلى المكعبات المنزلية في الأسفل مبتسمًا.

كان المكان مشجعًا على ذلك، فالطريق إلى مقام النبي يوشع في تلك المنطقة يذكرني بمكث النبي محمد غار حراء، ذلك الغار الذي شهد بداية الرسالة والميلاد.

ما شجعتني على ذلك شابٌ وفتاة، جلست في محلّتهم وشربت وطعمت عندهم، بمال قليل. يقدّم كلاهما خدمةً للطالبين، ثم يعود كلٌّ منهما إلى قراءة شيء مما يهتمون به. تذكرت هذه المشاهد اليوم، وأنا أمرُّ على مؤسسة حكومية أغلب موظفيها لا يفعلون شيئاً على الإطلاق، سوى احتساء القهوة والتدخين والحكي المتواصل في أي شيء لا معنى له. حمدت الله على ما فات، كوني لم أمت كيّل يوم كما يموت هؤلاء في ظل وظيفةٍ تعلم البلاد وتفسد الحياة. لتحيا حياة الصلابة بكل ما فيها من متعة ولذة وألم.

الناس في الحانة

في الحانة تذوبُ جميعُ الفوارق بين البشر أكثر من أماكن العبادة اليوم، مع الاستغراق في احتساء الشراب تلعو الإنسانية، وتكون جميع الحواس في شعور بحقيقة ما يُطلب منها، يتذكر الإنسان قولَ أحدهم عن مستغرق في صلاةٍ طلبَ أن يبتروا ساقه لحظة الصلاة؛ لأنه لن يشعر وقتها بالألم. بالنظر إلى وجه الثمالي نتذكر مرويات عديدة من تراثنا الإسلامي، قد تظهر عجيبة للبعض، لكن العجب من عدم تكرار ما يروى من مناقب السابقين، وعدم رؤيته متجسداً رغم كثرة المصلين.

الحانة مكانٌ للبهجة، كمعبدٍ بوذي في اليابان، ومكانٌ للحزن كخلوة راهب في الدير، وجلوس عابدة على سطح منزل يتساقط دمعها حتى ينبت الذرع.

في الحانة تكثر لحظات الصدق، يتذكر المرء فيها بكاء الدراويش في المقامات، ووشوشة العجائز لرمانة القبر، أن يصلح الله حال بقرتها وتدرّ لبناً كثيراً، أو يجلب لها قماشاً حريراً وعريساً غنياً لابنتها، وأن يبذل الله حذاء ابنها بحذاء جديد يتحمل السعي في الطريق الطويلة.

اختيارُ الحانةِ واختيارُ الصلاةِ وَهَمٌّ، وإلا ما رأى الخيّام وغيره أن كلَّ شيءٍ مساقٌ بالجبر. أكتب هذه الكلمة بعد مشاهدة رائعة داود عبد السيد "أرض الخوف" وإن كان الفيلم لا علاقة له بما كتبت.

صوتُ الموسيقى في الحانةِ جميلٌ، والرجلُ الطاعن في السن، الذي يدخن سيجاراً كوبيّاً له رائحة نفاذة وصديقتة التي ترتدي الأحمر، يجعلك تبتسم لهذا الجمال، الذي يذكرك بلحظة سينمائية مسعدة، والفتاة البيضاء الجميلة

والسمراء الباسمة دون سبب، الكل غائب عنهم،
ويرمق سماءه بنظره، يجعلك ما تراه زاهدًا في
كثير من الدفاتر والأوراق التي ترهق العقل
بحديثها عن شيءٍ لا تراه، وتتمنى أن تشاهد
بطرس الرسول وهو يخشى السير على الماء،
لضعف إيمانه حتى تنظر إليه وتبتسم على كل ما
مرَّ من صور في حياتك!

كنت نبيًا فنضجت!

تابعتُ عشرات حوّلها أصحابها إلى قوة واقتدار
على بناء حياة جديدة، نظرت إلى أصحاب هذه
التجارب بتقدير واحترام ، وجدتُ شيئاً عندهم لا

يُدوّن في الكتب، تتطرق وجوههم بآلاف الكلمات،
وتحمل أيديهم لمسة تشعر فيها بما يشعر به طفل
يرتوي عطشه من ثدي أمه، شيء مفقود فيمن
حولك تجده عند هؤلاء، لكن الارتواء يقنع به
الطفل الرضيع، والتقدير والاحترام ليس
وحده المطلوب، فمرغوب القلوب هو أن
تستطيع أنت اجتياز عثراتك والنهوض،
والإيمان بأنه في مستطاعك أن تنهض في كل
لحظة، أن تترك عينيك يجري ماؤها وتُنزل الغيث
على روحك العطشى، أن تترك العنان لقلبك
ليرتعش، أن تكتب كلمة تعبر عن حقيقتك التي
تتعرف عليها كل يوم، أن تحرق كل ورقة
ورثتها ولم تعد تعبر عنك، أن تغسل السواد
الكثير من فوق الأوراق كما غسل شمس
قلب الرومي الرقيق، سبك وجودًا جديدًا عليه،
أزال أظافره القديمة، نبتت له أجنحة لم ترها
الملائك من قبل، طار إلى حيث لا نهاية ولا

حدود، خفق قلبه، ارتفع عاليًا ولم يعد يملك
العودة إلى ما كان، كان نبيًا -كما قال- فنضج
واحترق!

أحاديثنا ليست عنا

عن الغربية تحدثنا اليوم، عن الجسد المتواري في
زحام الأبدان المتهاكّة، عن النفس التي هبطت من
المحل الأرفع، وتشتاق إلى العودة إلى مكانتها
الأولى، عن الصُحبة التي تمثّل خطوة الطريق
وركنه، عن الصحبة التي نرحل من خلالها إلى
صحبة أو خلة أخرى، إن أنعم الله علينا بها، عن

الوعي وآلمه وحرقته وذبحه للوهم فداء
للنفس التي تستحق الحياة.

عنا نحن مساكين أهل الدنيا؛ مَنْ نخجل مِنْ ذواتنا
وأفعالنا، ونحن في حقيقة الأمر نحتاج إلى
مصالحة مع أنفسنا، عن خليفةٍ مضى ولا
يستحق أن نذكره اليوم، عن مؤسسةٍ تتسلط
علينا وتتحدث عنا ولم يثبت لها لسان حيّ بعد. عن
رحلة يُظنّ بها أنها بدأت، ولا نزال نحن نتردد في
خطواتنا الأولى لبدئها، عن رجلٍ مات، عن امرأةٍ
تقتت عظامها، عن اثنين استسلما للقدر
والواقع، عن ملايين لم يعد لهم حساب ولا
يُنظر إليهم ولا يُعتد برأيهم، عن سقيفةِ بني
ساعدة، عن وفاةِ الرسولِ الأكرم، عن مكانةِ
الشيخ في الطريقِ الصوفي، عن رهبانٍ قُتلوا
وقُتلوا، عن أناسٍ وثُّوا لو كفروا، عن صلاةٍ
دون ركوع أو سجود، عن عُزلةٍ وسط

الجماهير، عن قلعةٍ تبتسم رغم سكتها
باللصوص، عن طعامٍ قليلٍ لا يزال يشبع
الجماهير الغفيرة، تحدثنا عن كل هذا ونسبنا أن
نتحدث عن أنفسنا!

المرءُ يحيا بخليله

يفهمُ البعض أن المرءَ على دين خليله، أي أنه
بمجرد أن يكون له صديق ملحدٌ يصير ملحدًا، أو
صوفيٌّ يصبح هو صوفيًّا، أو مسيحيٌّ يتحوَّل
هو إلى المسيحية. الإنسان يسعد ويرتاح ويأنسُ
بخليلٍ صادق، ليس شرطًا أن يكون صورة مكررة
من صديقه، أو يعتقد ما يعتقد صديقه، هو يتعلم

خصالاً من صديقه تساعد على الحياة، يستفيد من تعاملاته معه، يأنس به في جفاف الواقع الذي نعيشه رُغماً عنّا، يتأثر بشيءٍ يجعله من إنسانه شيئاً، لا أن يهدر ما بقي منه بحكم صحبة زائفة. صحب النبي عليه السلام ورقة بن نوفل ولم يكن على دينه، وصحب النبي أبا طالب عمه فترة ولم يكن على دينه، وصحب أصحابه نفراً كثيراً لم يكونوا على دينهم. ما نعتده شيءً وصحبة الإنسان شيءً آخر.

الولادة الجديدة

الشيءُ المفقودُ الذي تبحث عنه فيما حولك من أماكن، في وجوه الآخرين وحياتهم، في تجاربهم، يجعلك تخوض معركة كبيرة، معركة داخلية تتفجر فيها براكين، وتخرج منك أشياء لم تكن لتظهر للوجود إلا عبر هذه الرحلة، الرحلة لا تعرف الثابت والقار، ولا تعيشها كجوهر مصونة داخل صندوق.

الرحلة أول شرط لبلوغها الحركة المستمرة، الرحلة إيمان بالخلق المتجدد، إيمان بالبعث حتى لو لم تكن هناك آثار وشواهد، في الرحلة ستلتقي بلصوص ينطقون بالحكمة، سوف تنسى ما أصبحوا عليه بحكم الزمن، ستلتقط من أفواههم ما يعينك على الرؤية، ستلتقي بنساء تقطر أجسادهن ألمًا وحسرة، سيغسلك الألم لترى حواء رؤية جديدة، كثير من العابرين ستتذكر قصصهم أمام البحر أو مع بعض الأنغام، لكن أجمل ما في

الرحلة أنك ستشاهد نفسك حيًا، تتغذى من كل شيءٍ يمرُّ بك.. ما أجمل إيمان الصوفية بالولادات المتجددة، فنصيحتهم الكبرى للمريدين:

موتوا قبل أن تموتوا!

مطلوبنا أبسط من المساحات الشاسعة من حولنا

المساحة التي نجلس فيها تمثّل مرَبَّعًا صغيرًا للغاية، لا يمثّل المربع الذي يكفيننا شيئاً من حجم هذا البناء الهائل، لا ندري لماذا يكون هذا المكان سجنًا وذلك المكان بستانًا؟!

هذا المكان كئيبًا وذاك مفرحًا ومبهجًا؟! بسبب
بعض الناس أو بسبب أفعالهم؟! لا أظن أن هذا
وحده كافيًا، فمن كان اليوم معنا فقد غادرنا...
بسبب أرواحنا، بسبب من سواها فمنحها الآن سعة
وسجنها في آونة كثيرة؟

المساحة أو البقعة التي نعيش فيها، لا تنهض
وحدها سببًا كافيًا، والروح التي لا نملك
محاسبتها ليست وحدها السبب، والذي خلق
فسوى لا يمكننا أن نحاسبه على ما سوى!

الفن والحياة

تدبّر سيرة كاتب في حجم نجيب محفوظ
أفضل من قراءة عام دون وعي، ومراقبة أعمال
مبدع مثل داود عبد السيد أفضل من مراقبة
تصرفات كثير من الكتّاب ومتقفي اليوم. هذه
الأمر مثرية للإنسان لأنها تناشد إنسانيته،
وتبعته على السؤال الذي ينجيه من أوهام اليقين
الزائف، أو عفن الداخل المظلم!

حلمنا الهرب

كتب صديقي عن الأحلام الكبرى التي تذهب مع
سيادة ظلام العتاة والجبارين، وعن أحلام
الطفل الصغير في داخلنا، التي نضحك منها

عندما نفيق، ولحومنا تشوى على نار أفكار من حولنا، كأننا مجبورون طيلة الوقت، حتى مساحة الحرية التي نملكها ونحن في عزلتنا القهرية نزهد فيها، ما عدنا نرغب في شيء، ونتردد في فعل كل شيء، والحلم الوحيد الذي نتجاسر على البوح به هو الهرب من كل شيء، والصمت عن كل ذي معنى مرهق أو مدهش أو محزن!

كل ما يُكتب على هذا النحو يجعل الحزن يسود أكثر، ويجعل الحياة سجناً لا مفرّ منه، ويجعل حال من هو خارج الأسر أسوأ ممن غُيِّب في السجن، الأخير لا يزال لديه أمل في النجاة والخروج من ذلك الققص، أما من كفر بكلّ الأحلام وصار كالريشة تحركها الجبابة كيفما شاءت، فلا بدّ له من غسلٍ بماء غير ماء العماد،

ماء لم يتمم أحدً بترنيمة عليه، ولا يوضع في
كيس من أجله، ماء كماء الزهرة المفقود.

يوم جديد

فكرتُ بعض الوقت أن هذا اليوم هو أول يوم مما
تبقى في حياتي، فماذا أصنع كي أكون سعيداً؟
وماذا فاتني كي أتداركه؟ بعض الوقت أعددت
برنامجاً جيداً ومضيت ألزمت نفسي به كي أسعد ولو
للحظات، وأصنع ما يجلب علي السعادة أيما كان
الفاعل. بمرور يوم واحد تعود الحياة إلى ما كانت
عليه، وفي أوقات يمرُّ أسبوعٌ جيّد بسبب التزامي
بفكرة أن كلَّ يومٍ يبدأ هو يوم جديد، وفي الوقت

نفسه يوم من أيام معدودات، ليس هناك حل من الخارج لترتيب الحياة كما نريد، ما دامت لديّ إرادة، لا بد أن أصنع برنامجي بنفسي وأخفق فيه وأعود إليه وأكرر المحاولات، كما هو شأن الإنسان وطبيعته، ففي صيغة التوبة عند عوام المسلمين أو في صيغة الاستغفار العظمى مقولة ذهبية تؤكد على إنسانية الإنسان: (وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت).

نرى أنفسنا في الآخرين

إن النفس التي تراها بعينك الناقرة لسلوكها الظاهر نفساً أماراة بالسوء، هي عينها النفس المطمئنة، لو

تمهّلت معها للحظة وعايّنت السوء البادي لك
بدقة، سترى اطمئناناً كبيراً.. سترى ما يخجلك
من نفسك لتسرُّعك في الحكم على ما لا يمكنك
عيشه ولا تطيق عناه لحظة!

اللغةُ والإحساسُ

اللغةُ مفتاح للتواصل والوصول والدخول في
الآخرين وعوالمهم، اللغةُ ليست مجرد حروف
واصطلاحات نتفق ونتعارف عليها، اللغةُ روحٌ
وعقلٌ وعالمٌ كبير، إن لم يلتقطها من تحاوره
ويحسن فهمها قبل نطقها، يصعب عليك أن

تبلغه بمراد قلبك وعقلك. الاشتراك ليس
في النطق فحسب، الاشتراك في الحياة والحس!

هل يمكنني البدء من جديد؟

هذا سؤال جميل وجماله في إيمانه بالذات
وعدم فقد الأمل مهما كانت الظروف، والغفران
والصفح للنفس عن كل خطأ ارتكبناه وعن كل
جميل نرتجيه ولا يمكننا أن نحصل عليه بإرادتنا.
لذا فالإجابة بنعم هي أعز وأعلى ما نقدمه لأنفسنا.
هل يمكننا محو السابق؟ هل يمكن أن ننسى الألم
واللذة والغروب والشروق؟ بالطبع لا يمكن أن
نمحو قطع البياض والسواد المحفورة في باطن

الجسد، وتبدو آثارها ظاهرة في كدمات العين
وتجاعيد الوجه، لا يمكن أن يمحو طفل الدهر
أثر رضاعته من تراب الأرض الجامدة أو
قطرات الرحمة النادرة، كل ما سبق وما
هو آتٍ قطع متجاورات تجسد جزءاً من محاولة
مواجهة الفناء والعدم.

عبادة الذات

عبدوا ذواتهم بعبادتهم لأديانهم، فجعلوا عبادَ الله
يكرهون الدينَ ويسبون الدينَ ليلَ نهار! أما مَنْ
عبدوا الله في حكايا الصالحين كانوا سبباً في
تطبيب قلوب الملايين، فقرأنا عن أحدهم ذات يوم

أن رجلاً من أمة (الوحدة والتوحيد) أسلم على يديه
لله عشرة ومئة وألف، وحضر جنازته المسلم
واليهودي والمسيحي والبوذي، لا أظن أن بوذيًّا أو
مسلمًا يحضر جنازة لأحدهم اليوم إلا إذا كان له
عند (الميت) وأهله مصلحة فحسب!

هم البشري

بشرَّ الله زكريا ومن قبله إبراهيم، وبشرَّ
مريم وأرسل محمدًا بشري برحمة للعالمين. من
أحسنَّ بالبشري فلقلبه ومن كان قلبه خلواً من هذا
الإحساس فلا ضير ربما يُرزق غداً ما يُشعره

بالرحمة، سواء كان نعمة من الكون أو لوحة من الطبيعة أو يدًا حانية تهدده ساعة الشدة.

هم البشرى، لا فرق بين رجلٍ وامرأةٍ في الطريق، الكل سواء، لا فرق بين من لبس الثياب أو الأسمال، لا فرق بين من تزوج أو اختار العزوبة، لا فرق بين غلامٍ وكهل، لا فرق بين جميلة أو عجوز.

هم البشرى، شمسٌ تسطع في سماء برودة الحياة، حدث مفرح يقطع اليأس والملل.

هم البشرى، حديثٌ عجوزٍ مع ذي النون. تصويبُ رابعة لرجال الزهد والحديث. تبديد أمي لكأبة المشهد. هم البشرى، تركُّ الإنكار والانشغال بالخلائق. هم البشرى كل في فلكٍ يسبحون.

حديثُ الروحِ حقٌّ

أن تلمسَ روحَ أحدٍ عبرَ النظرِ في عينيه صورةً أو حسًّا، أن تشعرَ بنطقه من قلبه دون أن يحركَ شفتيه، أن تراه حيًّا رغمَ قربه من الموت والأموات كل يوم، أن تنتظره كل يوم لا ليتحدث أو يوجد عليك بشيءٍ غير وجوده، أن تشعر بالغرابة عن العالم بافتقاده، أن تجتمع فيه كلَّ خصال الطبيعة التي تحركك وتعيد صنعه في أبهى صورة كلِّ يوم، أن تتأبر وتجتهد مؤمناً أن يؤمن بك ولو لم يعلن إيمانه هذا، لا يمكن لكلِّ هذا أن يسمّى بشيءٍ مصنوع من حروفنا العرجاء

المتهاكة، هذا حق كحق الولي الذي لا يستطيع
ذكر حقه ومرغوبه إلا بالضمير هو.

الصورة

في العيد الصورُ أجملُ من الواقع، والتحضيراتُ
أفضلُ من الأفعال، العيدُ أجملُ وهمُ نضحك
به على أنفسنا، ومن العبث أن نقول لأنفسنا: كلُّ
عام ونحن في فرح بالأوهام والأحلام!

لغة الأرواح ولغة الأجساد

هناك لغةٌ للأرواح ولغةٌ أخرى للأجساد، لا تلغي إحدى اللغتين الأخرى كما يظن البعض، ولا تفسد واحدة الأخرى، بل أحياناً تكون واحدة منهن سبباً لتطور الوعي، وتحقيق الإنسان وامتلاكه لنفسه التي يبحث عنها في عالمه الخاص.

يمكنك أن تسجّل ما تقوله حركة يديك أو قدمك أو رأسك بعد أن تنتبه لها، الحركة تخاطبك في أحيان كثيرة، لكنك لا تصغي لها، يمكنك أيضاً أن تستمع لروحك العطشى إلى السماع، أن تنظر إليها نظرة حقّانية، أن تكشف عنها ما يجعل نظرتك حبيسة لجدران صنعتها بنفسك، يمكنك أن تقف، أن تترقد، لكن لا يصح أن تغيب عن هذا العالم المتحرك في كل لحظة في باطنك وظاهره!

لغة الحيّ والميت

للأموات لغاتٌ شتى بقليل من الجهد والدربة
يوصلها رماد الأفواه إلى أجسادهم البالية،
بقليل من الماء ترتوي الأجساد، وتعلن
من معابدها الحياة! لكن ليس للأحياء سوى
لغة واحدة، تتجسّد أحلامهم في قلوبهم،
واقعهم خيال، لغتهم لا حروف تعبّر عنها، لا
يتقاسم خبزهم فم، تحتاج أرواحهم إلى حاضنة
كمريم، لا تأبه مريم لكهنةٍ أو عماليق، ولا تفرع
من مخاضٍ آتٍ، ولا يطيق ما تطيق روح القدس،
لا ترضى مريم إلا بميلاد مسيحها.. يضجرُ
المسيح، أو يُصفع على خده، أو يصاب

جسده، المهم أنها تهبُ الحياة لمن يستحق...
الحياةُ والميلادُ نعمةٌ، والألم نعمة، والتعب نعمة،
فالحمد لله حمداً كثيراً على جميل نعمه.

أن تقدم لنفسك شيئاً

تبدو الخيارات أمامك قليلة جداً، ربما يسمي البعض حالات محبة العزلة وعدم الحديث مع الناس واجتتابهم والبعد عن كل ما ينشغلون به نوعاً من الاكتئاب، خاصة إذا صاحب ذلك زهداً في أنماط الحياة المتاحة، وتقبُّل للحادث قسراً وقهراً.

تتذكر شيئاً واحداً يسليك في كل هذا، اعتماداً على ما ورثته من نصوص دينية، إن ما يحدث هنا لونٌ من ألوان تخيل القيامة والعالم الآخر، الذي لن تستطيع فهم معالمه المرسومة عبر ظلال المؤمنين، وإذا قامت القيامة -كما يشير إلى ذلك حديث نبوي شريف- وفي يد أحدهم بذرة يستطيع أن يغرستها، فليفلع ولا يأبه لما يدور حوله من أساطير وحكايات الآخرين، هذا هو الخيار الوحيد الذي عليك أن تتحمل بسببه كل ما يحدث من مزعجات حتى تفرس بذرتك، تموت أو تحيا.. أو تستيقظ من الحلم، أو تحدث معجزة تلغي كل ما فات وما هو واقع، لا يهم، المهم أن تقدم لنفسك شيئاً!

يُمكثُ في الأرض

العملُ نعمةً، فيه حياتنا، الخطأ فيه مفيدٌ قبل الصواب.

العملُ حركةٌ، والحركةُ بركةُ الحياة. من جملة الأوراق الجميلة التي شاهدها من ميراث أنماري شيمل ورقة لا أزال أسعد كلما تذكرتها، كتبها بخط يدها، متأثرة بما قرأته عند الصوفية: الحركة بركة.

ثمرات الأعمال هي ما يبقى من شجرة الإنسان، لا يبقى من الكلام واللفظ شيء، لا يبقى من الاعتراض والتأييد والإنكار والشتم شيء، لا يبقى إلا ما أخلص له الإنسان وحقَّق فيه آدميته.

السُّبْحَةُ الذَّاكِرَةُ

قبل عشر سنوات كتبت كلمة عن مسبحة أُهديتُها:
 أشتاق إلى مسبحتي، أشتاق أن تطوّق عنقي كما
 لفّها حول عنقه رجل طيّب التقيُّه، أشتاق أن أدور
 في دوائر المسبحة، أن أفرد بها أصابعي المعوجّة،
 حتى ألمس قلبي، فأرتعش من جديد رعشة لذيذة
 كتلك الرعشة القديمة التي أتذكّر الآن طعمها الحلو
 وعطرها العنبريّ الذي ملأني، كان هناك رجل
 طيّب يحدثني عن ذكر القلب قبل ذكر
 اللسان، كانت المسبحة تدور وحدها ونحن
 نتجاذب أطراف الحديث، لا تتوقف وإن توقّفت
 الأصابع عن العدّ أو الحركة، تلك السُّبْحَةُ
 الخشبية كان كلّ شيء فيها حيًّا!

الإنسانية

الإنسانية أهمّ من كلّ شيء، أهمّ من الدين، أهمّ من تحصيل المعارف، أهمّ من تحصيل كلّ فان، أن يحافظ الإنسان على ما تبقى من آدميته ويعمّل على تطويره، كلّ شيء يأتي بعد ذلك سهلاً، كلّ ما نسمعه ونراه من لغط الاهتمام بالدين، والافتخار بصوره وترديد عباراته، مجرد أوهام زائفة!

في رمضان

قبل أذان المغرب بقليل كنتُ أسير قريباً من جبل المقطم، قابلني شابٌ نحيفُ الجسد، هو وطفلته، ألقى السلام عليّ ببشاشة لم تعد منتشرة اليوم، كان الشابُّ فرحاً وهو يقول لي: كل عام وأنت بخير ودعاني للإفطار دون أن يعرفني، شكرته وسلّمت عليه ومضيت في طريقي، لكنني لم أنس ابتسامته الجميلة ولا فرحة طفلته.

رأيتُ أن هذا المشهدَ مما يبعث على الحياة في هذه الصحراء القاحلة، بالأمس رأيت نظرة رجل لم يرَ والدته لفترة طويلة، كانت عيونهما تتطرق بكل جميل يمكن أن نبحت عنه، مثل هذه النظرة التي تجمع الإنسان على

مفقوده تساوي الدنيا وما فيها، فالحمد لله على أنه
لا يزال بيننا من يبحث عن الحياة!

لا طاقة لمخلوقٍ منهُكِ على تحمّل الأذى

يلازمني دعاءً طيلة اليوم.. أرده.. صوتُ
الدعاء أن لا أكون سبباً في أذية أحدٍ من مخلوقات
الله، وأن يصرفَ الله عني شرَّ عباده، وأن أكون
نافعاً لنفسِي ولغيري إن قدرَ الله ذلك.

في هذه الرحلة لا طاقة لمخلوق على أن يتحمّل
أذى غيره، يكفي كلَّ إنسان ما يزاحمه من
مشكلات، فالحياة بألوانها اليوم تحمل الكثير من

الأذى. كان بعض العقلاء يرى أن الجنة والنار
نوعٌ صورةٍ ومثال، يقرب الله للعباد من خلالهما
جزاء الفعل والترك، الجد واللهو، لم يكن يرى هو
وغيره أن الجنة جزاء والنار عذاب، كان قد رأى
أن العذاب في توقّف النشاط والحركة وانعدام
الفعل الأصيل الخلاق. وقد خلت حياتنا اليوم
بالفعل من الأصيل والخلاق، كلها تقليدٌ
وانصياعٌ تام وانحاء للشخصية ومتابعة للقوي
والغالب، فكرًا كانت أو سياسة أو وراثة أو دينًا...
وفي وسط كل هذا.. لا محبة حقيقية، ولا أخلاق
غير النفعية، ولا صمود إلا لأصحاب الوسائل
الرخيصة والمميّنة!

عروة الغريب

حدثني عروة اليوم حديثًا مختلفًا عن المتداول هنا وهناك، و عما يلاحقه الناس ويجوّدون في تطويره من أحاديث الوهم والعبث وأمراض القلوب من حقدٍ وحسدٍ وجشعٍ وخيانةٍ وتلويثٍ.. حديث عروة كان عن بحث الذات عن الحياة بحثًا لا يتوقّف، عن سمع الأذن على الحقيقة، عن رؤية الأشياء كما هي، عن القراءة والانتقال منها إلى ما بعدها، عن محو الكتابة حتى لا تقبرنا الأشياء. بدا عروة حزينًا أو بعيدًا أو ضجرًا في هدوء! من الواقع من حوله، من الناس، من الصور، يفرّ الناس من حديث كهذا لأنهم حمقى ومجانين، يبيعون أنفسهم لأوهام السيادة والسيطرة والتحكم في العرائس من أمثالهم، كل الوسائل مع عروة توصل إلى النور وإن صاحبته النار، كل الطرائق مفتوحة للوصول، لا حواجز ولا عوائق تمنع

من أراد أن يبصر وينخلع من هذا السراب،
ذهب عروة وذهبت لأعيد النظر والفكر فيما كان
وأتابع رؤية العبت من جديد.

الألم بحرٌ والرحمة ليست جدولاً

مرت أعوامٌ كثيرة كانت صعبة للغاية، كان النوم
والراحة فيها من الندرة، كان البكاء مطلباً
عزيباً، كانت الصحبة كبيت عنكبوت هَرم يلتف
حول الرقبة، يخنق بهدوءٍ دون أن ندري به، كان
الحبُّ والعشقُ نعمة نحاول أن نحيا به جزءاً من
آدميتنا، تحوّل الألم إلى نهج حياةٍ دائم لا يفارق،
فاعتادت الروح على أن تلتذ به بدلاً أن تتذكّر

أوجاعها، ظلت الروح عطشى إلى راحةٍ أو ألمٍ جديد، فقد ألفت ما يحدث وإف شيء واعتياده يُمسي مرضاً لا شفاء منه، الألم بحرٌ والرحمة التي نشعر بها ليست جدولاً، الرحمة قطرة ماء تنزل في فصل من فصول العام، ورغم ندرتها وعدم تكرارها كثيراً تكفيها هذه القطرة للاستمرار في الحياة، ومهما تحطمت الرأس بمطارق الحبيب لا نشكو للغريب..

أصبحت العيون مغلقة، لا تقوى على تخيل إِبصار شعاع من نور، والفم الواسع لا بد أن نخيطه بأسلاك حتى لا يُفتح مرة أخرى، والساق لا بد أن نتفتت، حتى لا تسعى من جديد إلى حتفٍ يتجدد كنار المسلمين التي تطلب المزيد، تمرُّ المرارة عبر فتحات فحرتها السماء باسم المحبة، تمرُّ ولا تتوقف في محطة لتعلن نهاية رحلتها، تمرُّ ومهما نطقنا فنحن الخطأؤون، ولا بد أن يعلن الرابي

الذي يرتل نصوص المشنا البراءة من أفعالنا،
وبرحمة منه يطهرنا، برجمه لنا بأحجار صغيرة،
رجماً لا يتوقف حتى يعلنَ الناسُ موتنا، بعد الموت
يتذكرنا البعض بالرحمة، والبعض يناقش: هل
تجوز الرحمة على أشخاص لا يؤمنون بفقها؟

نحن لا نستحق الرحمة حسب شرائع المؤمنين!
تمرُّ الأعوامُ بقبض، بسطه كمعراج نبيّ، يحدث
مرة وينزعج الناسُ من حدوثه، فينكرونه آوارة،
ويأولونه أحياناً، ولا يلتفتون إلى حقّ النبي
والإنسان في لحظة من بسطٍ من أجل استمرار
الحياة.

ما يسعد الروح!

الشيء الحقيقي والمسعد للروح حتى ولو ظننته
بسيطاً، فهو نادر جداً، تختبره بنفسك، وحدك من
تراه وتدركه، لا يمكنك أن تستشير فيه غيرك، لا
يمكن أن يدركه غيرك..

كلّ ما يسعدك أو يحزنك يخصك وحدك، ولا
يشاركك فيه إلا من وحدك ووحدته فأغناك به عن
العالمين!

الإنسانُ أرفعُ شأنًا

يظلُّ الإنسانُ أفضلَ من كلِّ أفعاله التي يقترفها ولا
يمكنه تبريرها لغيره، في كلِّ فعلٍ يفعله يرى

ويعرف شيئاً لم يكن يبصره من قبل، يتأكد لديه أن
معنى الحياة أوسع من كافة الأنماط التي يُسجن
فيها تحت مسميات تلمع وهي في الحقيقة مجرد
أوهام!

سفرٌ مستمرٌ

في أوقات كثيرة يتمنى الإنسان أن يسيرَ دون
توقفٍ، أن تظل السيارة التي يركبها أو القطارُ
يمضي دون أن يكرر وقوفه في محطات، بلا
وجهة يمضي، أن يظل الليل ليلاً طويلاً أو النهارُ
لا يطويه الليل، أن تكون مغارة الإنسان التي يسند
كتفه فيها إلى حائط متهاك بحجم الدنيا، وأن يكون

نومه كنوم أهل الكهف، ألا يتوقف الغناء لحظة،
ألا يغيب عن عينيه بساط السماء، ألا يتوقف عن
الشراب، أن يظل وحيداً في وحدته، ألا يحتاج إلى
شريك يشاركه في رحلته، أن يفارق كل ما اعتاده،
و ألا يرغب فيما يرغب فيه الناس. أن يكون كالقوم
الصوفية يهربون ويفرون من كل مرغوبات
القلوب في البدايات إلى ما يمنح حياتهم المعنى!

ليس الأمر كما يبدو لك

في البداية تضع تصورًا لشيء ما، لا تدركه ولا
تتصوره بتمامه، فالتمام والكمال يحتاج إلى
عيون لا إلى عين واحدة قاصرة، بعد قليل تدرك

خطأ تصورك، تغسل عينيك لتبصر من جديد..
يتكرر التصور المنقوص ويتكرر الغسل إذا ما
كنتَ حيًّا، أما إن كنت ميتًا فلا تغسل العين
وتعصبها على ما اعتقدته، وتتشرب ما وصلت إليه
بقصورك على أنه الحق! والأحق بالاعتقاد.

ليس الأمر كما يبدو لك، فهذا المسلك الذي تراه
ليس إثمًا خالصًا ولا ذاك في طهورية وقدسيّة كما
تظن، في داخل بعض الإثم الظاهر الذي تبصره
عينك بكاء وتطهير، وفي داخل الطهورية دنسٌ
وفقر روعي! الأجساد التي تظنها عفيفة قلوبها
قاسية كالحجارة، والأشكال المهترئة من
العصيان تثبت البذور من بكائها. ليس الأمر كما
يبدو لك، هذا الرجل ليس عالمًا، وهذه المرأة
ليست حديدية، هذا الصخب ليس ماجنًا، وهذا
الهدوء لا يبلغ بك السكينة، هذه الأرض ليست
قاحلة، وهذا الشجرة لا تثمر الرطب، كل

تصوراتك السابقة تحتاج إلى ماءٍ متجددٍ، حتى
تصل بك إلى طريق حياةٍ، لا يكتمل ولا يتوقف،
حتى انتهاء رحلتك هنا وانتقالك إلى رحابٍ أوسع!

حديثُ الإنسان مع نفسه

في بعض الأوقات يُصابُ الإنسانُ بالمللِ، يطرقُ
بابَ غيره ويظنُّ أنه سيحصلُ شيئاً مسعداً. الغيرُ
لن يمنحك شيئاً تفتقده أو تحتاجه أو تبحث عنه.. بل
على العكس، أحياناً يزعجك أكثر، ويزيد تعبك
تعباً جديداً، البعدُ عن النفس أذى، والقربُ من
النفسِ والتصالح مع أوضاعها، والرضا

بالقبض كما السعادة في البسط، لا يعرّيك
أمامَ أحدٍ وتحفظ لنفسك بنفسك!

همومنا إنسانية

حمدتُ الله ذات ليلةٍ على أن قطرة
من ماء عيني تساقطت، وأنا أستمع إلى أغنية
في مكان يرتاده الإنسان لينسى أو يغيب، أو يفوت
لحظات واقع لا تستحق أن يبقي عليها. لا يزال
الجسد هسًا وضعيفًا، بحيث لا يمكنه أن
يحجب الروح عن الحياة.

همومنا لا شرقية ولا غربية، همومنا إنسانية، أن
يشاطرنا أحدهم الحزنَ حقيقة، أن يبذلَ حالنا أمانةً
وسكناً، أن يعرف أن خلف ابتسامتنا إرهاقاً
وإزعاجاً كبيراً.. همومنا لا نؤمن فيها بحدودٍ أو
قيودٍ، فكلمة من الكلمات التي قصدها
الرسول تسعد، لا، فالكلمة لم تعد تكفي، نحتاج أن
نلمس وجوهنا، لا أن نراها في مرآة تحتاج إلى
تأويلات وحروف كثيرة.. همومنا أن تكونَ
حياتنا ذاتَ معنى، والمعنى المقصود لا علاقة
له بجنسٍ أو دينٍ أو عرقٍ أو عادةٍ، مما وراثناه
وخرَّب حياتنا!

الدنيا كذبة

لو كانت الدنيا ليست خدّاعة، ولو لم تلعب معنا لعبة البيضة والحجر، لكنّا الآن نسير على بساط أخضر، بأرجل حافية ولا نهتم بالمطر ولا بالمارة ولا بصاحب الشرطة الذي يدبّر لنا كميناً كي نفيق من أحلامنا ونحن في شبه يقظة. لو كانت الدنيا بسيطة، لكنّا الآن نتحدث معاً، نطوي الليل والنهار، ولا نهتم لمكبرات الصوت وأصحاب الحناجر المزعجة وأهل الحطب والتجار، ونقف على قبر النبي أخنوخ، ننبش فيه في سماء ليس لها رقم بين السماوات السبع، لو كانت الدنيا بسيطة لكنّا نكتب الآن معراجاً بديعاً كمعراج بايزيد البسطامي، معراجاً لا تلوّكه الألسنة بتنظيرها، ولا تعرفه في دفاترها، ولا يشبهه في حرفٍ منه معراج ابن عباس. لكنّ الدنيا كذبة تتسع كل يوم!

الجسدُ والروحُ

يحتاجُ الجسدُ أحياناً أن يلامسَ جسداً آخرًا ليشعر أنه لا يزال حيًّا، لا خطيئةً ولا مغيباتٍ في ذلك كما يُقال لنا، لا دفنَ للروح بذلك، كلُّ إطارٍ مصنوع لا يصمُدُ أمامَ هذه الحاجة، وكلُّ سجنٍ لا يلغيها، وكلُّ حياةٍ دون مسٍّ لما يقدِّم للقلبِ الدفاء والسكينة تكون مضطربة وناقصة.

حاجةُ الجسدِ هي حاجةُ روحٍ في النهاية، وإلا فالأجسادُ المرتظمة في الطرقات وفي الشوارع وفي البيوت كثيرةٌ، لكنَّ جسداً منها لا يمَسُّ جسدَ غيره ويمنحه شيئاً من مرغوبِ قلبه!

صوتُ قلوبنا لا يكذبُ

ماذا لو لم يقرأ كلامنا أحدٌ؟! لفاضت السير الذاتية بتلال من الأخطاء، لتحطمت المأذنة بيد الصاح بالله أكبر، لسمع الله صراخًا كثيرًا من قارئ الفاتحة، لغابت كلمة "يا رب" كثيرًا! ولقال الضارعُ والمناجيُ أفعَلُ وأفعلُ كما أشاء!

لتلقينا الكثير من السباب وشرخت الكلمات جدار وجوهنا..

لاستبدلت فيروز جوقتها بلطميات من النجف.. لتوفر حبرٌ كثيرٌ يهدر في مجاملات تقوم عليها

الدول والممالك، لخلع الناس كل الأتعة وما
استتروا خلفه من دروع واقيات، لو لم نقرأ
ونسلم الآخرين لسمعنا ما هو جدير
بالإصغاء، لسمعنا صوت قلوبنا الذي لا يكذب،
وسواء أكان الصوت هادئاً أو مضطرباً أو
ضجراً، هو وحده الذي يستحق الإصغاء
إليه!

أصبحت سلعة

أنت سلعة في وقتنا هذا، لا يخامرك أدنى شك في
ذلك، يُتاجر الناس بكلّ جزءٍ منك، حتى إذا
احتفظت بقطعة من لحمك دون تقديمها لهم،

غضبوا عليك، ولاحقوا ما تبقى بالصيد، من
أجل البيع والشراء. فلا يحقّ لك بعد أن
أعطيتهم كلك أن تُبقي على قطعة من قلبك،
وتحتفظ بها دون أن تكون مشاعاً.

لحمك ودمك لم يعد ملكاً لك، أنفاسك لم تعد
تخصّك، أفكارك لا بد أن تُحاسب عليها، أنت في
مملكتنا نحن، بهذا تتطق قلوبهم! لست في مملكة
الله!

النَّاسُ / الآخرون

الناسُ مساكينٌ جدًّا؟ نعم! وتافهونٌ جدًّا؟ نعم!
ومتعصبونٌ جدًّا؟ نعم! ولا يبحثون عن حقيقة؟
نعم! ويقرعون كل شيءٍ تبعًا لهواهم؟ نعم! ما
الجديد إذن؟! هكذا هي الدنيا مجرد عرائس
متحركة بخيوط واهية، من الصعب الحيدة عنها!
ثم يتبجحون بالأسنة لاهثة أنهم يقرّرون مصائرهم
ومصائر غيرهم.

براحٌ للبوح

في هذه المساحة يكتبُ المرءُ لنفسه أكثر
من الكتابة للآخرين، وبصورة خاصة ما يكتبه
متعلقًا بحياته وتجربته في التعاطي مع كثير من

الأمر، ديناً أو فناً أو مشكلة من مشكلاته، لا يطلب حلاً من أحدٍ بكلماتٍ يذيعها، لا تحلّ مشكلته الكلمات والوصفات الجاهزة! إذا تحدّث عن علاقته بربه، لا يودّ مما بثّه من كلماتٍ أن يبشّر بفكرة أو يعلن عن مذهب، هي نفثات إنسانٍ، في كل حين يبيث جزءاً منها، وهذه النفثات لا تمثل كل ما يعترّيه ولا يتلخّص فيها.

الإنسانُ جامعٌ لكافة أمور الطبيعة بحُسنها وبقبحها، بجفافها وبثمارها، بتوتّرها وبهدوئها. لا يمكن اختصاره في صوفيٍّ أو ملحدٍ أو سلفيٍّ، أو مفسدٍ أو مصلحٍ، أو أجملٍ من عرفنا، أو أكملٍ من قابلنا أو أحقر... أو غير ذلك من الأوصاف السريعة المتعسفة. أتحدّث هنا عن نفسي، لأشاهدها فأنكر عليها أشياء، وأبتسم لأشياء، وأبكي

وأضحك، كل هاته المشاعر الصادقة تساهم في تحقيق الإنسان.

صلاة الجماعة

شاهدتُ يوماً صلاة الجماعة، بدت لي صورتها مدهشةً، فقد فارقتُ صلاة الجماعة منذ فترة بعيدة، ولم يعد يقربني إلى ما أحبُّ الصلاة في جماعة، أو الحضور مع جمهور المؤمنين، والمشاركة معهم في أي طقس كان، حتى الاجتماع مع الأصدقاء، أصبح شرطه الخفي أن ينشغل كل واحدٍ بنفسه، ولا تجري حوارات جماعية إلا نادراً.

جميع الوجوه عيونها مفارقة لأجسادها،
أذهان الجميع شاردة، إقبال جميعهم على
أي شيء فاتر، لا شيء يشجعهم أو يشجعي
على المشاركة في أي فعل! لذا أنا أغبط المصلين
الذين يجتمعون في كل صلاة على أداء هذا
الفعل، هذا إن اجتمعت قلوبهم التي يقابها الله
في كل لحظة!

الحقيقةُ فكرةُ

أن حبوبَ الحقيقةِ مغطاةٌ بأكداسٍ من القش، تحتاج
إلى من يفتش عنها بشيءٍ من الهدوء والأناة، لكي
يعثر على مرادٍ يجعله مطمئناً لرؤيةٍ أوسع وأنفع،

فكرة تنتزل على قراءتنا لكثير من النصوص
والأدبيات الدينية. لو تمسكنا بأول صورة
نعثرُ عليها سيغيب عنا من الصور الكثير مما
ينفع، ونتحول إلى، مع كذا، أو، ضدّ كذا، ونُحرم
لذة الاكتشاف والفرسانية. الصبرُ والهدوءُ والأناةُ
يُكسب قراءتنا وإنساننا الكثير مما نفتقده في أيامنا
هذه، ويخفف الصراع، ويمحو سوء الظن.

لحظةُ سعادةٍ

إسعادُ إنسانٍ ليس بالأمرِ الصعب، فابتسامةٌ
في وجهه أحياناً تكفي، كلمةٌ طيبةٌ تكفي، نظرةٌ
رضا تكفي، مَنحُه شيئاً من الأملِ يكفي، العنايةُ

بإنسان يرجو الحياة لا تكلف الكثير، لا مالا ولا
جهداً!

إن الله لا يضيع أجر المحسنين

لا يمكن أن تغرس بذرة في أرض جدباء، تصرُّ أن
تلفظ كل ما يمسهـا. لا يمكنك أن تتلو آيات الجمال
في الخرابات وتنتظر استجابة وتصدُّعا من
أركانها. لا تنتظر من أحدٍ أن يغيّر نهجه في الكتابة
أو يجدد فكره وهو يرى أنه أوتي الحكمة كلها
وفصل الخطاب! حينما نقرأ لبعض المخاصمين
للفرق والأحزاب نخجل لهم! فما تخرجه أفواههم
لا يساهم في تويرٍ أو تثقيفٍ، بل على

العكس يضرُّ بإنسانهم وبالأخرين، للناطقين
بالعربية ربُّ يعينهم على هذه الحياة البائسة!

يمنحك الله شيئاً جميلاً

في وسط كل هذا الزيف يمنحك الله شيئاً حقيقياً،
ليس شرطاً أن تتجسّد الحقيقة في شكل ملموس
نمسه باليد أو ندركه بالعين، قد يمنحك الله
شعوراً بالرضا يكون حقيقة تغنيك عن كل وهم،
قد يمنحك صديقاً مخلصاً، قد يمنحك صحة، قد
يمنحك علماً، قد يمنحك بشريّة تتجدد ولا تبلى أبد
الدهر، هذا الحقيقي هو ما لا يمكن الاستغناء عنه،
يظل ذكره حياةً للقلب والروح، ويظل وجوده هو

ما يعينك على أن تكون بشراً، تتحسس صورتك
في المرأة وتبتسم مهما كانت الخطوب.

جدتي

أذكر أن جدتي كانت تصنع "الفطير المشلتت
والرز المعمر" بشكل رائع للغاية، ربما
ورثتها أمي في ذلك. في يوم الجمعة حينما
كنت أسافر إلى البلدة الصغيرة، كنت أطعم مع
المأكولات هدوءاً وطمأنينة نادرة، كل المخبوزات
كانت تصنع بيد راضية، فتطعمنا مع الرضا
شيئاً نفتقده في مدينة الزجاج والمعلبات! بقيت
الجدّة بعد وفاة جدي غصناً يُشعر والدتي

بالأمان ويمنحنا الكثيرَ من الحياة عبر
حكاياتها وأسلوبها الجميل في الحديث،
صعد الغصنُ الأخيرُ إلى السماء، ولم يبق إلا من
شرب من المعلبات، ولا يرى في "طرمة" الماء
إلا خردة متهالكة. رحم الله من سبق وسقانا من ماء
رضاه.

امراة طيبة

في بداية اهتمامي بالجدل الإسلامي
المسيحي، كنتُ أحتاج نسخة من كتاب
الهداية "هو كتابٌ من أربعة مجلدات،
نشرته الإرسالية الأمريكية في بداية القرن

الفئات " كنوع من التبشير ومواجهة الردود الإسلامية السابقة على المسيحية، كان الكتاب غير متوفر في كثير من المكتبات الجامعية بمصر نظراً لمحتواه الهجومي، لكن توفرت في المكتبات كافة الردود الإسلامية على المسيحية!

كنت وقتها -ولا أزال- أرى أن الكتاب مهم جداً في دراسة أدبيات الجدل والدفاع في مصر، لأن شخصاً ممن ساهموا في تأليفه كانت له صورتان متضادتان. فما كتبه صموئيل زويمر عن الإسلام في مصر لا يشبه ما كتبه في البحرين.

وتلقي أعمال زويمر في كل بلدٍ اهتمام يختلف عن الآخر، كما أن إنتاجه الفكري لا يمكن النظر إليه من منظور عقدي، كما فعل حضرة الشيخ علي جمعة عند ذكره للكتاب، على هامش حديثه عن

شبهات المعاصرين حول السنة النبوية، فنظرة
مستبعد السنة اليوم من شباب المسلمين تختلف عن
نظرة المبشر المسيحي للنبي محمد.

تذكرت هذا الكتاب اليوم هو ودائرة المعارف
الإسلامية، لم أستطع وقتها تحصيل نسخة منهما
للمذاكرة والبحث، كما لم أستطع تحصيل نسخة
من رد شيخ عراقي شيعي على الأفكار الواردة في
الكتاب الأول، نشره في مجلدين دون أن يوقع
باسمه على غلاف الكتاب، تأسياً
بالصالحين المفقودين اليوم، لكن الطبعة الثانية
من الكتاب بعد وفاته ذكرت اسمه "الهدى إلى دين
المصطفى" للبلاغي، لم يكن الإنترنت كما هو
اليوم سبباً لوفرة كافة المصادر، وتسطيع المعارف
على أيدي الناقرين للحروف.

حصلت على صورة من الكتب الثلاثة
بفضل ثلاثة أشخاص، اثنان منهم فارقا مصر
إلى حياة أفضل، والثالثة امرأة لا أعرف عنها
شيئاً، كانت هذه السيدة الكريمة موظفة في
إحدى المكتبات، وبالطبع كان راتبها ضعيفاً
جداً، قدّمت لي نسخة من كتاب البلاغي
هدية مجلدة بشكل جميل، وفتحت لي المكان كأني
أملكه، لا أزال أدعو لها بالخير كلما تذكرتها وأدين
لها ولغيرها بالفضل.

أتذكر أنّ لكلّ كتاب اقتنيته واستفدت منه
قصةً معي، تعلّمت قبل قراءته دروساً، وربما لم
يبق من متون الكتب معي وفي ذاكرتي كما بقي
معني من أفعال الكرام الذين أفنقد وجودهم في حياة
اليوم!

الرحمة

في سيرة البعض يُكتب في السطر الأول، أن هناك أناسًا خلقوا للتعب والإرهاق طيلة الوقت ولا تستقيم حياتهم وتصبح ذات معنى إلا بهذه الصورة، فإن قدّم لهم شيءٌ مريحٌ بعد رحلةٍ طويلة، يستوي عندهم المالح والعذب، لا فرق بين عالٍ وسفلي، هم يدركون معنى الجمال ويشعرون به بشكلٍ مختلفٍ عن كل من حولهم، لكنهم من كثرة نحت ظهورهم وتكسير عظامهم زهدوا فيما رغب فيه غيرهم.

تستقيم حياة هؤلاء بالحبّ، بالكلمة الطيبة، بالرحمة، يضرّجرون ويسعدون، يؤمنون ويكفرون ويغضبون ويصمتون، ومفتاح

حياتهم كله يتلخص في الرحمة، إن ظفروا بها
عاشوا في رفاهية وسعادة لا يعرف قيمتها
غيرهم.

قصة مختصرة عن التعامل مع الكتب ونشرها

أذكر أن أول مرة لي في التعامل مع دور النشر
لنشر بعض المواد التي جمعتها وحررتها كانت
عام 2003، كنت وقتها مهتمًا بأدب الجدل والدفاع
بين المسلمين والمسيحيين، توفرت لي مواد
أحسبها ثرية، كنت أعد قسم الدوريات في دار
الكتب المصرية كنزًا ثمينًا! في تلك السنة جمعت

بعض المواد وأصدرتها في ثلاثة كتب
بمقدمات متواضعة وحماسية في الأغلب.

كان أعلى أجر تلقّيته 1000 جنيه مصري، ما
يعادل اليوم حوالي 55 دولارًا تعويضًا مناسبًا
للعمل على ثلاثة كتب!

وقتها كان الله قد يسّر لي بعض السبل (الحصول
على مبلغ شهري يكفيني طعامًا ودخانًا بالكاد) فلم
أكن أهتم بالمقابل المادي العائد من العمل، لكنني
كنت أضحك. مضت هذه الفترة وانتهت عام
2006، ولم أعد أَرْضَى من نفسي الحماقة
بالعمل في نشر كتاب مع دور نشر لا تدفع بالكتاب
إلى مصحح، ولا تراجع ولا يهتمها سوى
البيع والشراء والتكسب.

كنت ألتقي في هذه الفترة بأستاذ جامعي صار رئيساً لجامعة القاهرة فيما بعد، نصحتني بأن أتابع القراءة أكثر وأتعلم وأكتب، واستجبت لنصحه، لكني ظللت أخشى من خطِّ حرفٍ بالقلم، فما لديّ لا يليق بأن ينشر أو يُذاع، وهو محض كلام بسيط لا يرقى إلى ما أطلعته وأحبه من كتابات الكبار والمخلصين، نصحتني الأستاذ بأن أكتب حتى أنتهي من هذه الدراسة (الحبلى على مذهب الشافعي) ورأى أن حالة الرُّهاب التي تنتابني تتبدد بكتابة أي شيء وتقويمك لنفسك، وكان نصحه لي مفيداً، فلم يقوِّمني أحدٌ سوى نفسي حتى اليوم، وأحمد الله على ذلك بعد أن علمت أن أهل الاختصاص لا يعينهم ميلاد أحد أو إنقاذ رفات أو وفاة آلاف البشر.

سرت على هذه الطريقة، أكتب وأنظر إلى ما أكتب وأحتفظ بقصاصات قديمة،

أمزق بعضها وأضحك من بعضها وأعيد
تصحيح البعض وتطويره، وظللت بتوفيق الله على
هذه السنة الحسنة. ثم غبت وقتاً في العمل مع أهل
الاختصاص، ثلاث سنوات أتابع أساتذة يلبسون
ثياباً أنيقة ويحملون ألقاباً عريضة حكيت عن
بعضهم هنا، كلهم دون استثناء يحملون المرء إلى
القبر ويحضُّونه بأفعالهم على مفارقة هذا العالم،
حتى أراد الله أن نفيق من هذا الغياب، ومررت هذه
المرحلة بسلام.

كانت هذه المرحلة مفيدة لي في تقويم معتقدي
وصقل تجربتي، استقدت الكثير مما عاينته من
أخطاء ربما كنت سبباً في بعضها. ثم دخلت عالم
النشر من جديد مشاركا ببعض الكتابات التي
أصِفها بدون أدنى تواضع، بالبسيطة والمبسطة
لما أقرؤه وأحب أن أساهم فيه، وأغلب من
تعاملت معهم في هذا المجال من ناشرين لا

يقرعون ولا يطالعون أي شيء مما ينشر يستوي
في ذلك المشهور منهم والمغمور.

استعدت الخبرة القديمة والشعور نفسه، وظللت
أضحك، وربما كان ولا يزال هذا هو الطبيعي في
بلداننا العربية البائسة. ولم أنتظر أيضاً تقويماً من
أحد، فتقييم شخص لك أو إهداؤه لك بعض
ملاحظات أضحى منة تستحق منك تقبيل يده
وقدمه ليل نهار دون فتور أو ملل، لأنك متى غبت
عن فعل التقبيل مرة سينساك هذا الذي خلقك ولن
تحيا من جديد!

طبعت بعض الأعمال مع دور نشر في
بيروت ومصر والإمارات، وكل ما طبعته في
المجال الذي أحبه وأعمل عليه ليل نهار، حتى
أصابني الفتور هذا العام (الأسود الكئيب)،
لكنني لم أتوقف لحظة عن السعي والعمل، حتى

أنني راهنت نفسي على أن أنجز عملاً في رمضان
الفائت، وبالفعل كان فضل الله علي عظيمًا،
وأنجزت العمل وتم طبعه في رحاب أحبه، هو
رحاب الأزهر القديم.

لماذا يصيبك الفتور والضييق والحنق في مجال
تحبه؟ لأنه لا شيء هنا يتم على النحو الصحيح
ولن يكون! لأن الناس لا تحب شيئاً تقوم به،
وأغلب الأفعال هنا يقوم الناس بها، إما لتحصيل
أموال بطرق خاطئة، أو لتلميع صورة، ما
تحت الصورة يحتاج إلى حرث ونظافة لأعوام،
ولا يحب هؤلاء أن يتعبوا في تنظيف أو
ترميم أو خلق جديد للأسف.

في مجال النشر مثلاً ما هو المطلوب مني بعد نشر
كتاب معين؟ أن أقوم بتسويقه، وإذاعة أخباره، وأن
أشكر صحفياً كلمة (جاهل) هي بمنزلة مدح له،

لمنته علي في إذاعة خبر عن كتابي، الذي لم يقرأه ولن يقرأه، مثل هذا السلوك يضحكني همًا وغمًا، ويضحكني أن يطلب ناشر الكتاب مني لقاء دراهم معدودات من مبيعات الكتاب أن أقوم وأنام ولا همَّ لي سوى أن أبيع له الكتب!

مخجل جدًّا تعامل الكبار والصغار هنا، مخجل هذا الزيف الذي نعيش فيه ونطوره كلَّ يوم بزيف جديد. إن كثيرًا من الأفعال لا منطبق لها هنا ولا يمكن التعامل معها، لا بالعقل ولا بالقلب ولا بأي حاسة من الحواس، ويظل المفقود حقًا في بلادنا هو الإنسان!

الثانوية الأزهرية

قضيت فترة الثانوية الأزهرية في شبرا، كانت الشباب أشقياء ومشاغبين للغاية، كانت البيئة تساعد على أن يسلك الإنسان طريقاً سيئاً، بعض الشباب يسمون هذه الفترة من حياتهم من باب التلطف بـ(الجاهلية)، أذكر أن صديقاً لنا كان ينكر علينا في حينها اللطف، وأخذ بعض الأمور بالهدوء والعقل، فكان ينهر صديقاً لنا لأنه جرح خصمه جرحاً خفيفاً، ويحضه على فعل الصواب قائلاً:

"اقطع وذن أمه"، ما زلت أذكر رؤية الأذن المقطوعة والمشاجرات التي كانت تحدث لأتفه الأسباب، وأذكر أن بعض الفتيات كن مفتونات بهذه السلوكات النبيلة! ففاعلها أسد مغوار!

كانت ثانويتنا الأزهرية التي انتهى عهدها
المجيد عام 1995 زاخرة بعطاءات وأمجاد
يصعب حصرها، لأنها تنمو بعدد الفاعلين في
المجال العام! من طلاب كانوا سائقي ميكروباص
وعمّال في المطاعم وأعمال البناء وبعضهم كان
يعمل في الفرق الغنائية الراقية جدًّا، لذلك حين
أنعم الله على أولئك النشاطاء بدخول المرحلة
الجامعية، قرر بعضهم أن يوسّع نشاطه فيفتح دكانًا
بجوار دراسته أو يصبح من أرباب الحرف، فقد
امتلك الكثير من مقومات الحياة، عرف رخصها
وكيفية التعامل مع أهلها بحرفية شديدة، والكل
يخشاه فهو في الشارع وفي المحل وفي الجامعة
يمارس سلوكًا واحدًا، وتستقيم حياته تبعًا لما يؤمن
به.

تاب بعض الشباب وتوقف عن ممارسة
الأعمال الشائنة، وحينما دخل الجامعة ظن

أنها دخل المدينة الفاضلة، سيلتقي فيها
بعلماء وحكماء وأساتذة في علم النفس
والفيزياء والأدب والاقتصاد، فعليه أن يغسل نفسه
مما مضى، ويجدد دخوله لعالم الآدمية كما
يفعل الصوفي السالك.

والحقيقة أن عالم الجامعة لم يختلف كثيرًا
عن عالم الميكروباص، ومن تخرجوا في
الجامعة لم يختلفوا عن تلاميذ الثانوية، العالم يعود
إلى الوراء ولا يتقدّم خطوة، الفارق أن التلاميذ
الصغار كانت لهم أذكارهم فيما يفعلون بحكم
السن، بحكم البيئة، بحكم الصحبة، وكانت لديهم
ميزة، هي الصراحة والوضوح، لم يكونوا في
حاجة إلى الكذب والادعاء وارتداء المسوح
والأقنعة التي تمكنهم من الحصول على مرادهم.

كان هؤلاء الشباب أفضل من كثيرين يتسترون بستار الدين، وقلوبهم مَلأى بالحق والكبر وأخلاق الرذيلة -كما وصفهم الغزالي. يمكنني الآن التماس الكثير من الأعدار لمن سبق وتعثر من الصغار، أما الكبار الذين عقدت آمالنا عليهم، والتمسنا في رحابهم الراحة والطمأنينة والحياة، كيف نلتمس لهم الأعدار!؟

أساتذة بالاسم ومشايخ بالاسم فحسب، لا همَّ لهم إلا النفاق والانتقال من رديء إلى أردأ، يظنون أنهم نجباء وأذكياء، ويظنون أنهم أهل حنكة وعقل، وكل من حولهم في غفلة وسذاجة، لأنهم لا يسلكون مسالكهم! بتنا نردد بسبب هؤلاء أن كل الأحلام أوهام. وكل الطرق لم تعد منيرة! ولا ملاذ لنا إلا خالق الطرق.. صرف الله عنا هؤلاء وصرف نظرنا عنهم.

استمرار الرق والعبودية

الخادم عبدٌ في عصر جديد، كلما كان فحلاً ترسّخت عبوديته، وسواء في ذلك أكان عمله في مصنع أو مكتبة أو جامعة أو بناية أسمنتية، بقدر ما نَحته المكان، علا فوق ترابه.. يضحك لسيده لقاء فتات محدود، مثال الخادم وقدوته الذي يضعه نصب عينه، أيّ سيد من أسياد المدينة الجديدة. أمنيته أن يكون كسيده ويشترى عبيداً آخرين.

الخادمة سلعة تباع وتشتري وتُنتهك، في البداية ترفض بعض المهانات، لكن مع مرور الأعوام

تنتهك أكثر، ينتهك قلبها وظهرها المتقوس
القوَّادُ والمشتري، ويغرس بذرة العبودية في
الآخرين. الإنسانُ أكثرُ كائنِ بائس على هذه
الأرض! أكتب هذه الكلمة بعد متابعتي لبعض
الأشخاص الذين يتعاملون مع من يخدمونهم
بعنصرية بائسة، سائلاً الله أن يرزقني وإياهم
ابتسامة عبدٍ أو أمةٍ صادقة في يوم عطلة، لينكشف
لنا بعض ما خفي عنا من آدمية فنعمل على
إحيائها!

صنَّاع السينما

تحية إلى كل عظماء السينما الذين يكابدون من أجلنا ويخرجون من دواخلنا ما يستحق الحياة. ظاهر الإنسان عُلبة سُجنت بداخلها الروح، بمجرد أن تتراحم صور الواقع صور الإبداع يخرج من النفس ما هو نفيس وأصيل، لكننا نغيب عن النفيس بكثرة (الشواغل والملهيات). الملهيات هنا ليس كما تعلمنا من أهل الأصنام والصور؛ كل ما يُلهي عن ذكره تعالى! بل هو كل ما يُلهيك عن إنسانك. وإذا كان الله قد أخبر عن نفسه بأنه قد أضحك وأبكى، فإن ما ينزل من العين من قطرات ماء، أو ما يصدر عن القلب من خفقات، بسبب عمل الفنان الذي يكفر بالقعود وعدم الإبداع وتكرار الحياة، ويقرر أن يعيش لا أن يموت! هو "تخلق بأخلاق الله".

تحية للمؤمن بالإنسان والصادق مع نفسه الذي يساعد -ما استطاع- غيره على الحياة! كتبت هذه

الكلمة قبل فترة، وتذكرتها اليوم بعد تكرار مشاهدتي لفيلم "بركة- Baraka" الذي قدّم دروساً عظيمة عن الإنسان والكون والمخلوقات، لا تقدمها بعض الكتب والمقالات!

في هذا السياق كتبت كلمة عن كون الدراما والأفلام لا تصنع حياة! نعم. ولا يصح لعاقل أو عاقلة أن تتأسس حياتهم بناء على ما يُرسم لهم من صور معينة، وتجسدها فلانة أو فلان، كثيرة هي الأفلام الغربية التي أستفيد منها في حياتي وتوجّه نظري إلى فكرة أو سلوكٍ راق..

أتذكر هنا ما يقوله أهل البناء الإنساني،
من السادة الصوفية المتحققين بعد
عيشي مع درس أو قصة أشاهدها، النظير
يُذكر بنظيره، ومن دعا إلى إنسانية فقد دعا إلى
الحق الضائع والمنشود، ربما ونحن صغار نراهق
ونلعب ونلهو، لنا أن نسعد بالدراما ونلهو ونلعب
كما نتعلم اللعب من الأفلام. لكن بعد أن أقيمت
علينا حجة الفهم والوعي، من العبث أن نلهو
بحياتنا مقلدين ضرباً من ضروب العبث.

المادة واحدة والاستقادات منها متلونة، نسأل الله
التمكين من الاستفادة والبعد عن العبث بحياتنا
وحياة الآخرين، وهدانا الله لما ينفعنا ويحقق
إنساننا ويبعدنا عن الصخب والصور المشوهة!

العلاقات الصادقة بين البشر لا وساطة فيها ولا تعرف الفتور

سُمِّيَتْ هذه العلاقة حبًّا أو صداقة أو قرابة روحية، فهي بين اثنين لا يدركها غيرهما، يفهمها من عاش "أبيتُ عنده فيطعمني ويسقيني"، أكونُ معه فأغيب عن كل الخلائق وعن نفسي وعن حالي، ومهما ضاقت بي الدنيا أو فتر شعوري بالرحمة، يكون من أحبُّ ملاذي وملجئي وساحتي التي أصرخ فيها فيسمعني، ولو قذفته بالحجارة حول حجارتي إلى طين يشكله كيفما شاء، فيعيد إليَّ ما سُلِبَ مني، وأحيا بنفخة منه، وإن كان جسدي مخالفاً له فروحي من روحه تعيش.

العلاقات الاجتماعية

الإقبال على الزواج وإقامة علاقة مع شريك للحياة نختاره أمرٌ جميل جدًّا، إذا كان هناك وعي واختيار حقيقي، لا بمنطق الجهاد "الرمي نحو الآخر"، أو الاستسلام لمرض الملل والاكتئاب وفعل شيء جديد، حينما أتدبر سيرة حياتي وأيامي القليلة التي مرّت وتمر، أدرك أن إقامة علاقة بصورة ما مع شخص أمر يقتضي وعيًا كبيرًا بالنفس ومعرفة واسعة بالآخر، يضاف إلى ذلك إحساس به وثقة فيه، الثقة وتحققها في شخص اليوم أمر نادر، وتحمل مسؤولية هذه العلاقة أمر صعب وليس بسيطًا، كثيرًا ما يخضع الإنسان ويضعف لمغريات الحياة، كثيرًا ما

يستسلم الإنسان لمرضه، فيفعل أشياء هي برهان
علّة، لكن غير الأسوياء مثله يستغلون كل
صغيرة وكبيرة، دون أن ينتبهوا إلى الجرح
الغائر في عقولهم وأبدانهم.

الارتباطُ بآخر حياةٍ أو موتٍ، والاختيارُ بين الحياة
والموت حفرةٌ كبيرةٌ، أتابعُ كثيراً من
الأشخاص الذين مروا في حياتي سواء أكانوا
أكبر مني سنّاً أو أصغر، وأرى أن كافة ما هم فيه
من سعادة أو بؤس بسبب الارتباط، لذا أندesh من
إقبالنا ولغطنا وحديثنا الكثير عن الارتباط ونحن لم
نفهم أنفسنا بعد!

الزواج

سأتزوج قريباً من امرأة جميلة، سأنظر إلى عيونها كثيراً، ألمس وجهها كلما أردت أن أبصر، سأغيب معها عن كل قول مزعج، سأركن إليها كأمّ حنون في كلّ ما يهمني، سأجلس عند حجرها، سأضع رأسي بين يديها مغمضاً عيني وتخبّرني بما أحب أن أراه.

سأضرب صفحاً عن كل ما قرأته في الكتب أو رأيته في الواقع، سأنسى حلمي بالجنة، وما رأيته مع حواء في الدنيا، سأتذكر ابتهاج أمي قبل الفجر، لن أتعجل بإنجاب أطفال منها وإن أحزن أمي، سأخبر أمي أنني في حاجة ماسة لأن أولد ولادات غير ما رأت، ستسرّها ولادتي هنا، أو حينما تسمع بها وهي في برزخها الجميل، سأسمي نفسي ابن أمي، التي بكت من أجلي، وابن أمي التي ولدتها وولدتني.

سنقف صامتين أنا وصنوي أمام البحر، ساقبل
فمها وكلّ جزءٍ منها، من رأسها إلى قدمها، لن
أنظر إلى ما يقوله لسان أعرج، أو ما تتطرق به
عين قاصرة، ساقف بجوار رأسها وهي نائمة،
سأبتسم وأنسى حلمي الطويل في الزواج من
خرساء.

أنا لا أريدُ من حبيبتي أيّ شيء، لا أريدها أن
تخيط لي ثوبًا، فلدي ثيابي التي أحبها، ولا أرغب
في أن تصنع لي طعامًا معينًا، فكسرة خبز أو
أي طعام يمكنني صنعه يرضيني، أنا أريد
معها ألا أريد شيئًا غيرها، أن أرى وجهها وحدها

فحسب، إن عزفت عن الحديث تكلمت عني، وإن
نطقت استمعت إلي، وإن أغمضت عيني
وصحوت وغسلت وجهي أرى أثر حضورها في
حياتي، لا تغيبه قطرات ماء أو شلالات الحياة التي
تكسر عظامنا. أريد شيئاً أسكنه ويسكنني ولا
نلتفت إلى أحدٍ غيرنا أبداً!

المحبةُ

المحبةُ هي الشيءُ الوحيدُ الباقي، لا تُباع
المحبةُ ولا تُشترى، ولا يمكنك أن تعلمها
لأحدٍ جُبلت طبيعته على غيرها، تجعلنا
المحبة نحيًا مع انتشار الموات، تجعلنا

نتحمل كل ظرفٍ قاسٍ نمرّ به، تجعلنا نتجرع مع
كلّ شربة ماءٍ راكدٍ نفسًا ينبت غصنًا جديدًا في
بيوسة الدنيا، الحمد لله على المحبة.

بذل النفس في سبيل المحبوب

حينما تحبُّ أحدًا، موضوعًا، شيئًا، تريد أن تبذل له
كلّ ما لديك، وتسعد بكلّ فعلٍ تفعله من أجله، أو
بكلّ كلمةٍ تتطرق بها. كنت أتدبرُّ بالأمس في كلمات
شمس تبريزي ومولانا جلال الدين الرومي، وأنا
أتم عملاً خرج إلى النور وعسى أن يتقبله
الله، كنت أقرأ كلام شمس بدهشة وحزن
وتعجب، حالات عدة تتتابك وأنت تقرأ كلامًا

خرج من القلب، من قلب حيّ نبع، من حياة
وتجربة، من مكابدة، طعم الكلام جميل،
ومعناه جليل، يشبهه كلام حلاج الأسرار
في طاسين السراج، هو يتحدث أيضًا عن محبوب
غال، موجود ومفقود، حاضر وغائب، في
الأرض وفي السماء، في الحلم وفي الواقع المؤلم،
يا عجبًا ما أظهره وأنظره وأكبره وأشهره وأنوره
وأقدره وأبصره، كنت ألمم بعض الخيوط من أجل
أن أرثدي بردة من هذا الجمال، لكن بردة الليل
سرعان ما تطير في الصباح لنرى المُحدث
ونسلم المقول!

كانت العلاقة أجمل من أن تدوم

يمكننا أن نقرأ سيرة شمس ومولانا تحت هذا العنوان، لنفهم أن اللقاء بين بحرين لن يدوم طويلاً، ظهر شمسٌ في حياة مولانا لغاية معينة، ظلّ معه لفترة حتى يولد من جديد، وُلد مولانا الولادة الثانية وتحقق، غادر شمسٌ وتابع السفر وغاب، حاول مولانا أن ينزل جزءاً من محبته على عدد من الرفاق من بعده، لكن شمساً لم يخلفه أحداً! سواء كان جنيد الزمان أو أمير قافلة العشق، فلا حسام الدين جلبي ولا زركوب استطاع أحدهما أن يحلّ محلّ شمس، وأروع أشعار مولانا التي كتبتها في الغزليات كانت كلها في شمس الحق التبريزي.

هل تحبُّ فلانًا حقًا؟

هل تعرفه حقًا؟ لماذا إذن بسبب فعلٍ قبيحٍ واحدٍ يُحجب هذا الشخص عن نظرك وتتساه، ويتحوّل فجأة من يوسف الجميل الذي يتغزل في محاسنه قلبك إلي ذئب تهرب منه؟! هو هو الشخص لكن فعلاً عارضاً جعلك تتسى كل محاسنه، ثم بعد ذلك تسرد الحكاية عنه: كان محبوبي، كان وكان، أنا أعرفه جيداً؟! يجيب مولانا جلال الدين الرومي عن مثل هذا السؤال، أنه لم يكن ثمة ارتباط حقيقي بين هذين الشخصين، ولم يعرفا بعضهما البعض، ولم ير أحدهما الآخر رؤيةً محققة، فمن رأى أحداً وعرفه حقاً وأحبّه تجاوز عن الأوصاف السيئة والجيدة في آن واحدٍ، فكل الأوصاف مستعارة لدى كل شخص، والإنسان

الحق من يغوص في جوهر من أحبه ليرى
أي ذاتٍ هو، وأيّ جوهر لديه. فتلك هي المعرفة
والرؤية على الحقيقة. إذا أردت أن تعرف إنساناً
فدعه يتكلم، اصمت في حضرتة، واستسلم له،
واصبر، لعل كلمة تقفز من فمه لأجلك،
فتحييك وتصبح صورته وأحواله كلها في
داخلك، لا تحتاج منه بعدها أن يذكر علة أو سبباً
لفعله أو لصمته.

السفر لك وحدك

فكرت في السفر إليك، في البعد عن هنا من أجلك،
فكرت كثيراً كيف أصنع لك جنّة لم أعش فيها!

فكرت كيف أخفف عنك آلام الغربة والسفر
الطويل! فكّرت في اجتماعنا للحظات على
شاطئ بحيرة أو محيط، أو أعلى الجبال الضخمة
التي تحول بيننا! فكّرت أن أيسّر لك السبل لميلاد
طفلك الجميل! فكّرت كيف ألاعب الطفل، وكيف
أجعله مبتسمًا، وكيف يمكن أن يولد كل عام منك
طفل جديد!

فكّرت في ذلك لك، ولم أفكر أن أفعل ذلك لي، فما
لك سيكون لي، هكذا تعلمت من الطريق أن
الضمانر تتمحي وعلى المرید ألا يريد!

مولانا جلال الدين الرومي

وشمس تبريزي

حاصل عمري في ثلاث كلمات كان مولانا يلخّص
عمره في ثلاث كلمات، كان نبيّاً فنضج فاحترق.
وخالصة وصف هذا الرجل الصادق أنه عاش،
حيّاً، يعبد ويعشق الحي، ويخلق الأحياء. لا يمكن
أن تتذكر الموت معه أو الضيق، ستبتسم وأنت
تقرأ كلامه، ستضحك من الحمقى والمغفلين،
ستجد للألم طعمًا آخر، ستغيب عن محبتك
للسماء، ستجد عالمًا غير هذه العوالم،
وأجنة تتخلّق دون حاجة لبطون تحملها أو
شهور تمرُّ عليها، ستذوق خمراً غير خمر
الدنيا والآخرة، ستبذ كل ميراث محفوظ لا روح

فيه، ستكون باختصار ، حيًّا مثله، يخجل الموت من
السير في درب مشابه لدربك!

قميص يوسف

يمثل قميص يوسف في تراثنا الديني منحة إلهية،
فبعد أن يفقد الإنسان الأمل في العثور على ما
يسعد روحه ولا يجد فيمن حوله معيناً على تلبية ما
ينشده قلبه، يرسل الله إليه ما يدهشه ويعيده إلى
الحياة من جديد، حدث هذا مع يعقوب الذي
يجسد صورة الإنسان المكلم لفقده ولده
المحبوب، ردَّ الله البصر لمولانا بعد لقائه
بشمس الحق التبريزي فأدرك نور الرحمة

والسعة وتلقى النفخة الباعثة للحياة وصار إنساناً
حقاً، كما قاده الألم إلى أن يولد من جديد، كما فعلت
مريم العذراء حين جاءها المخاض.

نظرة المحبّ

لو نظر إليّ الآن شخص أحبه وأحب الحديث عنه
سأكون بخير جداً، لو تصوّرت هذا الشخص
مولانا جلال الدين الرومي وأنا أجالسه وأسمع
منه، ستكون جلسة لا تُنسى، سأطلب منه طلب
المحب أن يظل صوت الناي صارخاً حولنا، أن
يتلو أحدهم سورة مريم، أن يكرر كلمة إنك أنت
السميع العليم، أن يحكي أربعين يوماً، أن يتوقف

الزمن، ألا نغادر البيت، ألا يسجل أحدٌ حديثنا، أن تنتهي الأيام عند هذا الحدّ، أن يمسك أحدهم بالدفّ، وأن يعلن انتقالنا من هنا، في حفل عُرس كحفل رابعة العدوية، أن تظل الشجرة التي سقيناها بماء قلوبنا شاهدة على حياتنا الأبدية.

تبحث روحه عنك بعيداً عن كل هذا الزحام
من الباحثين عن غيرهم، تجد شخصاً تبحث
روحه عنك كما تبحث أنت عنه، تلتقي
الأرواح دون سبب أو بذل منك، لعلك مررت عليه
من قبل وأبصرتك عيناها، لكنكما لم تتفذا إلى
عالم الروح، كانت صورتكما بعيدتين

جداً من أن تلتقيا، والآن يسبك وجودكما
بفعل الروح المبصرة، ليس شرطاً أن تكونا معاً
طيلة هذا الزمن المحدود، فوجودكما الآن وجود
لا حدَّ له، لا يعترف بالترتيب والقواعد المقننة من
قبل، لكما عالم آخر لا يشبهه هذا العالم في أي
صورة منه، سبق أن تحققت هذه الحياة
المرغوبة التي تبدو غريبة عن أعيان هذه
الأرض، في إحدى اللحظات قال محبُّ
للخلود سمِّي بشمس: لا أختلط بأحدٍ إلا
قليلاً. وحتى مع هذا السيد العظيم الذي لو
غربلت العالم كله لما وجدته، مضت ست عشرة
سنة لم أقل فيها أكثر من السلام عليكم، ومضى. أنا
من تركت مدينتي لأجله، لم أجده. ثم أراد القدر أن
يلتقيا!

ما تبحث عنه يبحث عنك

هذه الكلمة من جملة كلمات مولانا، المحفورة فوق سقفي الذي أستظل به دومًا، لكنني مهما بحثتُ معتمدًا على ذاتي لا أجد ما أبحث عنه! وكأن القدر يحمل لي رسالة أنني لست مؤمنًا بعد بكل ما أقول وأقرأ وأتعلم.. بمجرد أن أستسلم أجد رسالة أخرى تجدد معنى الأمل في قلبي، رغم أن الحال ظاهريًا لا جديد في صورته.

بدا وصلُ مولانا غريبًا عند صديقي، الذي حكي لي اليوم طرفًا من تجربته ودخوله في الطريقة المولوية، ذهب صدفةً إلى مقام مولانا، من هو مولانا؟ لا يعرف عنه سوى أنه شاعر، ثم عاد بعد أن التقطت روحه خيطًا ظل موصولاً به.

وفي منام عجيب رأى بشارة خير ونور
أعادته مرة أخرى إلى حضرات مولانا، طلب أن
يحدث أحداً بما عنده.. يشاركه ما رأى.

قابل عجوزاً لا يعرفه من قبل، فرح العجوز به،
وأوصله بسند مولانا، رغم أن هذا عزيز
ونادر في أيامنا، فمن المتعارف عليه أن
شيوخ المولوية لم يعد أحد منهم في تركيا يبايع
المريدين ويمنحهم إذنًا، أتحدث بالطبع عن
الشيوخ الصادقين لا أهل الاستهلاك
والتزوير، أصبح الصديق مولويًا على يد
شيخ حافظ للقرآن وحافظ للمثوي وخبير
بالإنسان، هذا رزق عجيب يمنحه الله لرجل طيب،
حتى الناطقين بلسان الشيخ لا يحصلون على هذه
البيعة. وكل شيء عنده بمقدار. اللهم ارزقنا
الإخلاص في السير في طريق المحبة!

الكذب المغفور

تذكرت اليوم مولانا جلال الدين كثيراً، بعد فقده لشمسه، أخبره أحدهم كذباً أنه رأى شمس الحق التبريزي، بعد أن حزن طويلاً على فراقه، فمنحه مولانا برديته، وأجاب على من أنكروا عليه منحه جائزة لكاذبٍ، أن هذا جزاء الكذب.

كان يعرف أنه كاذب، ولذلك قال لهم: لو كان خبره حقاً لمنحته روعي. فخير عن شمس النفس فداء له! حينما يحيا القلب ويرى بنور ربّه يغفر ويصفح عن كثير مما ينكره ويغضب لأجله غيره.

من نحبُّه لا نملُّ من ذكره

تذكّرت كلمة قالتها لي أستاذة حكيمة "لو ظللت تحكي عن الرومي لن تتوقف" تذكّرتها بالخير هذه الأيام، وتذكّرت حديثها عن ابن عربي، حبُّ الإنسان لشيء بصدق يملك عليه حياته مهما غاب أو غيَّبته الدنيا بما فيها.

أنكر الناس على ابن سبعين الصوفي ما قاله وكتبه من أمور عدّوها شطحات، غادر ابن سبعين موطنه من أجل ما آمن به، آمن بقوله تعالى: "إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه" فرَّ بالله إلى الله،

وجلس عند بيته الحرام يكتب.. وانتهت حياته
كما أراد، بيده وبيد الله.

أوصى ابن سبعين تلميذه الششتري: "إن كنت تريد
الجنة فكن مع أبي مدين، وإن كنت تريد ربّها فكن
معي". فضل قلبُ الششتري معلقاً بأستار كعبة ابن
سبعين، وأمن بالرحلة مثله، فطاف البلاد ونفع
العباد، ومن محبته لشيخه كان يصف نفسه
قائلاً في موشحاته وأشعاره: "أنا عبد ابن
سبعين". وأمسى يردد في أشعاره كلمة (سبعين)
مئة مرّة، كتسيحة تربط قلبه بربه!

فعل ذلك مولانا الرومي مع شمس تبريزي
الذي أظهر برهانه وأعلى شأنه وأنضج كيانه
وأعلن ميلاده الخالد. في أشعار الرومي وغزلياته
تظهر ترنيمة شمس من البداية إلى النهاية، وأقلّ
شيء أعلنه أن كتب ديواناً يبلغ حجمه عشرة

مجلدات، جعل عنوانه باسم من أحبّ
"غزليات شمس تبريزي". كله من أجل شمس،
فطبيعي أن يجد القارئ فيه أوصاف شمس
"شمسي وإلهي ومعبودي"، تفعل المحبة أكثر
من هذا.

لا تستند المحبة إلى قاعدة، ولا تصح فيها
الشرائط والواجبات، تصعد المحبة أعلى
من هذه الأسقف التي يستظل بها من يعيش دون
أن يحيا حقاً! محبة الإنسان تجعل الكون بأجمعه
ينطوي فيه، فلا يُحدُّ ما يصدر عن قلبه الذي يصفه
العرفاء والحكماء ببیت الله الحق!

الأعظم تأثيرًا! ولماذا؟

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ تَأْتِيرًا فِي حَيَاتِكَ؟ هُوَ مَوْلَانَا
جَلالُ الدِّينِ الرُّومِيِّ. فَهُوَ السَّبَبُ فِي الصَّلَةِ بَيْنِي
وَبَيْنَ اللَّهِ حَتَّى الْيَوْمِ، صَلَّيْتُ بِرُوحِي، صَلَّيْتُ
بِبَعْضِ الْبَشَرِ الَّذِينَ أَحَبُّ فِيهِمْ مَا أَحَبَّهُ مَوْلَانَا فِيمَنْ
عَاصَرُوهُ وَعَاشَوْا مَعَهُ. إِذَا ظَهَرَ اسْمُهُ كَانَ سَبَبًا
لِلشُّعُورِ الْحَقِّ، فَمَهْمَا أَصَابَنِي ضَيْقٌ أَوْ غُيِّبَتْ
عَنِّي، أَتَذَكَّرُ بِفَضْلِهِ أَنَّنِي حَيٌّ وَأَسْتَحِقُّ
الْحَيَاةَ. رِسَالَةٌ مَوْلَانَا الْفَرِيدَةُ هِيَ الْإِنْسَانُ، مِيلَادُ
الْإِنْسَانِ، خِدْمَةُ الْإِنْسَانِ، مَحَبَّةُ الْإِنْسَانِ.

وُلِدَ مَوْلَانَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ، لَكِنْ وَلادَتَهُ الَّتِي
ظَلَّتْ عُرْسًا وَسُرُورًا وَحَزْنًا وَالْمَا أَنْتَجَتْ وَأَفَادَتْ
بِسَبَبِهَا، كَانَتْ بِسَبَبِ وَجُودِ قَلْبِ حَيٍّ، وَرُوحِ حَيَّةٍ لَمْ
تَمُتْ أَبَدًا، وَلَا يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهَا بِاسْمٍ، وَإِنْ أَسْمَاها
هُوَ مَرَّةً بِشَمْسٍ أَوْ بِحَسَامِ الدِّينِ أَوْ بِجَنِيدِ
الزَّمَانِ أَوْ بِصَلَاحِ الدِّينِ، رُوحُ الْحَقِّ الَّتِي لَا يُمْكِنُ

إذا كتب لها الميلاد أن تموت أبداً. كل عام ونحن
أحياء ونحيا مع الأحياء.

شمس تبريزي

تحدّث معي أحد الأساتذة الفرس حول شخصية
شمس تبريزي، وجزم بعدم وجودها، وأنها من
اختلاق الرومي، فشمس عنده مجرد صورة
استدعاها الرومي لينزل عليها ما أراد أن يعلن عنه
من أفكار. أخبرته أن هذا الاحتمال قال به غير
واحدٍ من الدارسين الغربيين، الذين لا يعيشون
الحالة الصوفية بكافة تفاصيلها، ولا يتابعون ما
كُتب في التراث الصوفي بدقة، وكذلك يغيب

عنهم ما ذكر في القرآن والتفاسير عن شخصية الخضر، وقصته مع حامل الرسالة، الذي غاب عنه الكثير رغم كونه نبياً!

ففي التراث شخصيات كثيرة، تظهر وتختفي فجأة مثل شمس، وقبله بقرون كثيرة تكررت الحالة، وبعده حدث ذلك. إن كثيراً من الروايات التاريخية وتتازع أهل الفرق والمذاهب على نسبة شمس إليهم تؤكد وجوده في التاريخ، فالمصادر الإسماعيلية رغم إسراريتها وضن أهلها على البوح بالكثير عن دعواتهم وأعلامهم، كتبوا عن شمس تبريزي ونسبوه إلى فرقته، وكذلك فعل أهل إيران، ولعل ما سجله سلطان ولد ابن مولانا وراوي سيرته الأوثق عن شخصية شمس أكبر دليل على وجوده في قونية في القرن السابع الهجري، وروى من بعده سبهسالار ما

يؤكد وجود هذه الشخصية وكذلك فعل أحمد الأفلاكي راوي السيرة العجائبية عن مولانا.

لولا وجود شمس في حياة الرومي ما صار الرومي شهيراً ومعروفاً حتى يومنا هذا. وحتى يوم الدين سيظل كذلك!

من اتبع السواد فقد ضلَّ!

نطق شمس تبريزي بهذه الكلمة، التي لا تعني التقليل من أهمية العلم والمعرفة؛ فالكتاب المقصود في نصّه المطول كتاب الله العزيز، وبالنسبة إلى أهل الفقه من المسلمين، فإن النظر إلى صفحات

هذا الكتاب عبادة، فضلا عن تدبره والاستفادة من تعاليمه أو اقتطاع جزء من الوقت لتلاوة جزء من آياته بشكل يومي.

إن شمس تبريزي لا يعول على السطور والحروف، فإن القرآن كما يقول ابن عم الرسول لا ينطق وإنما تنطق به الصدور الحية، ويتجسد في الأفعال لا في المقال، ومما وُصف به النبي الأكرم أنه كان قرآناً يمشي على الأرض، فالقرآن هنا جسدٌ حيٌّ لا حرفٌ مرسوم مزخرف فحسب.

مجرد كلمات

اليوم قرأت مئة صفحة من كلام شمس تبريزي
ومولانا، وبحثت عن توثيق كل جملة قرأتها، ثم
مضيت أقرأ في كتاب آخر عن معنى التصوف،
ماهيته ونشأته وأعلامه...

ثم مضيت أتابع القراءة في نص مطلسم
بعض حروفه تحتاج جهداً كبيراً لفك رموزها،
وكتابتها على نحو مبين، حتى يتمكن القارئ من
متابعة قراءتها.

بعدها فعلت ذلك تذكّرت ما قاله شمس، حينما
أخبروه عن أحد أثبت بالدليل وجود الله، فتهكّم
شمس كعادته، وقال:

"إن الملائكة اليوم في عيد وفرح من أجل ما فعل
هذا الشخص البائس!" ما يُقرأ ويكتب في عالم
الروح مجرد أضغاث أحلام، وحروف قاصرة،

فلا يعبر عن الحي الدائم ميت، وما يذوقه أهل هذا العالم بعيد جداً عن سبر أغواره بورقة أو قلم، والاكتفاء بوصفه خرافة أو يفوق العادة. كل هذه كلمات من لم يخض تجربة، مثله مثل حوارى المسيح الذي خاف من أن يجرب وسأل الله أن يقيه شر إبليس.

لن تستطيع معي صبرا!

التقى شمس تبريزي بأوحد الدين كرماني الذي آمن أن المجاز قنطرة الحقيقة وأن محبة حسان الوجوه وأهل الجمال طريقاً إلى الله يتقرب به.. فإذا كان الواحد خالياً في محبته من

الغرض والمرض فإن العالم كله مظهِراً
للجمال الكلي.

قابل شمسُ الكرمانى فسأله الصّحبة، فأجابه شمس
الحق إجابة تشبه إجابة الخضر لموسى، مفادها:
إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما
يبتزّه عنه أصحاب الصور في الظاهر وهم
غارقون فيه بالقلب والليل! قال له
الكرمانى: بل أفعل.

قال شمس: أترضى أن تشرب النبيذ على الملاء في
السوق؟

قال الكرمانى: لا.

قال شمس: أتقدر أن تأتيني بنبيذ خاص؟ قال: لا.

قال: أتصحبني وأنا أشرب؟

قال: لا. فنهره شمس قائلاً: انصرف عن الرجال يا فتى!

في القصة درسٌ هامٌ من دروس الملامتية الصوفية، الذين خلعوا لباس الصورة، وأسقطوا أنفسهم في أعين الناس، وأدركوا معراجهم مع ربّهم.

في القصة اختبارٌ لمن يجهل ويريد أن يصحب من يودّ أن يتعلّم منه، لكنه دون أن يعرف شيئاً يبدأ بالإنكار عليه، مع أنه سلّم منذ البدء للآخر أنه شيخٌ ومعلمٌ.. اختبار له هل يطيع أم يعصي؟ هل ينشغل بمظهره وصورته؟ هل لا يزال أسيراً للقليل والقال؟ أم أنه تجرد عن غبار السنين السابق، ورفض الميراث وإن كان ياقوتاً ولآلي؟! قيل: أرح نفسك من ردّ العامة وقبولهم لك.. فليس من شأن العامة إلا الحماقة والغلظة..

درويش من كردستان

قابلتُ اليوم درويشاً من كردستان كان يتكلم عن مولانا جلال الدين بحبِّ وإكبار عظيمين، يظهر من كلِّ كلمة نطق بها مدى إيمانه بأفكار مولانا، وضرورة حضورها في وقتنا الراهن، لم يفرِّق بين ما أنتجه أهل إيران أو ما صدر في تركيا، فيتعصَّب لأحدهما وينكر الآخر، بل استحضرننا ما كتبه سروش عن مولانا، وما كتبه فتح الله كولن، وما كُتب بالكردية بالطبع.

أعجبني في الرجل فرحه بما يقول، واسترساله في الحديث عن شيء أحبَّه، الفارقُ

كبيرٌ بالطبع بين حديثه وحديث غيره، ممن التقيتهم
هذه الأيام وتكلمنا عن مولانا، ترجمة الأفكار في
السلوك والحياة يجعل الإنسان سعيداً ومؤمناً،
بأنه لا تزال في الحياة أشياء تستحق الكفاح
والمجاهدة.

تحقق مولانا جلال الدين الرومي

وُلِدَ مولانا جلال الدين الرومي رسول السلام
والمحبة في زمن محن وحروب، كانت لا تترك
شيئاً على حاله، صوفيةٌ يُقتلون بوشاية من علماء
السلاطين، يبيع الإنسان نفسه والآخرين لقاء
دراهم معدودات، لم تخلق هذه الظروف من

الرومي قاتلاً، أو شخصاً يؤمن بخيانة الآخرين،
تحت أي عذر من الأعداء، خلقت هذه الظروف
الحالكة منه رجلاً، يتنازع العالم كله على نسبته
إليه، ويتباهى البشر بمعرفة بضع كلمات من
كلماته الإنسانية الخالدة.

هذا درس لنا لكي نتعلم أنه لا عذر للإنسان في
وضاعة ارتكبتها، هذا درسٌ لنا حتى لا يتراجع
عقل عن هدفه، كان مولانا يرى أن الإنسان غالٍ
جداً في عين الحق، فمن الكفر أن يبيع الإنسان
نفسه، فكل ما يكسبه لقاء هذا البيع، رخيصٌ
جداً ولا يبقى منه شيء!

درويش في قونية

تذكرت اليوم درويشاً التقية في قونية عند مقام مولانا جلال الدين، كان الدرويش يزور المقام ويؤدي ما يمثله كإنسان حر! غير ملتفت إلى نظرة الناس إلى ما يمارسه من طقوس، أو يحمل همّ مخالف له فيستحضر الدليل، أو مؤيد له سرعان ما يرتد تبعاً لما ورثته الأغلبية واعتقدته، ظلت أتابع هذا الدرويش الذي تعكس حركته وأنفاسه وزِيَّه وقرآته مدة زيارته، وجدت أنه لا يحق لي يومها أن أقف في مكانه، فقد زار عني وعن غيري، والتمست البركة منه بالسلام عليه، ولما عرف أنني كنت أسمعُه وهو يقرأ ويدعو، قبلَ رأسي ووضع يده على صدري، وشمّني بدعائه، بلسان لست أعرفه، أدركت وقتها أن مسافة شاسعة لا يطويها إلا الله تفصل

بيني وبين هذا العالم، مهما ادعينا المحبة أو
تصفحنا الأوراق.

لكنني تعلمت من هذا الرجل أن أقرأ حتى
أهتدي، ربما يجعل الله من القطرة بحرًا يغسلني
أو يغسل به غيري، ولا يزال هذا العالم الرحب
يجذبني إليه، وكلما ضاقت الأحوال وارتفعت كفة
الملل، يبعث الله إشارة على يد أحد عباده، وإن كان
العبد لا يدري أنه يشير أو يشار به، ليقول لنا إن
الأمل لا شفاء منه كالعشق، وربنا الأمل!

شرح حال الدرويش سجد الرجل بأريحية
شديدة وكفر عظيم! أمام شاهد المقام الأعظم،
سجد وما أنكر عليه أحدٌ، وإن أنكر أحدهم
فالدرويش لا يعيش مع منكر أو مثبت، هو يعيش
مع حق تجلّت حقيقته في حياته، وفي راحة قلبه.
سجد الدرويش أمام مقام الحسين وكذا سجد أمام

مقام مولانا، حاولت أن أقلده لكنني لا أملك مثل يقينه، ولم أصل إلى درجة إيمانه.

أنا مشرِكٌ بالقياس إليه، أنا كاذبٌ، لأنني رأيت صدقه في كلِّ حركة قام بها، وفي عينيه رأيت نفسي لحظة حلم وأنا أسجد وأبكي، فتح الرجل مصحفه، وقرأ سورة يس في الترجمة التركية بهدوء، وكان الحرف يتحول كخمر المسيح إلى لحم ودم، أو يخالط القرآن بدنه كما قال النبي محمد.

حين قرأت له نفس السورة بالعربية العرجاء التي تعلمتها، كأنني أهديته حياة جديدة، ظل يدعو لي ويمسح على كتفي ويبارك الجسد المنهك. حكيت جزءاً من حكايته لسيدة نادرة، فاندذهشت لهذا العجب، لكنني لم أرو لها أنني في اليوم التالي شعرت بسعادة غامرة، حينما انجذب قلبي

تذكرت بالأمس يقين أحد الدراويش الأفارقة
ولطفه في الحديث ورضاه بما هو فيه. سألته عما
كان يذكر به ربه وقتها، فكتب لي: (أهمُّ سقكُ حلءٌ
يصُّ) وأخبرني أن هذا هو اسم الله الأعظم
بالسريانية الصوفية الذي بسرّه يسعد.

وسواء كانت الحروف تعادل اسم (الله) أم كانت
الحروف تشير إلى معنى آخر، فإن رضاه وقبوله
بمراد ربه وسعادته بما هو فيه كان مما لم أره عند
كثيرين ممن يذكرون (الله) بحرف عربي مبين، أو
يعلنون احترامهم للإنسان بلغات عدة. اللهم ارزقنا
الرضا والصبر وحققنا كما تحب وترضى.

عند مولانا جلال الدين الرومي

وصفتُ نفسي يوماً وأنا في حضرتَه بقولي:
غائبٌ في حضرة من وُجِد، غائبٌ في حضرة من
قال ماذا وجد من فقَدك!

إذ تجسّد في قلبي قول مولانا: "أنا مثل الفرجار
أدور على السبعين ملة". رأيت حينها فراشة
الحلاج التي تطير حول المصباح، تبصر في
احتراقها بنور يفرُّ الكلّ منه، ظناً منهم أنه نار
محرقة، وتقرب الفراشة وحدها مشتاقّة فرحة
مسرورة. إلى عرس الموحّدين بتعبير الحكيم
الترمذي.

تتسابق الفراشات التي تحيا بصرخات قلب
مولانا. إلى عرس الله، حيث يزفُ كلُّ مشتاق
للتحقق والحياة الأبدية.

تقدّس سر مولانا الجليل وحلاج الأسرار المولود
بعد صلبه!

أنفاس الرومي كانت تحرك الأوتار
والأجسام، فتطير الفراشات طيراً جميلاً، يرسل
مولانا عبر تعاليمه رسائل حبّ روحانية، من
الصعب على من يتحدث مع الأغيار أن يدركها.
ومن أتاه هاتفٌ من نفس أو هوى أو بوق كيف
يدرك علة خروج الحكمة من أنين نايٍ تجسّد في
رقص الدراويش الصادقين.

وبما أن الإنسان الصادق يكتب نفسه،
ويعزف نفسه، ويجسّد حاله، إن استطاع ورزق
البيان، فقد قصّ الرومي قصّة جسده وروحه ودمه
وتجربته، حينما قصّ حكاية الناي الذي انقطع عن
أصله، وكما يحنُّ الجزء إلى أصله الكلّي، رأى في
مرآته المصقولة روحه تُزف كعروس إلى

المحبوب، لذا نَبَّهَ أحبابه ألا يكون حينما آن
للروح أن تصعد إلى عالم اشتاقته كثيرًا، ألم
يحتفي هو بصديق روحه "صلاح الدين
زرکوب" حينما غادر الدار الدنيا بإقامة مجلس
سماع ورقص؟ فالرقصُ في العرس حقٌّ وواجب
عند مَنْ يعي فروض الوقت!

شمس تبريزي

بدافع المحبة كتبت عن شمس تبريزي، وكتبت عن
مولانا جلال الدين، ظلّه ومراة روحه. وما
كُتِبَ حتى اليوم بالنسبة لي لا يتجاوز عتبة عوالم
هذين الجليلين، ففي دواخل هؤلاء ما خفي وجل

عن التعبير. كان الرومي يتكلم أحياناً، ثم يقطع كلامه بنفسه ويقول يكفي هذا الآن، فبقية الكلام لا تستوعبه الأذهان! بقية الحكاية ليست هنا، وبتعبير العارفين؛ ما دُونَ من تجارب هؤلاء أقلّ بكثير مما طوي وحُجب.

كل الكتابات هنا مجرد محاولة للتعريف بمقام هؤلاء الشريف، شريفٌ لأنه إنساني، شريفٌ لأنه طلب الحياة وعاش التجربة وما قبر ولا حُدَّ بحدود الأفهام، أو سجنته الظنون الكاذبة والوراثات المهلكة، شريفٌ لأنه تحرّر من السجن ولان له الحديد وانصاعت له النفس، فصاغ نفسه صياغة جديدة، ووُلد على الحقيقة قبل الموت الأكبر.

بدافع التعلُّم والاستفادة حاولتُ رسم صورة لمن أحبه، ألتمس من وجعه ما يجعل لوجعي

معنى، ومن سخطه ما يجعل سخطي طبيعياً، ومن بكائه ما يجعل بكائي طهارة لروحي وبدني، وإن عزَّ البكاء في وقت المخمصة والجفاف الذي يغلفنا.

كنتُ أظن أن كتابة العاجز تحثُّ غيره من القادرين على المضي قدماً في تسجيل دروس أوسع، ورسم صور أثرى وأغنى، لكن ما أكذب الظن، فالقادرون لا يحسنون إلا حمل الفأس الإبراهيمية لتحطيم تماثيل الثلج، ولا يفكرون يوماً أن الماء يجري من السماء لا من خلف عتبات العوالم الزرقاء والسوداء.

حسب المرید عزمه ونيتة، وحوله وقوته ليست إلا من عند ربه، فالقبول المعوّل عليه قبول من أعانه ويعينه، ويظل معه، رغم ترده ووهمه وظنونه وحيرته وطيشه.

القلبُ أفضلُ من الكعبة

القلبُ بيتُ الله، كما رأى مولانا جلال الدين ورأى غيره من الصوفية المتحققين، ما وسعتني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن. عبارة القلب أفضل من الكعبة، كانت أولى اقتباسات محمد إقبال من دروس حضرت مولانا جلال الدين، التي أسس عليها نظرتَه إلى الإنسان وضرورة خدمته.

تذكرت هذه العبارة الآن ونحن نتحدث عن شمس والرومي، وأين هو مقام شمس اليوم؟!

ثلاثة أماكن أو أكثر يؤكد المحبّون لشمس تبريزي أنه دفن فيها، وبحسب الروايات التاريخية يترجّح وجود جثمانه الشريف في قونية، إذ الرواية الغالبة أنه قُتل ودفن في مكان قريب من مرقد مولانا جلال الدين، ومؤخرًا اكتشفوا هذا المكان وجعلوه مقامًا لشمس تبريزي، إلى هنا تبدو الرواية صحيحة اعتمادًا على ما قيل من كون مريدي الرومي والقريبيين منه رأوا في وجود شمس خطرًا عليهم، وفي صحبة شمس لمولانا انصراف عنهم، فقرروا أن يتخلصوا منه بمساعدة أحد أبنائه (علاء الدين).

قُبلت هذه الرواية من الغرباء عن عالم التصوف، وقلعوا بها ورأوا أن هذا طبيعي للغاية! لكن هذه الرواية لا تصمد أمام التحقيق في سير الأولياء والصالحين، فكيف يرَبّي الرومي قتلة ومتأمريين؟ وكيف يكون ابنه الأكبر مشاركًا في قتل محبوبه،

وفي الآن نفسه يلحّ الرومي في رسائله بعد غياب
شمس على علاء الدين أن يعود إلى قونية؟

مثل هذه الرواية لا تصمد أمام بعض التدبر وقراءة
سيرة الرومي وتعاليم المتصوفين.

وُصف شمسٌ في أغلب الروايات
التاريخية (السنيّة والشيعية والإسماعيلية
وغيرها) بـ (الطيّار - الغريب - الملامتي -
القلندري...) أوصافٌ في أغلبها تشير إلى كون هذا
الشخص لا يعرف الاستقرار في مكان، ولا يحبّ
أن تسجنه صورة أو يحد من حركته مكان، فأغلب
حياته لا تعرف الحدود، ولا يشبعه أحد ممن
قابلهم، ولم ير نفسه في مكان من الأماكن التي
(زارها)، هو غريب دائماً ويعشق هذه الغربة،
فأغلب الظن أن مماته كان مثل حياته، مضى

غريباً حتى مات في بقعة من البقاع التي لا يُعرف فيها، ودُفن كمشخص من العامة.

إن من يقرأ تعاليم شمس تبريزي وما نُسب إليه من مقالات، سيدرك ذلك بقليل من التدبر. روحياً: من يجاور مقام مولانا يثمل بالفعل، يغيب، تتتابه حالة من الصمت والذهول والهدوء لا يعرف مصدرها، بخلاف مقام شمس القريب منه، يبدو كبقعة عادية أو كمسجد من المساجد البسيطة تصلي فيه العصر وأنت مدرك لكل حركة من حولك، لا تغيب ولو للحظة عن ذاتك، ولا تتسى شيئاً وأنت هناك، ربما لأن كل شعرة من شعرات مولانا يتدلّى منها ألف شمس، وربما لأن المكان مكان نزاع لا مكان بسط وسعة.

عن مولانا

كُتبت عن مولانا جلال الدين الرومي بعض كلماتٍ سابقاً، بدافع المحبة، ولأنني لمست في كلامه إنسانية وأريحية لم أجدّها عند غيره من أهل التصوف، صحيح أن مولانا استفاد من آثار سابقيه من رجالات التصوف، لكنه أحسن هضم ما طعمه من جميل آثارهم، وأجاد في تقديم ما لامس قلبه بصدق، وخذلّ الكثيرين بحسن سياقته لأخبارهم. ومن أجمل الشخصيات التي خلدّها شمس تبريزي، الصوفي الطبيعي الذي لم يقلد أحداً، ولم يتحدث إلاّ من صميم قلبه. هؤلاء هم الصوفية الذين قدّروا الإنسان حقّ قدره، ولمسوا مشكلاته، وقدموا صنوفاً شتى من الحلول، حتى يحيا الإنسان

مخدومًا لا خادمًا وعبدا ذليلا، تكبله قيود السادة
وتقهره أحكام الراحلين.

علمنا مولانا

في ذكرى مولانا جلال الدين الرومي واحتفاء
العالم بيوم عُرسه، لروحه وإنسانه النادر التحية
والسلام. علمنا مولانا ألا نبيع أنفسنا لقاء أي ثمن
كان، فقد كرر في كتاباته أقوال السيد المسيح؛ ماذا
ينتفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه؟!

علمنا أن ندخل إلى العالم من كافة الأبواب، لا من
باب واحد، فالحقائق من الصعب أن نتعرف عليها

عبر نافذتك الضيقة فحسب.

علمنا مولانا أن التقليد لا يعول عليه، فلا حياة
لمقلد!

علمنا مولانا أن حديث القلب يسقي
بذرة الأدمية وينضجها، ولا حديث للعقل يفيد
إلا بعد حياة قلبه.

علمنا مولانا أن الكلّ عيال الله بالفعل، لا فضل
لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي، وأنّ
كلّ شيء في الوجود يمكن أن يدل على الجمال
والحق والخير، مهما كان لونه أو صورته.

الحمد لله على محبة مولانا وعلى محاولات الحياة
والتعلم والتلقي.

غريبٌ قريب!

أحد الرجال كان ماء عينيهِ بلون جميع الخمر التي احتساها قبل دخول الحضرة، كانت قريبتَه معه، جلسا سوية في آخر صف من صفوف المجلس، جلست بجواره، ظلَّ الذكر مستمراً لثلاث ساعات. كانت أنفاس هذا الرجل تعلقو مع كل اسم من أسماء الله، لم يُخف شيئاً من أفعاله، وعلى كتفه ورقبته وشوم كثيرة تجعل صورته بعيدة عن صورة الحمير الذين يحملون الأسفار وحياتهم عُجنت بالكذب والنفاق باسم الله!

تذكرت هذا الرجل الآن، وأنا لا أدري في أيِّ أرض هو، بعد أن غادر كل منا قونية. شرح حال

هذا الرجل كتبًا كثيرة دون أن ينطق، وتحولَ خمر جسده إلى نسب حيّ يقدّس الحيّ، ويلفت نظر من أراد الحياة إلى ما حُفر في قلوب كثيرين وشوّه حياتهم، فأصبحوا في متاهة من متاهات المرض، يغتصبون أحلامهم ويكررون صورًا حقّ عليها الدفن من قديم.

هذا الرجل لم يتقن حرفة الكلام، ولم يتعلّم لغة التعبير كما تعلمها عبدة الأوثان، وأنتجوا لنا سجع الكهان، الذي برغم ختم النبوة وإعلان استقلال العقل لا نسمع إلا أصداءه في طرقاتنا وحيواتنا!

الرجل ليس نفسًا ونقشًا وجنسًا، الرجل أنفاسٌ تحيي وتميت، يسبّح الحصى في يديه، ويحن الجذع إليه، ويطعم الآلاف من زاده البسيط.

تحفة العشاق

طلب صاحب "تحفة العشاق" وهو أحد المحبين لمولانا جلال الدين الرومي، ممن يريدون التعرفَ على جمال التصوف، أن ينصتوا بأذن الروح، حتى يسمعوا ألفاظ الفقراء المعنوية، فهي الثروة الباقية في هذه الدنيا التي لا تدوم. ومما جاء في تحفته عن العشق: العاشقُ فارغ البال من هذا وذاك، يستوي لديه الكفر والإيمان، لا يفكر في العاقبة لحظة، ولا يفرق بين غريب أو قريب، العشاقُ يمتنعون عن النوم والطعام، وهم عارفون، ولكن بدون درس أو كتاب، كلُّ شيءٍ يملكه العاشقُ يقامرُ به في كلِّ وقتٍ في سبيل وصل

الحبيب، عشق الحبيب هذا نارٌ وليس ريحًا، من
لا يملك هذه النار، فليمت!

صوتك ينطق بكلامي كله

تعود إليك روحك التائهة بسبب نصٍّ جميل تقرأه،
تندش، لأنه يعبرٌ عنك، بمنطق لا يمكنك أن
تنطق به. لا تستطيع أن تقدّم برهانًا لأحدٍ على أنك
تعيش ما عاشه الناطق، أو أنك تشعر بما شعر به
وقتها، نصوص الصوفية تفعل ذلك بمنّ يلمس
فيها جزءًا من حياته، بحيرته وقلقه
ومعاناته وفرحه وحزنه وألمه. قدّم
الشعراء الصوفية في هذا المجال ما لم

يقدمه غيرهم باصطلاحاتهم وصورهم،
استقادوا من اللغات والرموز والصور
التي استخدمها غيرهم، وأضافوا عليها جمالا
إنسانياً وإلهياً نادراً.

أسرني بشكل خاص ما قدمه الناطقون بالفارسية،
بداية ممن كان التصوف لديهم غرضاً من
أغراضهم الشعرية، حتى من شكل التصوف
حياتهم، وأعاد صياغتها من جديد، وحصلوا على
الولادة الثانية بتعبير الإنجيل.

ومن هؤلاء فريد الدين العطار وسنائي والرومي.
حديث العطار حديث إنسان استطاع أن ينطق في
أحلك لحظات حياته، فإذا أراد أن ينقد إجراءات
السلطة وسلوك الحكام، ساق ذلك على لسان
المجانين، وتراثه الصوفي يحوي الكثير من
ذلك، إذا أراد أن يتحدث مع الله بأريحية لا

يخشى رقيباً، فالله صاحب في السفر الطويل
والصاحب والصديق لا يغضب من صديقه،
والرحيم الذي وصفه النبي الكريم بأنه أرحم من
الأم بولدها لا يمكنه أن يلفظ من يبوح بسرّه، أو
يزعجه ما يتلفظ به بعض عياله، تفهم الأم دون أن
تنطق وتشعر بالآمنا دون أن نبوح.

أعاد العطار نسج رسالة الطير التي كتبها من قبله
ابن سينا والغزالي وغيرهما، وظل منطق الطير
من النصوص الخالدة وإلهي نامه ومصيبت نامه
وغيرها من أعماله الشعرية الرائقة. فعل سنائي
ذلك أيضاً في حديقة الحقيقة وكتاباتة الأخرى
مثل ذلك، لكن القصة الفريدة هي قصة
مولانا!

مولانا جلال الحقّ والدين جلال الدين الرومي.

قصة الرومي قصة إنسان حيّ متحقق،
وما نصف به الرومي نصف به أنفسنا على
الحقيقة، فكلّ رؤية له نابعة من قلب يريد أن
يرى نفسه على هذه الصورة الطيبة.

الصلاة لا تقتصر على هذه الهيئة والحركات، قال
الرومي بذلك، وإنسان هذا العصر يؤمن بذلك،
ويرى الصلوات أوسع من كلّ الحركات الواجبة
والجائزة، ويشعر أن الركوع للحقّ لا يكون في
بناء من أجاراً فحسب.

الموسيقى التي نستمع إليها وتقشعر أبداننا وتهتز
أجسادنا لها، ونغيب ونحبُّ وننتفض بسببها عدّها
الرومي صلاة، ويعدّها إنسان اليوم كذلك.

المرأة التي نحبها ونذمّها ونمدحها ونرجوها، نطق
باسمها الرومي، وقال عنها ما رفعها إلى مرتبة

الألوهية، وما هبط بها إلى درك الحيوانية، الإنسان
اليوم في بلادنا يفعل ذلك في اليوم مئة مرة.

قال الرومي عن حبيبه: صوتك ينطق بكلامي كله.
يقول ذلك كل محب لمحبوبه.

قال الرومي عن محبوبه البشري: شمسي.. ربي..
والهي ومعبودي. يفعل ذلك كل محب حقيقي،
ويقول أكثر منه.

لا أوصاف تستقر في عالم الحبّ والحياة،
ولا شروط مطلوبة، ولا قواعد لا بدّ للإنسان
أن يسير عليها، لكلّ شخص شرطه وقاعدته
التي يبنيها ويهدم جدرانها ويعيد بناء غيرها في
كل لحظة. يشاهدُ نفسه وهو يفعل ذلك ليحيا،
ويظل محبوبه في مكانه، إن رجمه
بالحجارة وأمسك بيده ليضعها في النار فلا

يغضب منه، فالمحبوب دومًا وراء فعله خلق جديد.

كُلُّ هذا عصيٌّ على البرهان والعقل أن يفهماه ويتقبلاه، كَلَّ هذا لا يدركه جبريل أو رضوان، لا يعرف هذا إلا من كرر تجربة النبيِّ مُحَمَّدٍ، الذي صعد إلى السماء حتى سدرة المنتهى، وقال: أبيتُ عند ربي فيطعمني ويسقيني!

هيج (لاشيء).

في المرة الأولى التي رأيت فيها الكعبة اندهشت جدًّا من طلب الناس جوارها وتمني الموت هناك!

لم أجد من نفسي رغبة للوقوف أمامها طويلاً أو الصلاة بجوارها، جلست قليلاً أتفقد المكان الذي أراه للمرة الأولى ثم خرجت، دار حوارٌ قصير بيني وبين نفسي، ثم مارست طقوس اليوم برتابة! ولم أهتم بمشاعري الجافة تجاه مكان يقصده ملايين البشر.

تغيّر الحال بالنسبة إليّ، فقرأت ما أحبّ وبكيت كما أريدُ بي، بعدما استمعت لصيحة تشبه صيحة الحلاج من امرأة هندية. ومن زار بيت الله الحرام عرف تعلق الهنود وأهل الباكستان الطيبين به. كانت السيدة تقول في صيحتها "أنا من أكلمك، أنا هنا، اصنع لي شيئاً، أنا لا شيء". صرخت السيدة، لم تلتفت إلا إليه وحده، لم تعبأ بهياكل المقيمين ولا بقلوبهم الحجرية.

تعلمت من السيدة وقتها أننا لا شيء، فلا يحق لنا أن نطلب شيئاً، فصراخنا وبكاؤنا وفرحنا لنا وحدنا، والله يصنع كل شيء كما أراد. تكرر هذا الشعور عند زيارة مولانا، وشمس تبريزي في قونية، ظننت أنني سأكتب قصيدة أو معلقة وأتحدث في حضرتها بكلام كثير يملأ قلبي منذ سنين، دخلت المكان كما خرجت ليس لدي شيء! حتى أذن الله أن أشعر في مرة تالية بالمكان منذ لحظة تحليق الطائرة في الجو، لأن رجلاً عجوزاً عرفني على معنى الكلمة المرفقة في الصورة وهمس في أذني "لا شيء" الآن أدركت جزءاً من معاني هذه الكلمة، فقلت كما أراد، هو، قل أي شيء أكبر شهادة!؟

المثلية والتصوف

إن عنواناً يُكتب على هذه الصورة يبدو غريباً للغاية، فالمثلية فكرة غير مقبولة دينياً، وطرحها يثير الكثير من المشكلات، فكيف يمكن لصوفي أن يكون مثلياً؟! بل ويدعو إلى المثلية! أعتذر لمولانا جلال الدين الرومي، لأنني أكتب كلمة عن هذه الفكرة، واليوم يناسب حفل عُرسه، حفل انتقال روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، لكنني استجابة لطلب بعض الأصدقاء الكرام أكتب عن هذه المسألة النقاط التالية:

1 - زارت سيدة من أصول عربية تقيم في فرنسا مدينة قونية بغرض أن تعدّ تقريراً عن احتفاء العالم بالرومي، تحدثنا صباحاً عبر الهاتف، أول

جاذبٍ غيبي لم تتعرّف هي مصدره، أنها رغم التعب والإرهاق بمجرد أن دخلت المقام الشريف امتلأت بالسلام وشعرت براحة كبيرة لم تكن تتوقعها، وما لفت نظرها أن العرب ندرّة في المكان، فكم كانت تود أن تنتقل هذه الروح الطيبة إلى أهلنا الناطقين بالعربية. عرّفت السيدة على صديق تونسي زيتوني التكوين، ويكمل تعليمه في قونية، فربما ساعدها في هذا العمل الناشر للجمال، النكتة هنا أن الحضور العربي قليل للغاية، والعرب قرب المقام إما خصوم للتصوف والرومي، سلفيون انتقلوا من سوريا إلى قونية ونقلوا عقائدهم معهم، أو محبون للفلكلور يهتمون بالرقص والصور فحسب.

2 - قبل عدّة سنوات كان أول سؤال لأحد الشباب العاملين في الصحافة في مصر، يعكس مستوى

ثقافته وثقافتنا القشرية، حينما جمعنا جلسة نقاشية،
أنت تحب الرومي!

والرومي كان هو وشمس يمارسان كذا وكذا؟
كانت إجابة صديق لي تشبه قول أحدهم "خليك
مثلي طيب وطلعلنا الإنتاج الشعري ده لو المثلية
منتجة". أنا لم أتحدث ساعتها عن الفكرة، وهل
هي صواب أم خطأ، لأن الحديث لا يتوجّه بشكل
جاد إلا مع من يأخذ الحديث على محمل الجد لا
العيب، كما هو شأن الصحافة المصرية والعربية
بشكل عام.

فتجد شخصاً على سبيل المثال يرأس
جريدة ثقافية يتكالب أساتذة الجامعات على النشر
معه، يرأسك بالنص المنطقي التالي: "غداً عيد
الحب. الرومي تكلم عن الحب.

اكتب لنا موضوعًا بهذه المناسبة يحتوي على أشعار عن الحب". تنتهي الرسالة عند هذا الحد، فالخفة لا تنتج إلا كل هش وقش.

3 - غير معروف على وجه الدقة من هو شمس تبريزي. كل الأكاير من الباحثين شرقًا وغربًا لا يقطعون في أمره بكلمة، نظرًا لغموض تلك الشخصية وقلة المعلومات التاريخية عنه، تناولت ذلك في بحثي المنشور في كتاب المولوية في مركز المسبار، وفي بحث نُشر في مجلة المشرق ببيروت، ثم فصلت الحديث عن الموضوع في كتاب لي بعنوان:

شمس تبريزي: إبريق من الخمرة الإلهية.

4 - العلاقة بين شمس والرومي علاقة لها نظائر كثيرة في تراثنا الإسلامي. فقد صحب النبي صلى

الله عليه وسلم سيدنا أبو بكر، وكان معه في الغار
ثاني اثنين، وبدّل النبيّ حال أبي بكرٍ كلبية، بسبب
تلك الصحبة، وتزوج النبي من ابنته عائشة،
وآل الأمر إلى ما آل إليه، مما هو مشهور
ومعروف لدى لكافة.

في مصر أشهر الصوفية على المستوى الشعبي
هو الإمام الشعراني، وضريحه كائن بباب
الشعرية شاهداً على انتشار التصوف في مصر،
واعتباره ركناً ركيناً من ثقافة المصريين الدينية،
وإن غزتهم تيارات جديدة بأفكار ملوثة لكلّ جميل
وموروث. كان الشعراني كما كان الرومي
صوفياً متلقياً للتصوف بشكله النظامي على يد
مشايخ، ومشاركاً بالكتابة والتدوين فيه،
ويعتبر الدارسون للتصوف الأكبري أن
الشعراني خير مقرب لأفكار مدرسة الشيخ
الأكبر، ومن المعروف أن الذي كوّن

الشعراني وجعله بارزا في هذا المجال،
صحبته لشيخه سيدي علي الخوّاص، والرجل لم
يُعرف في عصره بعلوم أو مناصب، فقد كان أمياً
يعيش من كسب يده، وينفع عباد الله كلهم،
تحقّق الشعراني على يديه، وصار علماً من
أعلام التصوف، ولا تزال مؤلفاته تلقى عناية من
الباحثين غرباً وشرقاً، هذان المثالان من الصعب
أن نتحدث عن علاقة مثلية بين الرجلين فيهما، فلا
أشعار في الغزل بالمذكر، ولدينا شاهد على
زواج أحدهم من امرأة.

ماذا تقول المصادر التاريخية عن لقاء شمس
بالرومي؟

وهل كان وحده ملهم الرومي؟ وهل صحب
الرومي بعد احتجاب شمس أحداً غيره؟ إنَّ أهمّ
مصدرٍ لتأريخ حياة الرومي وشمس هو كتاب

ابتداءً نامه لابن مولانا سلطان ولد. ويؤكد هذا المصدر على متابعة الرومي لسنن الرجال السابقين، ففي القرآن حكاية عن رجل قال لنبي من أنبياء الله "إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي". وفي ثقافتنا الموروثة أن من أحب شخصاً وأراده أن يظل مقيماً في بلده، يحاول تزويجه، وهذا مع فعله مولانا مع شمس تبريزي، تزوج شمس بمساعدة الرومي، حتى أن بعض الرواة أكد على محبة شمس لزوجته وغيرته الشديدة عليها.

هل كان للرومي ملهمون؟ نعم ألهمه والده سلطان العلماء، وألهمه أبأوه الروحانيون كسنائي الغزنوي وفريد الدين العطار وغيرهم كثيرون. هل صحب الرومي وأثر فيه أشخاص غير شمس وكتب فيهم مدائح وغزليات؟ نعم، فعل ذلك مع حسام الدين كاتب المثنوي

وخصّه ببعض الغزليات، ومن يطالع ديوانه
المتنوي سيقراً أوصافاً جليلاً يصف بها
الرومي محبوبه حسام الدين چلبى وتلميذه
الوفى، وكذلك فعل مع صلاح الدين
زركوب صديقه وصديق شمس.

هل تحدّث عن المثلية أحد من العلماء والباحثين
الذين قضوا حياتهم في دراسة الرومي وخدمة
أعماله؟

كتب إدوارد براون مؤرخ التراث الفارسي
عن شمس تبريزي، متحدثاً عن شخصية
غامضة، تتدثر بلباس أسود خشن. وكتب
صديقه نيكلسون الذي قضى جزء حياته
الأكبر في تحقيق المتنوي الفارسي
وترجمته إلى الإنجليزية عن شمس كتابة عن
فيلسوف، وتبدلت حياة نيكلسون للأجمل بسبب

انشغاله بهذا التراث الروحاني الجميل، لا بسبب انشغاله بقشرة من قشر الأشباح، ومن هنا عرف تلامذة نيكلسون العرب فضله، كأبي العلا عفيفي وعبد الوهاب عزام، برز واحد منهم في درس ابن عربي والآخر صار رائدًا للدراسات الشرقية ومقدمًا للرومي في البلاد العربية. ولجلال ما ورثه نيكلسون لتلامذته في الغرب وجدنا أرثر أربري يكتب عن أولياء شيراز ويترجم أعمال التصوف في الهند ومصر والعراق بكل تبجيل واحترام، ولم يذكر ولو لمرة واحدة ما طرحه الأعراب اليوم عن صورة العلاقة بين الرومي وشمس.

إن مستشرقة عاشقة للتصوف والإسلام مثل أنماري شيمل كتبت عن مولانا جلال الدين أكثر من عشرة كتب، لم تتطرق إلى هذه المسألة، التي تغلبت فيها الشهوة على عالم الروح

الذي فرض نفسه على العالم كله وجذبه وحببه في
الرومي وأشعاره.

وكذلك السيدة إيفا دوفيتري ميروفيتش، التي
التحقت بالإسلام عبر باب الرومي، ففي
أطروحتها للدكتوراه حول الرومي والتصوف،
حدثتنا عن موسيقاه، عن صحبته الروحية،
عن كلماته النورانية. ولم يفكر أحد من هؤلاء
الأكابر في هذه العلاقة الثرية بما يُقذف به
في عقول البعض اليوم باعتباره دليلاً على حداثة
ومدنية، إن شغلنا نقطة عن مياه البحر، فهل نحن
من أهل المعرفة والعقل؟!

هدى الله الناطقين بالعربية للنطق بالجميل والباقي!

خמוש!

ينشد الناس السلام والرحمة والهدوء والأمان
والسكينة وكثيراً من المعاني الجليلة
النادرة في هذه الحياة، فيجدون ذلك في
كلمات وليّ من زمن عتيق، هذا الولي الصالح لا
ينجذبون إلى صلاته أو صيامه أو ما أدّاه من
عبادات، ينجذبون إلى مثاله الذي عاش في وسطٍ
يشبه وسطهم، وربما كان أسوأ، وظلّ هذا الإنسان
حيّاً لم يتبدل، وظلّ ساعياً وكادحاً في سبيله، مؤدّباً
ما رآه رسالة ومبلغاً ما تعلمه من درس.

تدبرت في هذا اليوم سيرة حياة شمس والرومي،
فوجدت أن كلا الشخصين كان بحاجة إلى الآخر،
يصرخ شمس، فيصمت الرومي ويختم كل قولٍ
بكلمة (خמוש/صمت).

يتحدث الرومي فيغشى على شمسٍ ويغيب عن
الوعي.

بيجّل الرومي أحدهم فيبتسم شمسٌ من فعل
الرومي، ذلك الشخص المبجّل لا يستحق ما مُنح!
يتحدث الرومي مع العامة ويجلس بينهم
فيغبطه شمسٌ على فعله وقلبه الواسع، هو لا
يمكنه أن يفعل ذلك، لغته فجّة تنزل حروفه
كالمطرقة فوق الرأس لا يتحمّلها سوى من
يشاركه أفكاره ويشاطره الحياة.

لا يفهمُ لغته أحدٌ ولا يعرف مراده سوى
صديقه الفرد الرومي، يتحدث الرومي عن شيخ
أو كتاب أو معنى لا يهتم شمس إلا للرومي،
فالكلام كلّهُ بمنزلة القش، المهم عنده أن الرومي
هو الناطق، وكل الأحرف مجرد رسم.

يكفي أن يفتح محبوبه فاهه، أن يتنفس ويرى أنفاسه، لأنه يستمد حياته من نطقه، لا يعرف الغريب من الناطق أهو الرومي أم شمس.

صوتك ينطق بكلامي كلّه، أنت ربُّ البيت، أنت الكعبة، أنت القبلة، أنت أنا، كلاهما ينطقُ بها، كيف عاشا الحياة على هذا النحو؟! هذا سؤال من باب التعجب فحسب، إذا نظرت العين إلى من حولها من الأناسي الذين يبذلون وسعهم في إفساد حياتهم!

مثل هذه الحياة ليست مستحيلة أو نادرة، وتكرر كل يوم، مع كل نفس من أنفاسنا، ندرك أن الحزن نعمة والألم نعمة والفقد نعمة والصبر نعمة والفرح نعمة وخلف كل بلاء نعمة، كلُّ يوم يتجدد أملنا، فقد قال أملنا وربنا عن صنعه:

"يزيد في الخلق ما يشاء" ويقبض ويبسط، ويغيّر
الحال، وإن قال الكلّ في لحظة: إن هذا محال!

الحرية الجسدية في رقصة الدراويش

يمكننا أن نقول بلا شيخ وبلا تعاليم
صوفية لا يمكن للدراويش أن يحصل على
حريته المنشودة، والتي تعبّر عنها رقصته
الدائرية، والتي يريد منها أن يتخلّى عن
جسده الفاني، ويتألّه إلى ربه، بروحه التي أدرك
حنيها إلى منبعها الأصلي النوراني.

لا حرية متاحة للدرويش في البدايات، هناك مطبخ لا بد أن يستوي فيه وينضج، حتى يمكنه أن يميز بين ألوان الطعام التي تقدّم له، وبعد نضجه يمكنه أن يطير، متوسلاً بشيخه وبقائده، كما يفعل العازف الماهر مع قائد الأوركسترا، مهما أحسن في أداء دوره، لا يمكنه التخلّي عن جماعته دون إجازة شيخه. الحرية تكون دون ترتيب أو قصد من الراقص، الحرية ثمرة لا مطلب.

جلال الدين الرومي والمرأة

سألني أحد الأصدقاء عن رؤية مولانا جلال الدين الرومي للمرأة، وهل تختلف رؤيته عن بقية

الصوفية؟ خاطرنى سؤاله، وأنا أقرأ كلمة في فصّ
في بيان خلق المرأة، عند الشيخ الأكبر ابن عربي،
يمكن أن يكون جواباً عن سؤال مَنْ هي المرأة؟

إنها إبداع جذّاب من إبداعات الخلاق، يتبدى من
عينها هوس العشق عياناً، وفي شفيتها يختبئ
السكر والقند، كما يصفها أحد الشعراء الفرس. من
المشهور أن مولانا قال كلمة جميلة في شأن
المرأة، يتناقلها كل من يحب أن يمدح المرأة، فقد
وصفها الرومي بالخلافة. لكن كلمة أخرى وردت
على وزن مقولة شيخ الإسلام الأنصاري الهروي
"الصوفي غير مخلوق" في صيغة شعرية
تعبّر عن تقدير الرومي للمرأة، فقد ورد في
المتنوي قوله عنها: "شعاع من نور الله هذه
وليست معشوقة كأنما هي الخالق وليست
مخلوقة!".

لكن هل يمكن اختصار رؤية الرومي في وصفه
هذا للمرأة؟

بالطبع لا. فرؤية الرومي للمرأة يمكن النظر إليها
من عدة نوافذ، فحياته الشخصية قدّر فيها
المرأة تقديرًا حسنًا وأنصفها إنصافًا كبيرًا،
مما جعل النسوة تحرصن على حضور
دروسه وحلقات السماع. وفي الأخبار ما يروى
عن سلوك بعض النساء أنها كانت تنثر
الورود فوق رعوس الحضور عند تلاوة
المتنوي.

وفي رسائل مولانا يعترف ابنه سلطان ولد أكثر من
مرة لكونه أغضب زوجته بسبب فعل بسيط،
ويطيب خاطر زوجة ابنه بكلام رقيق يرفعها فيه
مكانة كبيرة، ويهدد ابنه إن هو أغضبها مرة
أخرى سيعاقبه عقابًا شديدًا.

وفي كتابه المثنوي وكتابه فيه ما فيه أحاديث كثيرة
عن المرأة، فمرة تكون معشوقة ومرة تكون نفساً
ومرة حجاباً ومرة تكون عائقاً في الطريق، ومرة
ينطق يوسف بظلم المرأة للرجل بإخراجه من
الجنة وتعيد المرأة ظلمه فتكون سبباً لدخوله
السجن، مرة يكون مولانا صوفياً ومرة يكون
فقيهاً ومرة يعبر عن إرث المجتمع. ويظل
الرومي ابن عصره وبيئته الثقافية، لا يمكن
أن نستبعد كل ميراثه الديني، من أجل أن نظفر
بكلمة شعرية نرددها على مسامع المعجبين،
حتى يحوز رضاهم، فكما رأى المرأة خلاقة
اعتبرها أرضاً والرجل سماء، وهي مثال النفس
والرجل مثال العقل، وهي سبب الألم والرجل
سبب السعادة.

* * *

ما التصوف؟

التصوف قلب الإسلام وغصنه الحي الذي يُسقى بماء الإيمان والصدق. التصوف امتداد لخلوة النبي في غار حراء. التصوف استمرارية لدعاء النبي في الطائف "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني، أو إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

التصوف تحقيق لمعنى "اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، واجعل لي نوراً". حتى يجعلني ربي نوراً لي ولغيري. التصوف إحياء لسنة أب الأنبياء إبراهيم، فهو النموذج الصوفي الأعلى (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أسلم إبراهيم النفس وقال إني مهاجرٌ إلى ربي فسافر إلى الغربية لله، وبذل الطعام للضيف، واشتغل بعد ذلك بالتفكير ليصل إلى الحق إذ لم يكن له شيخ يسأله تعبير ما رآه، رأى الكواكب والنجوم والشمس،

فلما أفلت جميعها قال حبيبي منزّه عن صفات
الآفلين، شاهد بعدها الحق وتيقن وأسلم وجهه له،
فصدح بما وقر في قلبه (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
واتخذهُ اللهُ خَلِيلًا.

التصوف التفاتة إلى صلب التعاليم
الإسلامية وروح الرسالة المحمدية، إذا غاب
الإنسان عن المعنى الحقيقي الذي يراد به
الاهتمام والعناية أعاده التصوف إليه، فلا
ينساق وراء غرائزه ويتعلل بالأحكام
والمباح والجائز، يعول على قلبه وضميره،

ليصل إلى مقصود غال ونفيس، لا إلى عَرَضِ
زائل وغير نافع.

التصوف ليس قراءة للكتاب أو ترديدًا لكلمات من
السنة أو إعلانًا بأن الحق هو ما يجري على لسان
واحد فحسب، بل هو عيش وحياة لما ورد في
الكتاب، وذوق التمس من الكلمات التي لا
تتفد ضوءًا يسعى به في حياته كلها، وحاول
أن يتأسى ويقتدي بالسنة بأن يكرر ما كان.

التصوف مغامرة روحية لا يلتفت فيها الإنسان إلى ما قيل ويقال عن الطريق الذي اختاره، لا يتابع في تجربته أحدًا مهما كانت مكانته في حياته، ولو كان والده الذي أنجبه، وفي حياة غير واحد من كبار الصوفية ما يؤكد ذلك، فتجربة الرومي الحقيقية التي أنتجت هذا الشخص لم تكن لتثمر عبر المتابعة للسابقين بطريقة أو انتسابًا، فلم تكن ولادته لأب صوفي متابع لطريقة صوفية هي سبب راحته وسعادته، كان فيه شيء لم يبصره غير شمسه وروحه، حينما وجدته اكتفى به، وغامر معه ليعيش حياة حقيقية. ليس في كثير مما نراه اليوم من التصوف سوى الطنطنة والتميق لهياكل فارغة، كضحكات لا تعبر عن فرح، وسمنة لا تدل على عافية وصحة، فقايع تطير مع أول نفخة هواء واحتكاك حقيقي بالحياة.

التصوف أن تختار لوناً من ألوان التدوين
يتسم بالسعة والرحمة والجمال والحب للنظر إلى
الخالق والمخلوقات. لا يتكبر الصوفي على
عباد الله، ولا يبحث للآخرين عن أخطاء
ليلقي بهم في النار. يحمل الصوفي قلباً
أبيض كالثلج يخفف عن الناس الآمهم. الصوفي
ليس مهرطقاً أو صاحب بدعة أو يبحث عن الشاذ
والغريب فيظهره لك، الصوفي يغوص في
الأعماق بعد أن أدرك الفارق بين الجاري
والراكد والدر والزائف، يحيا قوله "إنك
كادح...فملاقيه" ما يحصل عليه بعد كدح يحاول
أن ينقله إليك ببساطة دون تعقيد. الصوفي

لا يهب نفسه إلا لربه ومحبوبه، لا يبيع نفسه لـ (أنا) متضخمة أو (سُلطة) زمنية مؤقتة بعد أن تعلق قلبه بالمفارق لكل صورة. الصوفي ليس ملاكًا، هو إنسان يغضب ويفرح ويسكن ويتألم، لكنه لا يتاجر بشيء من مشاعره. الصوفي لا يستغل رجلًا أو امرأة حتى وإن سلّم الجميع نفوسهم المتعبة بين يديه وصاروا رهن أمره وإشارته، يحفظ من لجأ إليه ولا يهتك ستر أحد، ولا يتخذ هذا المشرب مطية لاستعباد الرجال واللعب بالنساء. هذا الصوفي إن وجدته فلا تتركه أبدًا، وهو ما يمكن أن يقال عنه بصدق: ماذا فقدَ من وجدك؟!

وماذا وجد من فقدك؟!

معنى أن تكون صوفيًّا: أن تترفع عن العنصرية والعصبية والخصومات المذهبية، وأن تعرف أن شعار "نحن على الحق" الذي يتبعه بالضرورة "ومن سوانا على الباطل ومن أهل الزيغ والضلال" شعارٌ مضللٌ وقاتلٌ لفكرة الإخاء الإنساني، لم يكن الصوفية الكبار وأهل التجارب الإنسانية الثرية يفعلون ذلك! فالحق لم يكلف واحدًا منهم بأن يتحدث باسمه، أو يتكلم نيابة عنه!

شعار الصوفية ليس الحديث باسم ربِّ العالمين، بل الحديث معه والإشارة إليه، أما الله سبحانه فقد تحدّث عن نفسه ووصف نفسه بأنه (أكبر، وأوسع، وأرحب، وألطف) من الفرق والأيدولوجيات ومن كل شيء (قلُّ أيُّ شيءٍ أكبرُ

شهادة؟ قل الله)، أدرك الصوفية القدامى حقيقة أن
"الاختلاف رحمة" وأن كل الألوان وإن تنوعت
في صورها وتمثلاتها فهي موصلة إلى الحق،
يقول مولانا جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي
"فإن أنت وضعت عشرة مصابيح في مكان واحد،
فقد يكون كل منها مختلفاً في صورته عن الآخر.
ولكنك لا تستطيع أن تفرق بصورة قاطعة بين نور
كل منها إذا نظرت إلى نورها. وأنت إذا عدت
مئة من ثمار التفاح، فإن هذه لا تبقى مائة،
بل تصبح واحدة حين تعصرها".

معنى أن تكون صوفيًّا: إن التصوف لا يعني السلبية والتكُّر للواقع! إن سلبية التصوف فكرة مغلوطة، ظهرت بسبب فهم خاطئ لمقولات الصوفية كانت قراءتها بعين المخاصم للتصوف أو المطالع لأدبياتهم بعين غريبة، وبصورة خاصة ما قيل عن التوكل والفناء، فأكثر الصوفية الكبار وأصحاب التجارب على أن التوكل حالة للنفس الراضية التي تسلم قلبها إلى ربها في كافة أمورها، فلا يكون لشئون الدنيا سلطان على القلب يجعل الإنسان أسيرًا لكل طارئ ومتغيِّر؛ فيحوّل بسط قلبه إلى قبض وتوتر دائم، يصرفه عن الأولى والأهم. فالتوكل عندهم لا ينافي السعي في الحياة، بل إن مشاركتهم في الواقع الدنيوي وعلوم عصرهم تؤكد أن السعي مطلوبٌ والطعن فيه خطيئةٌ. يقول القشيري في الرسالة: التوكل محلّه القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب. ويقول

مولانا جلال الدين الرومي: "إن لك يدين فكيف
تخفي أصابعك؟

إن لك ساقين فكيف تجعل من نفسك كائناً أعرج؟!!

معنى أن تكون صوفيًّا: بعد أن كان الإنسان
يضرب خيمته في سمّ الخياط، ولا يجد مخرجًا أو
فكاكًا من حاله، يولي ظهره للعالمين كليهما ولا
يلتفت إلى المزعجات التي لا تنتهي، ليعرج
في مئة عالم جديد، ليتعرّف على كنز
المخفي الغائب، الكنز الذي ينكشف له بألف ألف
وجه بعدد أنفاسه، وعندما يسترد نفسه فلن يأسى

على شيء، فأعظم الأشياء معه، ومن أدرك نفسه
وحاجتها، عرف مقصوده وربّه!

معنى أن تكون صوفيًّا: أن ترجو الخير للبشرية
كلها دون إقصاء لفريق أو مذهب أو جماعة من
الناس، وإن خالف فكرهم ما تؤمن به أو تدعو إليه،
فالصوفي يؤمن بالوحدة ولا يعتقد في التفريق،
البشر جميعًا ينصهرون في جسد واحد، وما
يصيب أحدهم يؤلمه. يدعو مولانا جلال الدين
الرومي للبشرية قائلاً: "يا ربنا! أنزل على هذا
العالم الماء الطهور، حتى تصبح جملة ناره
نورًا". وفي هذا المعنى يقول سعدي الشيرازي

في كتابه حديقة الورد: "بنو آدم جسدٌ واحدٌ، إلى
عنصر واحد عائد، إذا مسَّ عضوًا أليم السقام،
فسائر أعضائه لا تنام، إذا أنت للناس لم تألم،
فكيف تسميت بالآمي؟".

التصوف أن يظل قلبك حيًّا رغم كل ما يحدث لك،
ورغم كل ما تفعله، أن تؤمن بحق قلبك في الحياة
قبل كل شيء!

الصوفيُّ هو المُسافرُ في المَعْنَى!

الصوفيُّ يخلقُ اللغةَ خلقاً جديداً، فهو وإن آمن بالسرمدية والخلق القديم، إلا إنه لا يرضخ لكلمات وعبارات يشملها قاموس المعجميين، فهناك قبل الكلمة حرفٌ، وللحرف ألف ألف معنى، وإن عبَّر الحرف عن صورة المعنى، فهناك من (المواقف) و(المخاطبات) و(المشاهدات) ما لا يُعبَّر عنه بـ (حرف) ولا (مقال)! كـ(لوحة) فنان بديعة عاش صاحبها ما رسمه واقعاً، وصارت رمزاً يحتمل آلاف القراءات من ناظره.

الصوفيُّ هو المشغول بنفسه وعللها وأمراضها، بغية علاجها والترقي بها في مدارج الكمال، شغل الصوفي بكل تفصييلة دقيقة أو أمر فرعي من شأنه أن يعكر صفو حياته، أو يعوق مسيرة تقدُّمه في هذه الحياة، وآمن الصوفيُّ أنه كلما ازداد قرباً من نفسه، اقترب من ربه، وكلما عرف نفسه عرف

ربه، ومن العلم البشري والعلم الإلهي
تتكمّل معارفه بهذه النفس!

شروط التصوف!

حينما يشترط صوفية اليوم شروطاً للتصوف
والصوفي، فاعرف أنهم بعيدون تماماً عن
روح هذه التجربة التي تنفتح على كل واسع ولا
تتقيّد بالقيود التي تتعلق بالأفهام التي هي كل
يوم في شأن، وتحتاج أن تتطور في كل
لحظة. طرح الكبار عنهم كل ما سبق
فانتقلوا من الصراطات المرسومة سلفاً،
وأضحوا علامات فارقة على مرّ الأزمان،

بسبب كونهم عاشوا ما قالوه هم لا بسبب ما ورثوه، سقى الله أيامهم وأبدلنا خيراً، وغيّبنا عن أهل القيود والشرائط.

الصوفي والعلاقة مع الله

عقد الصوفي علاقة مع الله وارتاح وأنس بها. أفكر في طبيعة العلاقة التي يقال إنها بين اثنين لا ثالث لهما عند من يؤمن بالتجربة الصوفية ويسلك وحده ويجري الله على قلبه ما يريد، وعلاقة بواسطة عند من يسلك على يد شيخ صوفي فيذكر الله ويستحضر شيخه لحظة ذكره وكافة أفعاله، فالشيخ بابه للوصول إلى ربه لا يستطيع أن يقوم

بأي حركة أو سكون أو صمت بدونه. في
كلتا الحالتين يعقد الصوفي علاقة مع ربه
المفارق والحاضر.

العفو والغفور، الرحمن والرحيم، الذي
يرضى من عبده الحيرة والغضب والهدوء
والقرب والبعد، ومهما حدث بينهما يظل
الصوفي طفلاً في حجر الحق، وللطفل أن
يتدلل ويتأدب ويبيكي ويصرخ و... ويظل ربُّه
قريباً ومحبباً، وإذا طمع العصاة في ربِّ على هذه
الصورة فطمع المحبين أكثر. هل كان الصوفي
واعياً لهذه الصورة حين عزف عن الزواج
وترك الارتباط بغير محبوبه الأوحده؟! هل
مثل التصوف له لوناً من ألوان الحرية؟!

ما الحاجة إلى التصوف؟ ولماذا التصوف؟!
يمكنني أن أسرد لك جزءاً مما يقوله أهل التصوف عن ضرورة هذا العلم والسلوك للمسلم، وأن التصوف قلب الإسلام النابض، وأن التصوف صنع حياة فلان من العلماء وجعله من أهم فلاسفة المسلمين في الغرب، ويمكنني أن أذكر لك من سير المعاصرين طرفاً يجعلك تتدهش لأن هذا الرجل الكاثوليكي اهتدى إلى الإسلام عبر بوابة التصوف، وأن تلك المرأة اكتشفت الإسلام من خلال نصّ شعري كتبه أحد المتصوفة، وأن أكثر الكتب مبيعاً في البلاد الأعجمية كتب التصوف الفارسي والعربي، وأن مقطعات من ثمار التصوف تتشدها أصوات عذبة ولها حضور في حياة الصغير والكبير والمؤمن والملحد! لكن دعني أقول لك ما أومن به بسبب

حضور التصوف في حياتي أو محاولتي لأن
أكون قريباً من التصوف والمتصوفة، بماذا
أفادني التصوف وأفاد من أعرفهم ممن هم
صوفيون بالفطرة؟

يفيدنا التصوف في إعادة تشكيل نظرتنا
إلى الحياة والدين والناس من حولنا، فإذا
انشغل الناس بفرضية الحجاب وحرمان التلاميذ
من حقهم في رؤية معلمتهم بسبب النقاب، وهل
يحق للممثلة أن تظهر بالمايوه على صفحاتها أمام
الجمهور، لا ننشغل بهذا الزيف والعبث، فكله
غياب وتغيب للبشر في طاحونة الفقاعات التي لا
تنتهي ويُرَاد بهم أن يسعوا كل لحظة وراء فقائيع
تجدد لهم، ويظنون أنهم أصحاب رأي وتفكير
بمجرد مشاركتهم في هذا العبث. يفيدنا التصوف
في عدم التزلف للآخرين، فمن هو اليوم صاحب
عزة وغلبة ومكانة كان بالأمس مهملاً وسيكون

بعد قليل مهما ذاع صيته مهملاً من أقرب الناس إليه، فلا نرخص عطية الرحمان التي وهبنا إياها بالتقرب شبراً إلى غيرنا والانحطاط عن آدميتنا أذرعاً.

يفيدنا التصوف أن نحسن القراءة، فمن كلام من سبق أن الكون كله خيال ولا حقيقة إلا هو! لا نقف على ظاهر اللفظ ونشبت بما توارثناه دون وعي، نتمسك بما مسنا من القول، وما حرّك فينا شيئاً حقيقياً، فالوهم واقع لا محالة لكل شخص منا يشعر ويحيا ويتطور، فكم من لحظة مرّت علينا تمنينا فيها أن يكون كل ما يحدث لنا مجرد خيال من فرط الدهشة أو الألم أو المكابدة، لعل من قال كلمة قصد كذا، لعل مراده كذا، لعلنا نصل إلى كذا، كلمة لعل

وربما، من مقتضيات البشرية، وكما يعلمنا أهل
الفقه واللغة والتفسير والأدب أن نحمل الكلام على
وجوه كثيرة من التأويل ما لم يُقطع فيها بمعنى
صريح، يعلمنا التصوف أن نفتح الباب لاجتهاد
الآخرين ولا نحاكم أحدًا بأفهامنا التي لم تتطور
بعد.

يبلغنا التصوف لحظة انكشاف حقيقي، لا يكون
بيننا وبين أنفسنا حجاب، هذه اللحظة هي الحُجة
التي يقيمها الله على العباد، أنت الآن هنا أمام
نفسك دون قيود أو حُجب، دون ترغيب أو
ترهيب، عليك أن تختار من تكون، عليك أن تختار

البدء في تجربتك معي ومع الناس، أو تختار أن
تدفن نفسك وسط زحام الأجساد، لتكون مع الحلال
أو مع الحرام، لتكون مع يجوز ولا يجوز،
لتكون مع البوح أو الكتم، أنت في هذه اللحظة
تعلن ميلاد نفسك أو تدخلها قبور الآخرين!

التصوف لا يجعلك تهتم بما يقوله فلان من أهل
العراق أو مصر، ولا يريك حدوداً للأوطان،
الوطن كالبيت، والبيت عند الصوفية هو القلب،
والقلب وحده هو ما وسع ما لم تسعه السماء
والأرض، يجعلك التصوف تدرك معنى وطنك
الحق، ومقامك الذي لا يشبه مقام غيرك
مهما خالطه وأنست به، فلكل حاله مع نفسه
ومقامه الذي يبلغه وحده.

التصوف لا يجعلك تزامح حتى في الحرم، ولا تجري حتى لا تفوتك الركعة فتدخل وسط الصلاة ويحمل عنك الإمام ما فاتك من سهو أو نسيان، التصوف يجعلك إمام نفسك في وقت تستحق أن تفيق ولا تكون عبداً لأحد، التصوف كما قال الهجويري ذات يوم، هو الحرية، أن تكون إمام نفسك وتترك جمعك بك وإن فاتتكم الجماعات ولم تكبر مع الجماهير الغفيرة التي لا تنفك عن التكبير، ولا كبير لها إلا من يسجنها ويمنعها من الحياة.

التصوف يجعلك مؤمناً بالله وحده، ومؤمناً بالأمل في الحياة، رغم كل ما يحيط بك من موت، ورغم إعلان المؤذن في كافة المساجد كل لحظة لوفاة رجل أو امرأة، أو باعتلائه المنبر ولو كان صعوده على أجساد غيره، ولو كان بغرض إعلان عبادة الأصنام الجديدة التي نعرفها.

التصوف يمنحك سكينة، لا يجعلك تنتفض أو تعوج رقبتك إذا مرّت امرأة جميلة ثم تنظر لها من تحت نظارة قلبك السوداء، أو تأكل لحمها بحديتك

مع غيرك عما شاهدته اليوم من فتن، يجعلك
التصوف تبتسم إن رأيت ما يسعدك، ولو كانت
امرأة جميلة، فليس كل نظر مصحوب بشهوة
وانتفاض جسد وإشراف على قضاء اللذة، لو كنت
سويًا لشاهدت الجميل وحمدت الله على أنك رأيت
ما يسعد، وشكرت الله أن يومًا بدأ بهذه
الابتسامة وهذا المشهد الجميل. بعض الصادقين
كان من الجمال أن قال: لو استوى في قلبك أن
النظرة للجميلة كالنظرة للطبيعة بجمالها،
فنظرتك هنا واجبة لا مباحة أو مندوبة فحسب!

التصوف يجعل نفسك تعزف عن حديث المعازف
أحلال هي أم حرام، يجعلك التصوف ترى أن
الموسيقى لغة من لغات الله التي لا تحصى

ولا تعد، فالله يتكلم عبر كل شيء، وقد قال لك في كتابه: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَتَفَدَّ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (الكهف: 109) فبأي لغة تكلم الله وهل كلامه قديم أم حادث؟ وهل الكلام نفسي وهل له مستوى بشري ومستوى إلهي؟! لك أن تهتم بالمعارف وتتحدث عن النهي والإباحة للمعارف، لكن قلبك لن يصبح قلب عائش وعارف إن ظل همك ما ورثته من كلام الأقدمين، ولم يكن لك مع الله وقتٌ يخصك وحدك، ولا يسعك فيه غيرك أنت وربك.

حاجتنا إلى التصوف اليوم حاجة لحياة قلب أماتته الوراثة، وغبش عليه غبار الأفواه ومنعه من أن يفيق من رقدته الطويلة، ليحسن إلى نفسه وينفعها وينفع من أراد الحياة!

التصوف منجم زاخر بالكنوز ما أعتقده أن
التصوف منجم هائل يمكن أن نبيّض به وجه دنيانا
اليوم، وأن نجعل الشمس تسطع كل لحظة في هذه
الظلمة الممتدة. التصوف كأفكار تفجّر
طاقات إبداعية حجّمتها الظروف والأحوال،
وقياساً عليه يمكن أن نقول:

إن سعيد مصر منجم هائل لم يكتشف بعد،
وللأسف هو كالتصوف إن أردنا أن نتعرّف
عليه، فعلىنا بالدراسات الأعجمية لا العربية،
لأن الكل يهرب من الجبال والأودية لينتقل إلى

العواصم فيدرس السطور الجافة ولا يحاول
الوصول إلى القلوب التي تود أن تحيا.

طلب المزيد في التصوف تلزمك محبتك لأمر ما
على طلب المزيد منه، فالمحب لا يشبع من
محبوبه، إذا طالع صورته يود أن يبصر جسده، أن
يلمسه، أن يحس قدر شغفه به ورجائه
وتمنيه، هذا ما أبحث عنه وأطلبه في
التصوف منذ أن قنعت به باباً لعلاقتي بالله.

أوهام تحول دون التحقق والله لو طالع الناس بحق^{١٤}
مصنفات التصوف وتتبعوا سير الصالحين بحق
وتمهلوا قليلاً، لما وجدوا حولهم من يمكن اعتباره
صوفياً! إن بلادنا العربية بلاد أزمت عقلية قبل أن
تكون بلاد أزمت أخلاقية واجتماعية
واقصادية، من الصعب أن يصمد فيها أحد دون
أن تخترقه الأوهام، وهم الوعي الكامل، وهم
القطبية، وهم المهدية، وهم السلطة، وهم الوصول.
من الصعب أن يتهم نفسه بعد أن تمنحه الجماهير
مكانة، من الصعب أن يتنازل عن صورته، من
الصعب أن يطلب من الناس أن يقوموا سلوكه، من
الصعب أن ينتج جديداً مبتكراً، من الصعب ألا
يخوض في سير الآخرين، من الصعب أن تطلب
منه مصدراً لكلامه وهو يظن أنه يطالع اللوح
المحفوظ!

الصراطات المتعددة

صراطُ الصوفيِّ طريقه وطريقته (والطرائق إلي الله بعدد أنفاس الخلائق) فالصراط صراطاتٌ لا صراط واحد!

وصراطُ الصوفي رقيقٌ كالشعرة، من الصعب ارتقاؤه لغيره دون محاولة وإقبال ودربة! ميزانه هنا ليس كفتين ترجح أحدهما على الأخرى، فهذا خير وهذا شر، بل قلبٌ نابضٌ مشتعلٌ يُراد به الاحتراق حتى ينضج، جنَّته الإقبال.. هو في لقاءٍ دائمٍ مع من رغب إليه الصراط، تحيته ليست

بالحرف ومكافأته تستعصي على الفهم ورزقه
أوسع من الحصر!

ما يحدث الآن: أنك ترى من يدعون أنفسهم
صوفية على عكس هذا السلوك، فعقيدتهم هي
العقيدة القويمية، وعقائد الآخرين مخالفة لصحيح
الدين! هم على الحق وغيرهم على الضلال، هم
من يعرفون الله حق المعرفة وغيرهم مشبهون
ومجسّمون وعقائدهم فاسدة، ويجب التنبيه على
ضلالهم! إذا كان من الصوفية القدامى من نأى
بنفسه عن هذا السلوك، فأولى بك ألا ترى
التصوف بعيون هؤلاء، وتعرّف عليه من خلال

تجربة إنسانية حقيقية لم تتعصب أو تتحزب ضد
فئة من البشر، بل تسعى لكل باسطة يدها أن
"تعال تعال، لا يهم من أنت ولماذا أتيت"!

مع الجماهير الصوفية!

ركزت مع الجمهور المسلم (الصوفي الهوى) الذي
استمع إلى كلمات مؤتمر اليوم،
واستمعت إلى أغلب كلمات
المحاضرين، كانت أغلبها مجرد كلام لا
يشبع أي روح عطشى للجديد، باستثناء كلمات
قليلة غلب على بعضها العظة، والبعض الآخر
اجتهد لتقديم مقاربة جديدة لتأويل بعض الآيات

القرآنية. سجلت بعض ملاحظات حتى أنتفع بها،
وأسلمت قلبي للذي قال نثرًا صوفيًا وشعرًا،
حتى ينتفض جسدي كما انتفضت السنة البقية،
خرجت لأكتب فقرة تعبر عما دار في رأسي من
خواطر، لكن أهم شيء تأكد عندي: أن ما يؤسس
عقائد الجماهير هنا لا علاقة له بجديد أو تفكيك أو
تأويل حديث، لا أحد يريد أن يفكر أو يسأل أو
يبحث أو يناقش فكرة ما، معركة الحياة أثقل من أن
تحمل أحدًا هنا أو تبعته من هذا الرقاد، وهو إن
أراد أن يحيا لن يساعده أحد، فأغلب الفاعلين في
الحياة الثقافية في حاجة ماسة إلى من يصارحهم
ويقومهم ويعلمهم آداب الحياة كإنسان وآداب
العالم والمتعلم، ويأخذ بأيديهم ليتخلّقوا قبل أن
يتعلموا، ولن يرضى هؤلاء أن يعترفوا بتقصيرهم
وقلة ما لديهم من معارف وأخلاق.

يراقب الناس كل شيء هنا، لكنهم يدبرون عن كل ما يرهق حواجبهم أو خصلات من شعرهم، ويقبلون بفرح وسعادة تكلفهم مالاً وجهداً على كل مشهور ولامع، يشدون الرحال إليه ولا يقصرون في حقه، فصورة مع مشهور بالدنيا وما فيها، وقد تحل عقد النفاثات وتفك الطلسم وتجلب المسرات، وركعة معه وحضرة وتسييد لطفل لم يبلغ الحلم تجعل المرء ينام مطمئناً، هذا السلوك هو ما يجعل الدعاة الجهال يركبون على ظهور ملايين البشر ويحركونهم كعرائس متى شاءوا وأينما شاءوا، وهو ما يجعل المتدينين بالملايين، والمؤمنين قلة؛ (قالت الأعرابُ آمناً ^طقل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) (الحجرات: 14) السائد هو السائد وهو المؤسس والمحرك ولن يتغير شيء هنا!

المذهبية والحجاب

قرأت بحثاً قبل فترة عن النقشبندية، كانت المعالجة فيه لموضوع البحث مفيدة للغاية، لكن سطرًا من سطور البحث تسرّبت من خلاله روح المذهبية التي يعتنقها كاتبه، لو لم يفعل ذلك لكن آية من آيات الجمال. ومؤخرًا أنهيت قراءة بحث لكاتب إسماعيلي عن الشعرية والتجربة الدينية، استفاد فيه من المدرسة التقليدية التي تتبع روحانية الشيخ الأكبر والشيخ عبد الواحد يحيى رينيه غينون- استفادة عظيمة، وكتبه بلغة مبسطة استطعت من خلالها فهم كثير من المعاني ومدراستها، ولعلي أستفيد من نهجه في كتابة

ورقة عن التصوف من خلال منظومات أحد الشعراء المشاهير.

ظل الكاتب أميناً على قراءة المواد التي بين يديه طيلة الكتاب وما تعصّب لأحد من رءوس المذهب، حتى أتت سيرة السجستاني الإسماعيلي، ففتر نقده قليلاً وأبدى إعجابه بشخصه، فالسجستاني من كبار شخصيات المذهب، هذا السلوك وإن كان معيباً بالنسبة لي، فهو بسيط للغاية إذا ما قورن بما نطالعه اليوم في العالم العربي من قراءات تتبع التقاليد والأيدولوجيات المفروضة عليها أو الموروثة، والتي يروّج لها أغلب الكتّبة، يستوي في ذلك المعبرون عن كافة أنماط التدين والمعالجات التي تصف نفسها بالعلمية.

لكن ما هو أسوأ من ذلك تقييد العام والمتعالي عن كل هذا اللغظ بمذهبية معينة، أو النزاع من أجل احتسابه على فريق الدعاة والباحثين الفقراء، يفعل هؤلاء الكثير من الأخطاء، كأن يحذفوا فصولاً كاملة من كتب أو يبتروا مقدماتها، أو يحرفوا الكلم عن أصله بشرح أو ترجمة فاسدة، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى.

السلفيون الجدد

أنا لا أحب السلفيين الجدد، ولا أجد راحة قلبي معهم، لكن الحق يقتضي ألا أحمل عليهم، أو

أنشغل بهم، فالقاعدة التي تعلمتها أن المشغول لا يُشغل! فكيف أنشغل بما لا يسعد قلبي ولا يتم حياتي؟! إن انشغلت بأفكارهم سلبيًا أو إيجابًا غبت عن حياتي، وهذا هو الحرام والمهلك.

يقتضي الحق ألا أحمل هؤلاء وحدهم سبب دمار العالم وتخلفه، فالسلفيون الجدد لا يختلفون عن الصوفية الجدد إلا في القشرة وبعض الأحرف التي تتحرف بحياة الجميع نحو ما لا يراد لهم ولم يخلقوا من أجله، إذا اعتبرنا أن لكل إنسان حقا في أن يدين بما شاء ما دام لا يفسد على الآخرين حياتهم، فالمسميات لا تهم كثيرا، فالكل في النهاية يجمعهم جسد الإنسانية.

لو أننا ندرك معنى التسامح وننشر ثقافة الإخاء والمحبة والتعددية، لتعلمنا ألا نهمل رؤية أو نحمل على فريق وأن نتسع قلوبنا للجميع. أحد الآباء

الكاثوليك قال لي يوماً بمحبة: أنا أدعو للجميع ولا أفرق بين أحد، وأصلي لمن يقتل قبل أن أصلي لمن يغفر ويسامح، لكن أغلبنا لم يتعلم في حياته سوى الإقصاء والاقتصارية.

الصوفيون والسلفيون

كانت لي تجربة في تصوير حلقة في برنامج تلفزيوني، كان موضوعه الصراع الصوفي السلفي، اشتهر مقدّمه في أيامنا هذه بهجومه، لا بمناقشته لكل فكرة تنتسب إلى السلف، تظل هذه التجربة معبرة عن تناول الإعلام العربي لأي قضية من القضايا المطروحة على

الساحة، أفكار مسبقة، ولا أحد يبحث أو يقرأ أو يفتش، فكيف يمكنه أن يسلط بعض الضوء على مشكلة فضلاً عن أن يساهم في علاجها، الكل يبسط ذراعيه في محيط الهوس!

تصوف النساء

إن طبيعة عنوان كهذا تؤمن بالقسمة والتمييز بين جنسين، ذكر وأنثى، وتحدّد لكلّ جنس منهما لوناً يختصّ به ويميّزه عن الآخر. ويُفترض أن الخطاب في الدين موجّه للرجال وللنساء، هنا عبّاد وزهّاد، وإلى جوارهم أو يسبقنهم نساء صالحات عابدات قانتات.

إن قراءة ما سجّله بعض العلماء من أخبار النساء يجعلك تدرك أنّ فارقاً كبيراً بين فهم النساء اليوم للتصوف أو محاولة الولوج إلى هذا العالم الصوفي وبين سلوك النساء قديماً، كما هو الشأن مع فهم الرجال اليوم للتصوف، لكل وجهة هو موليها، يبتعد فيها بالطبع عن القديم، وإن ظنّ أنه مقترب، وبالسلف الصالح مقتداً!

السيدات بالأمس كرابعة وأخواتها، مصليات خاشعات، بكاؤهن يفوق الحدّ، يُحدث البكاء علامة في وجههن، مصليات طوال الليل وأطراف النهار، صوامات لا يفطرن تقريباً، لا يطلبن المال مهما كانت الظروف قاسية، ربما هذه هي الصورة المشهورة لهن، لكنهن أيضاً يتحدثن بما تظنّه مسلمة اليوم شركاً! إحداهن تريد أن تطفئ النار، تحمل بعض الماء مسرعة فيسألها أحدهم إلى أين تذهبين؟

تجيب: "أريد أن أطفى النار".

فعلهن يدلُّ على شفقة ورحمة الأنثى بمساكين أهل الدنيا، إحداهن تصرِّح في حديثها مع ربِّها: "أما كان لك عذاب أقوى من النار، أما كان لك من سجن لمن عصاك سوى جهنم؟!".

لم يكن المجتمع الإسلامي منغلَقًا كما يصوِّره أهل التدين الظاهري اليوم، وكما تفعل بعض البيوتات تبعًا للعادات.

كانت السيدة العابدة المتدينة القانئة الذاكرة لله تستقبل الرجال، تسمعهم، تجادلهم، تؤدِّبهم، تعلمهم، تبدِّل وجهتهم، حتى إن وُجِّهت بنقد سطحي من مثل: كيف تخالطين الرجال؟

لسان قلبها ينطق: كيف يذنب المرء في عمل الله؟!!

إحداهن كانت سبباً لأن يبتهل أحد المتصوفة الكبار من النقشبندية إلى ربه، أن يجعله لا يفرّق بين رجل وامرأة اعتماداً على صورة الجسد وطينته، فنور الروح لا يؤنث ولا يُذكّر، فعَلَ هذا الصوفي الملا عبد الرحمن الجامي بعد أن قرأ حكاية لسيدة صوفية من مصر، أوردها اليافعي في كتابه روض الرياحين، واستطاع في ديوانه الشعري (سلسلة الذهب) أن ينظم من هذه الحكاية عقداً لؤلؤياً جميلاً.

كلّ هذا قد يكون جاذباً أو مجالاً للإعجاب بحضور النساء (قديمًا) في المجتمع الإسلامي وعلو مكانتهن، لكنه سرعان ما يتحوّل إلى أسطورة اليوم، إذا لامس الواقع أو قيس عليه، فالصلاة المنتظرة بحبٍّ ورغبة عارمة للوصول إلى حضرة رب العالمين أضحت طقساً اعتياديّاً لا روح فيها، وإن كررت بفعل (الفرائض

والسنن المتبعة) فلم تنتج ممارستها عابدة تحفر في قلوب العباد حفراً لا يُنسى، أو تشكل طينة قديمة أو تعيد تخليق ما لوّثته المعارف السرطانية! وكذلك الصوم، وفكرة أن تزهد امرأة في المال أو الزواج أو الجنس أمر يشبه العثور على الكبريت الأحمر، الأمر لا يتعلّق بالمرأة فحسب، فالمرأة والرجل سواء في ذلك، والنموذج الوحيد الذي نرى فيه ما نقرأه في الكتب هو نموذج (الأم- الجدة- الجهال!) وهذا النموذج هو ما نحاول اليوم قدر الإمكان- الابتعاد عنه لإثبات الذات وإعلانها!

اعتادت الأم البسيطة في الريف وفي أقاصي الصعيد في مصر على أن تبدأ يومها قبل الفجر، تصلي وتكثر من الدعاء، ولا يصيبها ملل أو يتسرب إلى قلبها يأس أو قنوط، الأم تفعل ذلك بصدق وأريحية، في بساطة لا يمكن أن تراها

عند أكثر (السالكات) اليوم، فمن أراد أن يكتب سير السالكات والمتصوفات، لا يحتاج إلى أن يرحل إلى جبل لبنان أو الهند أو تركيا أو يتفقد الصحاري، ليعثر على عجوز مجهولة تتحدث مع ذي النون المصري، أو يتتبع صفة الصفوة لابن الجوزي، فالعزيم المفقود في حديث (التوير) و(التراث) سهل وقريب المنال، إن تأملنا ما حولنا أكثر.

يقول مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (فيه ما فيه):

عيني تنظرُ إلى شخص آخر! فماذا أفعل؟ لَمْ نفسك
لأن ضياءها أنت!

أخبار النساء

تعجبتُ وأنا أقرأ أخبار بعض النساء الصوفية في كتاب صفة الصفة لابن الجوزي عما يقال عن الرجل وعن كونه معاديًا للتصوف، اعتمادًا على ما كتبه في كتابه الشهير "تلبيس إبليس" من نقد المتصوفة وأحوالهم، يظل هذا الكتاب حاضرًا في الأدبيات الإسلامية حتى يومنا هذا، كشوكة في حلق المتصوفة! حتى أن شاعرًا ومفكرًا بحجم محمد إقبال صاحب تجديد التفكير الديني في الإسلام أراد أن يعيد كتابة تلبيس إبليس، بصيغة معاصرة لينقد متصوفة عصره. إن التفاتة الغربيين إلى كتابات ابن الجوزي لا تقتصر على تلبيس إبليس، كما يفعل عوام المتقنين في بلداننا، فيوجّهون الاتهامات ويطلقون الأحكام بناء على نصّ تاريخي، بل استفادوا

من كتاباته الأخرى التي تصبُّ في صالح (تاريخ
التصوف) وتعيد بناءه، يشار هنا على سبيل المثال
إلى كتابات جورج مقدسي التي أضحت متوفرة
بفعل طوفان الترجمة العربي، وكتابات روث
رودد!

وقد استفاد من إحالاتهم على ابن الجوزي غير
واحد ممن درس التصوف، من أمثال مؤمنة بشير
العوف في كتابها (أبو الفرج بن الجوزي
والتصوف السني) وسامي مكارم في كتابه
(عاشقات الله)، لكن ذلك لم يصل بعد إلى الجمهور
المسلم، سواء في ذلك خصوم التصوف
أو المحبين المدافعين عنه، وكذلك جمهور كبير
من المثقفين العرب!

روحي أنثى

من احترق قلبه عشقاً ومحبة لله، لا يخاف من نار أو يرغب في ملذة أو جنة، تماماً كما يحدث في حالة الحب الإنساني الخالص، كلاهما نادر وعزيز نُدرة مريم وفاطمة. نتعرف على مثل هذه الأفكار حينما نقرأ للسيدة أنا ماري شيمل كتابها (روحي أنثى)، الفرق كبير بين العين المبصرة لثراء التجارب النسوية الصوفية في الإسلام حينما نقرأ لشيمل ونقرأ للأساتذة الكاتبات في الموضوع نفسه من قلب الإسلام. هي تدرك تماماً تاريخ التهميش للمرأة، لكن دون أن تندن كثيراً بهذه الاصطلاحات، لا تجعل نصّها رد فعل أو سجلاً بينها وآخرين، بل تبدأ فعلاً جميلاً ينم عن صبر ومثابرة وحسن مطالعة وذائقة في الاختيار، فتكون روح الأنثى حاضرة أمّا ومربية

ومرشدة ومتفوقة على الرجال الكبار، فيظهر
ذو النون المصري كطفل بين يدي عجوز
حكيمه، والشيخ الأكبر يصبح ياقوتة قلب
أمه فاطمة، وينفخ الملاك الغائب في قلب الرومي
فينشد أن المرأة خلاقه لا مخلوقة.

جميل جدًا أن تسرح روحك مع روح طيبة
تبحث عن الجمال في كل البقاع، وتتنقل لك
صورًا يصعب عليك الحصول على جزء منها،
وتربط كل هذا ببعضه، لتتجسد أمامك صورة
مشرقة للأنثى الصوفية، أمًا كانت أو زوجة أو
عمة أو مرشدة أو ابنة لأحد الصوفية المشاهير،

فعلت هذا أنماري شيمل في كتابها (روحي أنثى) فمن أراد أن يتعرّف على صورة المرأة المسلمة، فليطالع هذا الكتاب، وهو متوفر في ترجمات عدة. وأقتبس هنا جملة من دراستها، تقول أنماري شيمل: "على الرغم من تأرجح موقف الصوفية من المرأة إلا إن نشاطها، والحق يقال، قد حظي في ميدان التصوف بالتشجيع والتأييد أكثر مما حظي به في مجالات الإسلام الأخرى. إن رافة النبي الكريم بالمرأة، وزيجاته المتعددة، وحبه لبناته الأربع، حالت دون شيوع نظرة الاحتقار التي سادت الرهبانية المسيحية في العصور الوسيطة، كما أنّ الاحترام والتبجيل الذي تسبغه الأوساط الشيعية على فاطمة، رضي الله عنها، إن انطوى على أمرٍ، فما ذلك الأمر سوى أهمية الدور الذي يمكن أن يناط بالجنح النسائي في الحياة الدينية الإسلامية".

كلمة رجل

في ثقافتنا كلمة تطلق على الرجل والمرأة. كانت إحدى النساء الطوسيات تقول: عندما ينادون غداً في ساحات القيامة: يا رجال. فإن أول شخص يخطو في صف الرجال هي مريم عليها السلام! وقد علل فريد الدين العطار، العارف الفارسي ذكر رابعة العدوية ضمن الرجال، بأنه طالما كانت المرأة رجلاً في الطريق!

التفسير الصوفي للقرآن

يكون للمرأة زوج وطفل رضيع، لكل منهما نصيبٌ مختلف عن نصيب الآخر: فالطفل لذة في ثديها ولبنها، وللزوج لذة منها. بعضُ الناس أطفال في الطريق؛ يجدون لذة في المعنى الظاهر للقرآن ويشربون ذلك الحليب. أما أولئك الذين بلغوا مرتبة الكمال، فلهم لذة أخرى وفهم آخر لمعاني القرآن. هذا درس من دروس مولانا جلال الدين الرومي.

أن تعلم من أنت!

نعى سنائي الغزنوي على أولئك الذين
يظهرون الصلاح والتقوى ويشار إليهم
باعتبارهم دراويش ومشايخ وأولياء، وهم
طلاب جاه ومال ومن الأخلاق فارغون
"وفي حقيقتهم بخلاء كذبوان" كثيرو
الكلام قليلو المعرفة "منافقون خونة" لم يجدوا
قط رائحة التقوى، وهم إن عرفوا بعض المعارف
إلا إنهم تحت الأثقال أذلاء كالحمير!

إلى مثل هؤلاء توجّه شمس تبريزي بنصحه قائلاً:
كن في قيد أن تعلم من أنت؟ وما جوهرك؟ ولماذا
جئت؟ وإلى أين تذهب؟ ومن أين أصلك؟!

تصوّف النساء في مصر!

سمعتُ عن جمعية أسست للنسوة المتصوفات في مصر، فاستبشرت بالخبر، وأردت أن أتأكد من وجود هذا الكيان، وبالفعل وجدت مقرًّا لهم في القاهرة، ذهبت إلى المكان فوجدت رجلاً وامرأة يستأجرون شقة مشهّرة لهذا الغرض، ملامح المكان لا تعبر عن أي حياة مادية أو روحية، فالأتربة تغلف كل شيء، الدفتر المقيد فيه عدد مريدي الطريقة، سند الطريقة، اعتماد الطريقة من المجلس الأعلى للتصوف، الأتربة تصعد على الأحرف التي ينطق بها الرجل، وصمت المرأة لا ينفض التراب، حدثني الرجل عن كل شيء باستثناء التصوف!

كان كلّ حديثه مدحًا لحاكم البلاد وسياسته التتموية ودور الطريقة في دعمه، ابتسمت لكل ما قاله حتى أنهى حديثه، ثم وجّهت الخطاب لامراته،

وصنعت لنفسي كوبًا من الشاي، شربته أنا
وبعض النمل الذي لا يوحى إليه، لسجنه في علبة
السكر.

سألتُ المرأة عن تجربتها وعن أثر التصوف في
حياتها، عن أوراها، منتظرًا أن يغرد البلبل، لم
تقل السيدة أي شيء، لا تعرف السيدة حتى من
هي رابعة العدوية، لم تر فيلم القديسة نبيلة
عبيد التي انتشلت التراث من الغرق! خرجتُ
باسمًا كما دخلت، وحمدت الله أن التدخين مباح في
ذلك المكان.

لا مشكلة لدي في فقر هؤلاء، فثراء
الطيبات حول المقامات وأمام طاسات الزيت
وفوق عجلة الأنابيب وخلف آنية الجبن
والبيض، أغناني وأسرنني أكثر ممن يعدون
أنفسهم صوفية رجالًا كانوا أو نساء، ففي الطريق

لا فرق بين الجنسين، وفي الأوهام لا فرق بين
شبح مذكراً كان أو مؤنثاً. المشكل في وضع
الإنسان نفسه في مكان غير مطلوب منه أن
يسجن نفسه فيه، وأن يدمر ثقة الآخرين بفعله.

اللون الأخضر العزيز

قبل فترة رأيت سيدة ترتدي حجاباً لونه أخضر،
عادة ما يكون الحجاب حاجباً لي عن أي حديث أو
تواصل حقيقي، سواء كان قطعة من القماش أو
شكلاً من أشكال التعامل أو وسيلة يستخدمها
الذكر قبل الأنثى في إخفاء ضعفه وهشاشته،

فلا أبادر أحدًا يرتدي حجابًا أو قناعًا بحديثٍ أو بطلب.

يذكرني اللون الأخضر بالباب المفتوح على الطبيعة، التي لا نعرف عنها إلا القليل، يذكرني بالسماء التي تجعلنا نتنفس بقدر اتساعها، وإن عشنا في مكعب محدود، رؤية هذا اللون أسعدني وذكرني برداء السادة الصوفية النقشبندية وتحديداً الأتراك منهم، ربما لأنني التقيت بعضهم واستمعت إلى القرآن منهم، كأنه نصٌّ حي هبط من السماء ونحن بجوار مقام أحد أنبياء بني إسرائيل، ربما ارتبط اللون بحياة قلوب بعض المنتسبين إلى الطريقة من البرازيل ولندن، كانوا يتحدثون عن "إسلام" لم أراه من قبل، وتترجم أفعالهم ما يقولون وأكثر، وللمفارقة يرتبط اللون الأخضر معي باللون الأسود، الأسود إعلان للاستسلام لمراد الله - لمراد

الشيخ- لطبيب يعرف كيف يميت ما يستحق الموت، ليولد ما تفرح به الحياة وتعلن باللون الأخضر فرحها به.

رمزية الحروف

الألف الرمزية التي تشير إلى الله، كإصبع المؤمن التي ترتفع من رقاد اليد واستسلامها مشيرة إليه سبحانه، هي أول الأحرف وأثبتها، كعمود أوله في السماء وسهمه متجة إلى الأرض، تمايلت هذه الألف حناناً ورحمة من لدنه، فصدر عنها حرف الباء، ذلك الذي يشبه الوعاء الحامل لكثير من الأشياء، تحت

الباء نقطة، شبّه المحبون لعلي بن أبي طالب
شخصه بالنقطة، وشبّه الشبلي الذي رمى الحلاج
بوردة نفسه بالنقطة، فأمثال هؤلاء كانوا في حال
وصال مع الحق ونزّهوا الحق، لكن المثل الأروع
لتجلي النقطة وصلتها بالحق تتجلى بالنسبة إليّ
في شخص المسيح عليه السلام وحكمته وتعاليمه
الروحية!

صوفية يأمرون بالقتل!

فكّرتُ قبل فترة أن أكتب عن التصوف والتطرف،
وبالفعل كتبت ورقة مطوّلة عن هذا
الموضوع، اخترت فيها شخصية صوفية

مصرية شهيرة، اعتمدت في كتابتي على أحاديثها وتصريحاتها المتعلقة بالسياسة والتي كانت ولا تزال مثار جدل واستتكار من كثير من المصريين، حتى صار عنوان الورقة عندي (صوفية يأمرون بالقتل) ثم هدأت المشاعر قليلاً وأخذت أقرأ المشهد من بعيد بعين لا تنتمي قدر الاستطاعة إلى المؤيدين أو المعارضين، فوجدت أن نفس الشخصية تستحق أن يتابع الإنسان عملها بشكل عام ويعيد تقييم ما كتبه بخصوصها، فمحوت كل ما كتبت، وبدأت أتابع أحاديث الشيخ الصوفي، وأعماله، ونشاطه -رضي عنه من رضي وغضب منه من غضب- لا يهمني الرضا أو الغضب، بل يهمني أثر هذا الشخص في الواقع، وهو أثرٌ لا يُنكر، مهما خاصم الناس الرجل أو ضربوا صفحاً عن أعماله.

يظل الرجل يعمل ويؤثر ويُكثر المريدين من حوله، وينتقل من الشرق إلى الغرب، وينشر أفكاره ويتابع نشاطه فيما يتابع المخاصمون الاستتكار والشتم فحسب، لذا فإن دراسة موضوعية لعمل الشيخ تقتضي من الباحث تفرغاً وأناة وصبراً، لم تعد هذه متوفرة في بلاد الشرق!

شيخ آخر ابن لعائلة صوفية ووراث للمعرفة الصوفية ومشارك في إنتاجها، يقدره أهل الغرب قدره ويعرفون دأبه ونشاطه في طلب العلم ونشره وتثقيف جماعات تقدر بالآلاف والملايين تبعاً لفهمه للإسلام، تم اختصار الشيخ في بعض المواقف السياسية وحمل الكثير من مصائب المصريين، والرجل بعيد في حياته وسلوكه عن كل ما يثار حوله، إن قرر الباحث أن يكتب عنه لا يتجاهل فترة التكوين ولا يتجاهل المعارضة الجارية في شأنه،

لكن لا يختصر رحلته في هذا أو ذاك، بل عليه أن يتابع كل ما قدّمه ويعيد قراءته ويقيّمه تبعاً للمعرفة والعلم لا الأهواء.

نسب ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم إلى عبد الرحمن بن مهدي مقولة تصلح قاعدة من قواعد البحث جاء فيها: "أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم".

أعجبنى جداً أن بدأ الأستاذ عبد المجيد الشرفي أحد فصول أطروحته في الرد على النصارى بهذه القاعدة، التي أوصلته في بحثه إلى تساوي الحجج الجدلية عند المسلمين والمسيحيين على حد سواء فيما كتبوه في هذا الفن، لكننا نمرّ على كثيرٍ من الأقوال ولا تلمس قلوبنا أو تساهم في تشكيل عقولنا. من

الصعب جدًا أن يتجاسر العقل في إصدار حكم على طائفة بعينها، ومن الغبن أن نصمهم من لم نعرفهم معرفة جيدة بأوصاف مكررة تبعًا لما يفرضه علينا الإعلام والسياسات. العقل أمانة والأمانة هي ما يميّز الإنسان!

حديثٌ حياتيٌّ

وأنا أراقب لون السماء والماء، وأحاول أن أغسل عيني، تذكرت حديثًا نبويًّا جميلًا ومسعدًا للروح: (النظر إلى السماء عبادة). حديث آخر ليس نبويًّا وإنما حياتي، يعبر عن واقعنا المتوتر والمزعج، سأسرد جزءًا منه هنا:

تابعت اهتمام البعض في بلداننا العربية بالتصوف، كنت سعيداً بإقبالهم، ولو صورة، على التعرف على أدبيات التصوف، وشعرت أنني فعلت شيئاً بمحاضراتي عن التصوف في بلدان الخليج وبصورة خاصة في أوساط الشباب، لآمني بعض المقربين أن ما يطرح من أفكار يعاد بنفسه إلا وهو واقف بباب داره بمصر، فأقام مدة ببيته لا يخرج منه لما جرى له مع سيدي أحمد البدوي!

بعض الأفلام السينمائية في الغرب تجسّد مثل هذه الصور الانتقالية بالجسد، وتصنف ضمن فئة (الخيال العلمي)، حينما نقرأ خبراً كالخبر السابق تتداعى إلى أذهاننا صور شتى مما نشاهدها، ونحاول أن نعيد رسم المشهد، فالشيخ يصلي الفجر في مكة والعصر في القدس والمغرب في جزيرة لا حدّ لها، ويلتقي بأنبياء وأولياء يأمهم

في الصلاة، ويحرر السجناء، يقهر كل شيء،
ويؤمن محبوه أنه قادرٌ على فعل كل شيء!

الرحلة الصوفية

الرحلة والسياحة في الأرض أمرٌ هامٌ يعيد تشكيل حياة الإنسان، الرحلة من كون إلى كون لا تقتضي أن يغادر الإنسان وطنه ما دام لا يملك الأسباب لذلك، رحل بعض الصوفية وطافوا جميع البلاد وأجسادهم في بقعة معينة لم تغادرها، كانت أرواحهم تطوف كطير خفيف، لا تحجبه حدود ولا تزعجه مسافات، ومن هنا أثرَ عن بعضهم أنه من (أهل الخطوة)، وقد سجلت كتب الطبقات التي تعنى بتاريخ الأولياء لقاءات بين ولي وأحد من أنكروا عليه طيّه للمسافات، من ذلك ما يروى

عن سيدي أحمد البدوي -كان ولا يزال مقامه
المكاني في طنطا إحدى محافظات مصر- أنه قد
أنكر عليه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد -قاضي
القضاة بالديار المصرية وقتئذ- بعض
أفعاله وأحواله، فدفعه دفعة، فوجد نفسه في
جزيرة واسعة، لم يعلم لها طولاً ولا عرضاً، فأقبل
يلوم نفسه ويعاتبها وهو ذاهل العقل غائب عن
الصواب، حتى التقى في تلك الجزيرة بسيدنا
الخضر -عليه السلام- فنصحه بالتعلق بسيدي
أحمد البدوي، وأنه سيأتي بعد قليل ليصلي العصر
هنا!

فأتى السيد البدوي - كما تقول الرواية- وصلى
العصر في تلك الجزيرة، ثم تعلق الشيخ ابن
دقيق العيد بأذياله، وكشف رأسه وجعل يقبل يديه
ورجليه ويبكي ويستغفر ويعتذر، فأقبل عليه سيدي
أحمد البدوي، وقال له: "ارجع عما كنت فيه ولا

تعد إلى مثله". فقال له: "السمع والطاعة يا سيدي". فدفعه الشيخ دفعة لطيفة وقال: "اذهب إلى بيتك فإن عيالك في انتظارك". قيل فلم يشعر ابن دقيق العيد بنفسه إلا وهو واقف بباب داره بمصر، فأقام مدة ببيته لا يخرج منه لما جرى له مع سيدي أحمد البدوي!

بعض الأفلام السينمائية في الغرب تجسّد مثل هذه الصور الانتقالية بالجسد، وتصنف ضمن فئة (الخيال العلمي)، حينما نقرأ خبراً كالخبر السابق تتداعى إلى أذهاننا صور شتى مما نشاهدها، ونحاول أن نعيد رسم المشهد، فالشيخ يصلي الفجر في مكة والعصر في القدس والمغرب في جزيرة لا حدّ لها، ويلتقي بأنبياء وأولياء يأمهم في الصلاة، ويحرر السجناء، يقهر كل شيء، ويؤمن محبّوه أنه قادرٌ على فعل كل شيء!

التصوف في قلب السلوك

الزهد والتصوف في كل شيء، الصلاة في ذاتها زهدٌ وانفصال عن الدنيا للحظات تطول أو تقصر، ومحاولة للاتصال بالخالق الذي تبدأ الصلاة معه بإعلان "الله أكبر"، الصوم زهدٌ بالانقطاع عن الشراب والطعام والجنس وقتاً، الحجُّ زهدٌ ورهبانية واضحة الصورة، بداية من لباس الحاج وصمته عن الحرام والمدنس وامتناعه عن كل ممارسة مرغوبة كالجنس، وتنازله عن زينته وحلقه لشعر رأسه، الزكاة زهدٌ ببذل المادة في سبيل الله، بدلاً بعد امتلاك وتجرد عن كل ما يجعل النفس في عبودية تسجنها! يدخل الزهد في كافة صور العبادات، فمن الصعب محاربتة أو امتهانه لأن صنفاً من

الناس مالت نفوسهم إليه، ولا يثنيهم عنه شيء، ولا يعرضهم طرْحُ آخر عن مراد قلوبهم.

في بعض السكر والغياب رحمة

ميزة الغياب والسكر عن عالم الصور، الخلوة بالنفس والتعرُّف عليها عن قرب. سندرك بالغياب عن الصور الزائفة ما قرَّ في ضميرنا وقلوبنا من فرح أو حزن، من إيمان أو كفر. أنت وحدك أمام نفسك ترى نفسك دون أن تتخدع أو تُخدع. ما قاله البسطامي عن عبور بحر وقف غيره بساحله، أو قاله الأنصاري أو الخرقاني من كون الصوفي غير مخلوق، أو قاله

الحلاج من "خلصوني، واقتلوني"، لا يمكن فهمه على الحقيقة ولا إدراك معناه إلا بعد الغياب عن مقاييس لابسِي العدسات، المبصرين بوسائل كثيفة لا يدركون كثافة حجبها لمقاربة الحقيقة!

في كل سُكْرٍ وغياب رحمة كالغيث النازل من السماء يحتاج إلى محب للحياة أن يبسط ذراعيه ليتلقى وينفض غبار الراكد من شبه الحياة. إن أي طريق من طرق الروحانية ليست ملكاً لأحد، فكما يُقال: "المحكمة ليست ملكاً للقاضي". لكن يحلو لبعض المتحديثين باسم التصوف اليوم أن يجعلوا من أنفسهم كباراً، ويضيقوا على خلق الله من خلال ممارسة سلطتهم على بعض الصغار، فالمتحدث قطبٌ من الأقطاب وكبيرٌ من الكبار يوتى الحكمة وفصل الخطاب، لا معقب لحكمه ولا رأي صواب غير رأيه، لا يفرق

بين (أنا) إبليس و(أنا) الحلاج، ويلوٲ طريق الصوفية الذي يُفترض أن أوله معالجة عيوب النفس، وليس إثبات أو هام النفوس.

* * *

التصوف تجميل للإسلام!

في إفطار رمضاني دعنا إليه حركة focolare التي تعمل على نشر ثقافة الإخاء والتعاون والسلام، كان أغلب الحضور من المثقفين والمتعلمين في الجامعات المصرية، وكان على هامش الإفطار حديث حول التصوف شاركت فيه مع الأب جوزيبي سكاتولين بالحديث عن جماليات الإسلام وروحانيته، وضرب هو أمثلة بأشعار ابن

الفارض الذي اشتغل على تحقيقها فترة طويلة وارتبط اسمه في مصر بسُلطان العاشقين، وتحدثت أنا عن كون التصوف قلب الإسلام وعالمه الرحب الذي يستوعب جميع البشر ويقدم لهم خطاباً إنسانياً جامعاً. انقسم الحضور بطبيعة الحال بين مستمع ومناقش وطالب للمزيد، كان المدهش في النقاش أن أغلب المسلمين الحضور الذين لبّوا دعوة حركة مسيحية بالإفطار على مائدتها أن يعتبروا الإسلام دين والتصوف هرطقة من الهرطقات. حاول الأب سكاتولين أن يدافع عن التصوف ويشرح لهم خطأ موقفهم من التصوف، وعبثاً أن تحاول إقناع جمهور تربى على الرفض الموروث ويربى أبناءه على ذلك، أن يقبل بأخيه المسلم كما قبل دعوة أخيه المسيحي!

لم يكن هذا السلوك مفاجئاً لي، فقد حضرت الكثير من الفعاليات والنقاشات التي ترأسها (متدينون بالتدين الشائع) - لا أقول سلفيين أو داعشيين كما هو ذائع، فهذه تسميات فقدت معناها واستُهلكت دون وعي وبتطرف كتطرف الموصوفين بها- كانوا يتساهلون مع المختلف دينياً ولا يتسامحون ولو للحظة مع شريكهم في الدين (المبتدع)! ربما يفعلون ذلك رغبة منهم في إظهار تسامحهم تجاه الآخر وكسبه لصالحهم، وهو ما يحدث كثيراً ويتحقق لهم ويُعترف بخطابهم وحدثهم وأنهم خير تمثيل للإسلام! في حين أن غيرهم إما دراويش مجانيين أو مرقعون ومجملون لوجه الإسلام (البشع)!

مقالات الفرق

بالتدقيق في مقولات الفرق الإسلامية التي تُروى في المصادر التراثية والتي ورثناها جيلاً بعد جيل، يتبين لنا أننا لَقْنَا تلقيناً مقولات لا تعبر عن حقيقة هذه الفرق، فضلاً عن تعبيرها الصحيح عن صور المعتقدات الإسلامية، إن عرضاً متأنياً لهذه المقولات على الكتابات المعاصرة لها وفحصها بعيداً عن التعصب أو الإنكار، يؤكد لنا أن العميان حينما وصفوا الفيل بحسب الأسطورة البوذية كانوا أقرب من المبصرين والمستبصرين في وقتنا هذا، فالعميان وقفوا على محدودية عقولهم وعلى نسبية آرائهم، أما نحن بعد هذه

الوراثة التي لم نفكر فيها إلا نادراً ملكنا اليقين
وأردنا الآخرين مثلنا!

مقالات المشركين

لو كانت مقولات الكفار والمشركين مدونة بأيديهم،
كما كتب الغالبون في الإسلام تاريخهم،
وقراها المسلمون بنفس طرق التأويل التي
يقرءون بها نصوصهم، لن نرى على وجه
الأرض من ينتزل عليه وصف كافر أو مشرك.

ذلك أن صنوف التأويل تجعل الأسد يتحول
إلى كلب وبغل، وأحياناً يخشى العصفور

والهرة. التأويل مفتاح أبواب الرحمة "لي وحدي" ولا يمكن أن يُفتح باب الرحمة للخصم أبداً، فأنا وحدي من أحسن التأويل والقراءة... أما من في الجهة الأخرى فهو خصم وعدو وخائن، وبطبيعة الحال صاحب عين قصيرة النظر ولسان لا يتقن فنون القول، فمن الصواب أن أتكلم أنا عنه وأحدد له مسار الحياة والنهاية!

الطين وماء الحياة

"إني لألقم اللقمة أخواً من إخواني، فأجد طعمها في فمي".

صوفي الأمس الذي تحقق معنى الإنسان والرسالة
فيه قال هذه الكلمة، الأمُّ أيضاً تقول هذه الكلمة كل
لحظة وكل يوم بفعلها لا بلسانها، لأبنائها التي
تسعد كل ذرة فيها بسعادتهم ولا تلتفت إلى تشقق
شفاهها، الأب كذلك الذي يسعى ليل نهار من أجل
أبنائه، الحبيب والحببية الصادقان في كل ما
تتبض به قلوبهم. أن تجد طعم لقمة وأن
تذوق سعادة بارتسام بسملة على شفاه غيرك فهذا
دليل حياة، أما ما ينتشر من أخلاق بيننا ومن
تعاملات سيئة فهي دليل ارتفاع الطين وجفاف
ماء الحياة!

الحياة والكلام عند الصوفية

لا أدري إلى أي مدى يصح أن نقول إن الصوفي الحق يعيش ما يقول، يبدأ بالحياة لا بالقول، يمضي قدمًا نحو الفعل لا الحديث على الفعل، حياته ليست بالوراثة كحياة غيره من أتباع ورثنا عن فلان وقال الإمام فلان. ضرب القراء المخلصون مثلًا لذلك بتعدد القراءات الصوفية للكلام الإلهي والحديث النبوي، حتى على مستوى "الفن الصوفي" يختلف تعريف كل واحد منهم للمقامات والأحوال، لكل منهم اصطلاحه ومفهومه الخاص، ربما كان ذلك سببًا من أسباب الالتفات من قبل الدارسين للغة الصوفية إلى دورهم في تطوير اللغة العربية بصورة لم تكن في مستطاع غيرهم.

تتبع الفكرة من قلب الصوفي ومن معاشته لكل ما دقَّ أو عظم من الأمور ولا تتجسد إلا في وقت

لاحق. ربما يشترك الفيلسوف معه في هذه الصورة، لكن لا يشترك معه الوارث والمقلد، ومن هنا يبدأ المخالف في إقصاء الصوفي ووصمه بالكفر والخروج عن الدين، فمن يتابع أحكام قلبه يخرق القواعد كمن يستخدم عقله رافضاً أن يقول خلف الإمام آمين!

إلى هنا نتفق نحن وأبناء التصوف المحبون، لكننا سنفترق، كل إلى وجهة غير وجهة "أخيه"، حينما نقول: إن كثيراً من الصوفية المعاصرين "العرب" ورثة مقلدون، يبدعون من فكرة موروثه وينطلقون في الحياة لا ينتجون فكرة بقدر ما تستعيد الحياة أفكاراً جاوزها الزمن على أيديهم، فكل ما مضى مقدّس بالنسبة إليهم، شيخ قد انتقل أو مخطوط جفّ حبره وحوى من التعاليم ما عبّر عن عصره، هنا يلتقي الصوفي مع غيره من الورثة أهل هوس الأحكام، وبدل أن يساهم في سنة "يزيد في

الخلق ما يشاء" يساهم في تشويه الآخرين كما يفعل غيره. لا أدري لأي سبب ابتعد الصوفي المتحقق عن رحاب الفلسفة وأعلن في بعض روايات التاريخ البراءة منها، كانت الحياة السابقة ستصبح أجمل في خيالنا، لكن بما أننا نحب الحياة، فالرحمة لمن مضى ومن يتابعهم الآن، والأمل فيمن يولد بعد أن أمات ما فات!

في حضرة الجمال

الحديث عن الجميل رحمة وسعة ونور، تسعد الروح وتتغير ملامح الوجه بمجرد أن نتكلم عن جميل من الأمور التي نحبها. بالطبع لا

جمال في السياسة ولا اتفاق في أمور الدين، لذا كان حديث الصوفية عن محبوبهم الأسمى رائقاً عذباً، أسعدهم وأسعد غيرهم. في رواية سأل أحدهم رابعة عن محبتها للنبي، فقالت إن حبها لله لم يجعل لغير الله مكاناً في قلبها. ربما كان ذلك سبباً من أسباب رؤية ابن عربي للسالكين في الطريق، فبعضهم يصل بالنبي ويظل معه النبي، وبعضهم يصل ويقول له النبي أكمل طريقك، ولكل وجهة هو موليها. حينما يتحدث أحد المحبين عن حضرة النبي، أشعر أنني للمرة الأولى أتعرف على النبي وأشتاق إلى المزيد من هذا الحديث النابع من قلب مؤمن يأخذني إلى رحاب لست أملك الوصول إليه بنفسي. يحدث ذلك أيضاً حينما أسمع كلام الرومي عن النبي يُبث من شفاه جميلة، أشعر أنني أتلقاه كما تلقاه هو. كل شيء يكون جميلاً في حضرة الجميل، وفي غيابه يكون قلبي متعباً، حزيناً ومنهكاً من الهجران،

أذرف دموعاً من هذا الحزن.. من هذا الألم. حياتنا
تذهب نحو النهاية، لكن كم سأكون حزيناً لو لم
أملك هذا الحزن!

العمل والتنظير

الإطار النظري لكل حديث علمي إطار جميل،
والبيان فيه من الجمال ما فيه، والترجمات عن
المعاني تجذب الإنسان جذباً! لكن في كثير من
الأحيان لن تجد فناء في هذا الجمال من ناشره
أو تمثلاً به في الحياة. يخبرك عن السعة ويضيق
قلبه عن حمل غيره، أو من يؤكد له غيريته عن
باقي البشر المجانين، يخبرك عن حق الاختلاف،

ولن يطيق اختلافا في بيته أو البقاع التي
يتردد عليها، يروي لك قصص الحب ولا يحب
سوى نفسه، يخبرك عن التماس الأعذار للبشر،
ولا يلتمس عذراً لجاره أو لقريبه. الكتب
حجابٌ، والصورة حجاب، عتبة لا بد أن نتجاوزها
لنرى ونحيا، لا لنقول ونسمع فحسب!

**فاطمة بضعة مني، يقبضني ما
يقبضها ويبسطني ما يبسطها!**

من أجمل ما قرأتُ اليوم، ولا يحتاج إلى تصحيح
أو سند، هذا من قلب المصطفى الكريم. بعض
الناس إذا اشتاق إلى الحياة نظر إلى السماء! نظر

إلى البحر، غادر المكان لينسى الزمان! طبيعي إذا اشتاق النبي إلى الجنة قبل فاطمة ابنة خديجة المُبشرة والحاضنة والزوجة المكرّمة. مثل هذا أيضًا لا يحتاج إلى تصحيح أو سند ممن لم يحضره أو يذوق شيئاً مثله! كلمة الشيخ معبرة جدًّا، فباب المحبة أوسع وقصة السيدة فاطمة يرويها صاحب "الروض الفائق" بشكل جميل يجعلك تحب طريق العارفين.

Into the wild

هو فيلم سينمائي، يجسّد قصة حقيقية، بطل القصة إنسانٌ اختار أن يقطع مع كل ما فات ويعيش على

الطريق، على الهوامش. أن تصل إلى قرار بفراق كل ما هو مألوف وأن تبحث عن ذاتك، و عما يشبهها في الطبيعة قراراً فيه مخاطرة وجرأة لا يوافقك عليه الكثيرون، ففيه تحدٍّ للمجتمع بعاداته الموروثة، وفيه غربة ووحشة، تحتاج إلى قوة تجعلك تتحمل تبعات هذا الاختيار الصعب، قد تشرف على الهلاك، ويأكل الآخرون لحمك بكلماتهم، ويسفهون اختيارك، لكنك تمضي في الطريق وتتحقق، إن أنت أغلقت أذنك عن سماع حروفهم.

لا يُعدُّ مقبولاً في الطريق الصوفي السفر بدون مرشد، والذكر بدون شيخ، والتحقق بدون صحبة، فمن موارد الصوفية أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه، وقد نهوا عن سلوك الطريق سلوكاً فردياً، لخطورة ذلك على المرید، فلا بدّ للمريد أن يلتحق بطريقة، وأن يتلقَى أصول

الطريقة على يد وسيط، لديه خبرة صوفية، من خلالها يبلغ المرید ميلادًا جديدًا.

لكننا نواجه هذا الشرط بما نعيشه اليوم، إننا نعيش في مرحلة مختلفة من مراحل التصوف، يمكن توصيفها بـ(أرحب من الطرقية) أو (ما بعد الطرقية)، ينبغي أن يهتم بها الدارسون والباحثون، الذين يعتبرون أنفسهم مختصين في هذا الحقل، كما ينبغي على أهل الطرق أو من صحَّ توجُّهه وقصده منهم، أن يتفهموا هذا اللون الصوفي الذي أضحى منتشرًا، فبعد أن كانت البلدان العربية أو الإسلامية هي التي تصدر التصوف، أصبح أهلها وبخاصة الشباب منجذبين إلى التصوف الناطق بلغات أعجمية، وإن نطق بالعربية فبروح أهل الغرب. هذا اللون الجديد من التصوف لا يقيم وزنًا للعصبيات والمسميات الطرقية، كما لا يعتد بشرائط أهل التصوف

الحالية، ولا تتطلي عليه الهالات الصورية التي
يصطبغ بها أهل التصوف الكلاسيكي، ولا
الأشكال التي يلتزمون بها شكلاً (لا معنى ولا
مبنى)، من باب إثبات وجودهم وبقائهم في مشهد
الحياة، في عالم لم يعد يعترف بالصورة، وقد كان
تصوّف الأمس، الذي نقرأ عنه في الكتب والسّير،
يمقتُ الصورة ويزهّد الناس فيها، لفنائها وللاهتمام
بما هو أبقى وأنفع للذات.

في مقام السيدة زينب

دخلت اليوم مقام السيدة زينب، وجدت صوت
النساء يعلو بالصلاة على النبي، يظهر الفرح في

صوتهن، في إنشادهن لبعض القصائد والمدائح، يجعلك فعلهن خجلاً مما يقال عن الصوت والحجاب والحريّة، وكلّ اللغظ الذي تقرأه أو تسمعه ممن حولك، وهم يتناقشون نظرياً ولا يشتركون مع الناس في حياتهم، كل صوت غير صوتهن أضحى عدماً، هؤلاء النسوة اللاتي يؤكدن لك أن الإيمان بالآثار والأفعال هو الأبقى والأففع، أما اللغظ والدفاتر المعبئة بالأحبار الضعيفة مجرد ترفٍ من فقراء لا يحسن منهم أن يمارسوا الترف، وهم في انحدارٍ كل يوم، لا تقرأ كثيرات منهن للرومي، وبعضهن لا تعرف الجنيد أو الحلاج، تحمل إحداهن الورد، ولا تلقيه على سنة الشبلي، أو تعلن عن ألم وردة الحبيب على الصليب، تكتفي بعضهن ممن لا تملك أزهاراً أن تجلب بعض العشب الأخضر، أو توزع الماء والتمر، وأضعف الإيمان عند من لا تحسن القول

والألحان، تزغرد باللسان، لا وقت للبكاء هنا،
فدمع العين خارج المكان جفّ من كثرة التعب.

حكاية صوفية في حضرة آل بيت النبوة

مرّت سيدة ترتدي ثياباً مصرية لم تعد شائعة في
أيامنا هذه ونحن جلوس في المشهد الحسيني،
كانت جميلة كما وصفها من أجالسه، ابتسمت
له، وظللت أصغي لبقية حديثه، سألتني هل أنت
متزوج؟ قلت: لا. قال: أحسن. ثم صمت لحظة،
وتابع: لا، أنا أودّ الزواج!

قلت وما الذي يمنعك؟ تزوّج! قال: ليس لدي إذن بذلك، فأنا الآن لا أصلح لإقامة علاقة مع أحد، كما أن ذلك ليس بإرادتي. تذكّرت قولاً تنسبه الصوفية إلى بايزيد البسطامي: "وعلى المرید ألا يريد!"

أنا الآن في سياحة لمدة عام بأمر الشيخ، لا سكن ولا وطن ولا قرار، وإذاً رأى شيخي أنني أتممت العام ونضجت، فسوف أطلب الإذن منه للزواج!

ترك أبيض القلب الذي لم يتلوث بالمعارف طريق التلقي للعلم كما تسيّره حكوماتنا الرشيدة، واختار بعد حصوله على الثانوية العامة أن يدخل البيت الصوفي، أو اختير له ذلك، كان كل ما أقوله يلخصه بعبارة حكيمة موجزة، وأصرّ طوال يوم

بأكمله أن ينزهه الطريق الصوفي عن كل ما يقول،
رغم أن قوله يخط مباشرة في دفتر الروح.

طلب أحد المجاذيب ونحن جلوسٌ على مقهى
البرهانية أن يدخن، جلب له كريم الأخلاق ما
أراد، وسأله إن كان في حاجة إلى المال، وبطبيعة
الحال رفض المجذوب، ربما هو أحد أولياء الله
المستورين، ولعل حاله أشبه بحال رجل مرَّ علينا
بمقهى في تونس طلب بالإيطالية شيئاً محدداً بأنفة
شديدة، ثم غادر مسرعاً بعد أن أجيب طلبه.

دخنَ المجذوب كما أراد، وشرب الشاي، وتركنا
في حديثنا عما يجوز وما يجب وما يُكره، وكأننا
مساكين لا يصلح منا القيام بعد هذا الحبو.

طفنا ليلاً بالقاهرة المحروسة بالأولياء، هذا مقام
ولي، وهنا كانت تعيش السيدة فاطمة النبوية، في

هذا المكان خادم وصديق الرفاعي، في هذه الساحة
جلس ذو النون المصري، هنا أنشد ابن الفارض:
تَه دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ لَذَاكَ وَتَحَكَّمْ، فَالْحُسْنُ قَدْ
أَعْطَاكَ.

في الضريح النوراني للسيدة زينب، وفي الثلث
الأخير من الليل أحسَّ القلب برحمة الله، ربما ما
يعتقده المؤمنون من ظهورات القديسين والقديسات
صحيح، فظهور رحمة الله صدَّقت عليه امرأة كان
من الغريب وجودها في المسجد في مثل ذلك
الوقت.

بعد زيارة مقام السيدة زينب الذي يغسل وجودك
السابق دخولك فيه، ويعيدك إلى يوم إلهي جاء فيه
(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَآشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۗ

شهدنا * أن تقولوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ (الأعراف: 175).

أسندت ظهري للحائط واضعاً رأسي على ركبتي
فيما أحنى ظهره صاحبي وسجد لله ودخل في
حضرة ربه يصلي كما شاء، وجدتُ هذه
السيدة الجميلة تلبس ثياباً بيضاء متزينة
كعروس، سألتها عن ثيابها فضحكت، وأخبرتني
أن هذا سلوكها المعتاد، ففي كل زيارة تأتي إلى هنا
تغتسل أولاً وتتوضأ قبل أن تدخل في هذا الرحاب
الطاهر، تفعل كما فعل عبد الله حينما سلك مع
نقشبندية الهند، اغتسل ونطق الشهادتين ليولد من
جديد كمسلم ضمن هذا التجمع الحكيم.

والزينة من المرأة بحسب فهمها لأنها تشهد عرساً،
ولا بد أن تشارك في العرس بفرح، لم أعد أذكر
من حديث المرأة الكثير، لكنني أذكر جيداً

أنني ظللت لمدة أسبوع كلما أغمضت عيني
ونمت قليلاً يظهر لي وجه هذه المرأة، كبدر
مكتمل أو نور إلهي يبدد كل عتمة تلف مكاني،
كانت هذه السيدة رسالة وصاحبي كان رسولا،
فعسى أن أفهم الرسالة وأتعلم من الرسول!

حكاية مع مسلم صوفي من البرازيل

كنا في زيارة مع بعض المخلصين، الذين لم
ينبت في قلوبهم بعد بذرة من بذور النفاق العربي
أو الوهن الإنساني، استمد هؤلاء قوة من السماء،
من الغيب، وبلكنة أعجمية ينطقون من أسماء
الله الحسنی: هو، حق، لطيف، حي، قيوم.

فقدَ بعضهم متاعه ولم يحزن على ما فقده،
فما وجده أعلى وأثمن من أن ينشغل بآله بما
ضاع من الزائل، راقبت سلوكه نهارًا كاملاً، كان
هادئاً للغاية، سار هادئاً بعد أداء الصلاة، ازداد
هدوءاً ونحن نسير في مكان مرتفع، كانت عيناه
تلمعان، مستمداً من مفارق لغيره متألهاً إلى ربه.

قرر هو وصديقه أن نستمع ثلاثتنا إلى
يس والقرآن الحكيم، صعد صوت الشيخ ناظم
الحقاني، كأن سلطاناً عاشقاً قرر أن ينفح في
أرواحنا العطشى، اقترحتُ عليهما أن نسمع
السورة القرآنية بصوت الشيخ عبد الباسط عبد
الصمد (قيثارة السماء) كما يصفه محبُّوه، رفض
الاثنان أن نستمع إلى القرآن بصوت غير صوت
شيخهما، فالشيخ هنا سبب وصلهم بالله، وسبب
نجاتهما وميلادهما الجديد.

كان عبد الهادي قد اغتسل مما مضى وتوضأ وضوءاً سارية آثاره في بدنه وبين عينيه منذ عام، اعتبر أن دخوله في الإسلام حياة حقيقية، وسبب الحياة والوصلة هو شيخه؛ لذا يذكر الله رابطاً قلبه بقلب شيخه، شيخه حيٌّ وإن انتقل من هذا العالم! ما وصله من شيخه لا يموت أبداً.

تمنيت للحظات أن يتسرب إلى قلبي هذا اليقين، الذي عجنت به طينة عبد الهادي البرازيلي، كما رجوت أن أكون في نشاط صديقه الإنجليزي الذي تسمى بالعثماني! كلاهما علمني درساً هاماً: أن الإخلاص ما دام في عمل إلا وجعله دائماً ومستمرًا ومثمرًا في حياة الفرد ومؤثرًا في المجتمع.

تعلمت من حالهما أن الأصل هو الثابت الذي يحتاجه الإنسان القلق، فكلما تاه الإنسان أو

فقد أو غاب، يمكنه أن يعود إلى أصله، كلمة "أولاد الأصول" كلمة قيّمة ليس شرطاً أن يستأثر بها أناس لهم عائلات ونسب عتيده، هذه الكلمة يمكن أن أصف بها كل آدمي أحسن إلى نفسه وإلى الآخرين، أمثال هؤلاء البشر هم سبب إيماننا أن في الحياة ما يستحق العيش والبعث والنشاط، فيها ما يدعو للأمل!

لذا أقول لنفسي لا بد من "أصل ثابت" يسقي هذا الفرع الذي يترنّح وتسقط بعض أجزائه وقتاً وينحني بعضها تعباً حتى يستطيع الصمود أمام رياح الحياة وما فيها من مزعجات، لا بد من إيمان كإيمان الطيبين بقول الصادقين:

(لا حول ولا قوة إلا بالله). أهدى هذه الحكاية إلى كل من يؤمن بالإنسان، وتسبّح ذرّاته وتحمد الله الحيّ!

في خلوة السيدة نفيسة بالمقطم

كان كل شيء بالأمس في المقابر، التي يصفها
المحبُّون والمحَبَّات بـ "بقيع الأنوار"
جميلاً، كنت أشعر بالأنس والراحة، وأنا
واقف على يميني مقام ابن دقيق العيد وعلى
يساري مقام ابن الهمام الحنفي وابن عطاء الله
السكندري، كان الهواء جميلاً والرحمة تلفّ
المكان، لا أحد هنا يزاحم أحداً ولا مجال للعبث.

تلمح شاباً يجلس، يتحدث في هاتفه مع فتاة، وعلى
الكتلة الخرسانية بجواره صديقه الذي يظل مبتسماً
طيلة حديثه، وفي لحظة معينة قرر الصديق أن

يسعده، وهو يتحدث مع من أحب، فأذاع قطعة من غناء أم كلثوم لا أذكر من كلماتها شيئاً، حتى الرجل المزعج الذي كان يجلس إلى جوار خلوة السيدة نفيسة الذي أصرَّ طيلة زيارتنا أن يتشاجر مع أحدهم على الهاتف ولم يتأدب بأدب "لا ترفعوا أصواتكم" لم أذكر من حديثه شيئاً.

مقامات آل البيت

زرت مقامات آل بيت النبي، حتى أرتاح قليلاً من كل ما يدور في ذهني من أفكار، لا أستطيع هناك أن أقف أو أفكر أو أتخيل، هناك يغيب كل تراب وطين ثقيل ولا يدخل مقاماتهم الممتلئة بالسكينة والطب الروحاني، هناك لا رازي ولا سلطان ولا فخر ولا أمراض، حتى الآن هناك قلوب

طيبة تجود بما لديها وإن لم يمتلكوا أموالاً
أو برامج مستغلة للأدمية.

في مقام أمنا الكريمة السيدة زينب، سماعك
لصوت امرأة تقول: يا رئيسة الديوان كافٍ لأن
يجعل جسدك ينتفض من الأوهام، والشيخ المسكين
الذي يمسك بالمقصورة وجسده ككومة قش هشة لا
تعرف ساقه من يده، في جلسته التي تشبه حلمًا
يعيشه الغريق، هذا المشهد وحده كافٍ لأن
يجعلك تعيد إلى تكوينك شيئاً كدت تتخلى عنه،
فالحياة الحقّة في رحاب هؤلاء.

مسكينٌ من يظن بالفعل أن المال يصنع إنساناً، أو
يجعله يسدّ حاجة حقيقية. أن تشاهدَ شخصاً بسيطاً
يطعم الطعام ويجود بما لديه، يعلمك أن العطاء
عطاء قلب، لا عطاء كيس وجيب، مساكين بالفعل

نحن أهل الدنيا، جنتنا و نارنا لعبة صبيان كما قالت
سيدتنا رابعة!

* * *

الموارد الصوفية

في زيارتي الأخيرة للسيد البدوي، اقترب مني
بعض من ليس له صلة بهذه التظاهرات المبهجة
للفقراء والتكالي المهدورين، نظر إلى الأرض ولم
ينظر إلى السماء، كما ينظر البعض إلى مخلفات
الحجيج وهم مغادرون جبل عرفات، من ينظر إلى
الأرض وإلى الورااء سيجد الكثير من الأجساد
والأمراض بالطبع، لذا يرفع الدرويش يداً
للسماء لتعلو روحه، ويخفض الأخرى لتهبط

الطينة وتتمحي في الطين، فما هبط من المحل الأرفع يشتاق إلى السفر من جديد إلى ربه الأعلى.

لم أفكّر ولو للحظة أن أبرهن على صحة أو خطأ أي فعل أشاهده، وينكره من معي من سلوك البسطاء والمساكين، فنحن لم نقدّم لهؤلاء شيئاً نافعاً في حياتهم، حتى نخدش ما بقي لهم من هامش حرية لا يُرى، يمارسون فيه ما قدر لهم أن يمارسوه، نعم أنا أوّمن بالجبر لا بالاختيار، فمن يسمع خطب الجمعة في بلادنا والأدعية التي تكرر ليل نهار، سيدرك أننا مجبرون منذ لحظة الميلاد حتى الممات، ونكابد فيما بينهما، حتى يحيا جزء منّا، عزّ عليه الجبر ولم يقنع به، وأراد أن يمارس فضيلة الاختيار.

في المنستير

ذكرتني صورتني في المنستير؛ البلدة التي تحولت إلى مدينة كبرى في تونس بفضل الرئيس بورقيبة، بمحافظة طنطا التي تحولت من محافظة كبقية محافظات مصر، إلى عاصمة دينية تأتي في المرتبة الثانية بعد الأزهر، بفضل السيد الملقب سيدي أحمد البدوي، الشبه كبير من حيث الصورة، فالمصور الماهر يستطيع أن يلتقط صورة لمقام السيد البدوي كهذه الصورة، والعجيب أن من ذكرني بالسيد البدوي هو محمد إقبال!

ففي حوار أجري مع إقبال قبل وفاته، سأله شيخ لا يحب الصوفية مستكراً زيارة مقاماتهم، معتمداً على ما كتبه إقبال من نقد للصوفية ومسالكهم،

اشتهر به فيما بعد في الأدبيات العربية. أجاب إقبال سائله أن زيارة هذه الأماكن شيء حسن، فمقامات الأولياء مباركة، والغريب أن إقبال استدعى كرامات السيد البدوي ودوره في إزالة الكوارث عن المصريين في عصره كنموذج لكرامات الأولياء.

لم يتحدث إقبال مثلاً عن سنائي الغزنوي الذي زار مقامه، أو عن مرشده الروحي مولانا جلال الدين الرومي، أو عن نظام الدين أولياء، الذي زار مقامه متبركاً به قبل سفره إلى أوربا، وطالباً العون منه حرفياً كما ينصُّ على ذلك في أشعاره، وتحدث عن الغوث البدوي صاحب الكرامات..

لكن كيف أضحت طنطا وكيف أضحت المنستير؟ كلاهما أصبح التصوف فيها مجرد رسم،

وصارت السياسة هي الحاكمة، ففي طنطا بعض
بقية من الصالحين، لكن مشايخ التصوف
الرسميين مجرد ألعوبة في يد السلطة منذ سنين
طوال، وفي المنستير صار قبر بورقيبة أهم
وأعظم صورة ومكانة من مقام أستاذ ابن
رشد الذي يجاور ضريحه المتواضع القبر
العظيم للرئيس الراحل. رضي الله عن
الغالبين!

بقية الأنوار!

كان الجلوس بعد إتمام الزيارة على أعتاب مسجد
ومقام سيدي ابن عطاء الله السكندري في المساء

جميلاً، أغلق خادمُ المسجد الباب بعد صلاة العشاء بساعة ورحل، لكن صاحبَ الحِكْمِ، فتح قلبه لاستقبال من أرادت قلوبهم الحياة، لا شيء يمكنه غلق أبواب الرحمة مهما طالت المزعجات سقوف البنايات، كل إزعاج وهنٌ وضعيفٌ، يستطيع الحي الذي يؤمن بحي قيوم أن يخلق لنفسه مساحة لا يشاركه فيها غيره، يستطيع أن يسبِّح أو يسبِّح في عالم من صنعه وحده، يستطيع أن يتنفس دون أن يوقفه أحدًا!

كلُّ لحظة مرَّت لا يمكننا استعادتها أبدًا، ما يأتي لن يشبهها، حلواً كان أو مرًّا، فلكل لحظة مذاقٌ هو ابن وقته كما يقول الصوفية، جدد الله حياتنا وخلق الحلو فيها وكفانا مرارة!

السلوك والمحبة

قبّل رجلٌ عتبة المقام، وأحدهم مسح بثيابه مقصورة المقام، وأحدهم سجد، وأحدهم صرخ، وأحدهم طمع في مال يمكن حصره في ثمانية واحدة فأخذه من غيره، وأحدهم قبّل امرأة في الزحام، وأحدهم تعاطى المخدرات، وأحدهم ترشده عصاه ويسعى، ورغم كف بصره لا تكف روحه عن السعي، وأحدهم أعطانا طعاماً طعمه لا يُنسى، وأحدهم وزّع الماء.

فعلَ الجميعُ ما يفعله الشخص على مدار حياته في شبابه ومراهقته وهدوئه وسكينته وضجره وغضبه، بعض الأفعال ينكرها العاقل الواعي، ويحاول الصوفية دفاعاً عن كيانهم ضد

الخصوم المتربصين بهم أن ينزهاوا جناب الطرائق عن هذه الأفعال، كما يفعل المسلم اليوم حينما يعلق أن أفعال المسلمين لا تمثل الإسلام، ولا يمثل الإسلام زيد أو عمرو أو خالد وإن آمنت ملايين من المسلمين بما يقوله زيد ويعلنه عمرو ويصرخ به خالد!

إن فعل البسطاء حقاً لا يمسُّ جناب أحدٍ، ولا علاقة له بي أو بك، ولا ينتظر تقييمك بالسلب أو الإيجاب، فحياته تستمر وأنت على وجه الحقيقة لا تعباً به إلا مجرد لحظة، هذه اللحظة تتمثل في إنكارك عليه، وتقييمك له، أو في أحسن الأحوال تدعو له أو تدعو عليه كما يفعل خطيب المنبر في دعائه في يوم الجمعة على كل مخالف عرفه أو لم يعرفه. من السهل أن نحاكم أهل المولد، لكن من الصعب أن نبحت عن سبل الحياة.

الأضرحة براح الحريّة

تدخل مهموماً قلقاً متوتراً، تخرج هادئاً. الأضرحة
 مساحة بعيدة عن سلطة الواجب والإلزامي والقهر
 والبروتوكول والكلام والتنظير، لكل لغته التي
 يتقنها، ولا يفرض على أحد أن يتواصل بها.
 يتواصل أحدهم بإنشاد أبيات مهداة لصاحب
 الضريح، وأحدهم يمدح المصطفى، وأحدهم
 يُسبِّح، وأحدهم يقرأ القرآن، وأحدهم يُحدِّث
 صاحبه، وأحدهم يزور الأضرحة ليغتسل بيكائه،
 جفّت دموع عينه من كثرة الزحام في الخارج،
 يريد مكاناً لا يرى فيه تزاحم الأجساد وانتهاكها
 لروحه، فيرى نفسه في خلوة في

الضريح وإن كان حوله مئات البشر، لا ينشغل بأحد، تتساقط دموع عينه دون إرادة منه، يشعر بالخجل والندم أمام طهر صاحب الضريح، يشعر أن صاحب الضريح يُحدّثه ويخفف عنه آلامه ويمحو عنه كل تعب، ويعتبر كل ما قاله سرًّا مكتومًا.

أحدهم يسند ظهره المتقوّس إلى جانب الضريح لا ليعتدل، بل لأنه لم يعد يملك آلة للنطق أو الاعتراض، استسلم من الحوادث والفاجعات، ينظر وينتظر مدد السماء، أحدهم ينام من تعبته، وأحدهم يُطعم غيره، أو يسقيه شربة ماء، أحدهم يوزّع الحلوى، أحدهم يُظهر محبته ولا يخجل من تذكير الحضور بمقام صاحب المكان أو صاحبتة الرفيع، لا أحد من هؤلاء يؤذي أحدًا، ولا يؤخر حضارة، ولا يدّعي أنه عالم عليه أن يُصلح العالم، العلماء خارج هذا المكان جدير بهم أن يتخلّقوا

بأخلاق الإخلاص والرحمة، وأن يقدموا
للإنسانية ما يفيد، فلولا تقاعس كثير منهم
وانشغاله بالكلام لما وصلنا إلى هذه الحال.

سلطان أيوب الأنصاري

عند أبي أيوب الأنصاري كانت هناك فتاة
توزع الحلوى بابتسامة وهدوء لم نره منذ مدة،
سوى في بقيع الأنوار في مصر، أخذت منها
قطعة ومن سيدة أخرى أكلت قطعة سكر، ثم
جلست على الأرض أراقب المارة وأسبح قليلاً، ثم
صمت عن الكلام.

أوصيت أن أدعو دعاءً معيناً، فتوضأت ورحت عند المقام، مستحضراً المدينة المنورة على ساكنها أزكى الصلاة والسلام، للحظة شعرتُ بذلك فرددت الدعاء مرتين، في المرة الثانية طلبتُ سيدهُ عجوز أن أرفع صوتي بالدعاء حتى تأمّن خلفي، ذكّرتني بسلوك النساء في قونية، فاستجبت لطلبها، وأصرّت بعدها أن تدعوني لاحتساء الشاي في مكانها، استجبتُ لطلبها وجلستُ أشرب، وطلبت مني أن أكتب أي دعاء لها وهي لا يمكن أن تقرأ شيئاً مكتوباً بالعربية.

ربما ستساعدنا بناتها في ذلك، وربما أرادت أن تبلغني رسالة ما، لكنني استرحت وقتاً قصيراً بسبب هذه الإشارات الجميلة، ودّعتُ المكان، وفي ذهني جملةٌ من الدعاء، ظلت تترددُ مرات ومرات

حتى هذه اللحظة؛ اللهم إن الأرض أرضك والبلد
بلدك!

أحببت أن أقولها للسائق اليوم، ونحن في طريقنا
إلى فاس، وأنا ناظر إلى السماء التي تراقب قلوب
البشر، لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض
ولا أسود، فمهما اختير لنا أن نحمل جنسيات
وهمية، لا يختار لنا أحدُ قطعة من السماء لنراها،
أو روحًا معينة لتلمسنا ونلمسها! الحمد لله الواسع!

في رحاب السيدة زينب

(1)

لا تزال السيدة زينب أفضل مكان ومقام زرتها في حياتي، أذكر أنني بعد زيارتي للحرم النبوي وعودتي إلى مصر، كان أول ما فعلته أن أغتسل من تراب ذلك السفر الذي أرهقني جدًا بكل تفاصيله في مقامها الطاهر، بإحساس حقيقي أشعر أنني بين أحضان السيدة زينب أُمي وأم الحنان التي في رحابها لا يجف ماء عين وليدها أبدًا، كل شيء يدعو إلى عيش الحياة في بساطة وهدوء وتسامح، السيدات التي تصرخ وتستغيث، والعجوز الذي يقف ليوزع الحلوى، والرجل الذي يسند ظهره إلى العمود ولا يعجبه أن لواء الشرطة يقف ويوزع نفحات داخل المقام، وبصوت مسموع يخبر صديقه أنه لا يقبل نفحة هذا الرجل، فيسأله لماذا؟

فيجب عليه بأريحية: لا نحب أن يكون هنا أحدٌ من أهل السلطة، فلا سلطة ولا مقام إلا لسيدتنا السيدة زينب. أحد المجاورين في كل مرة لا يكف عن ترديد الصلوات على حضرة النبي بصوت عال، أحياناً ينزعج من يزور معي، أما أنا فأكون سعيداً بكل التفاصيل، حتى من يضحك أشاركة الضحك، لأنني أرى كافة صور الحياة بتفاصيلها في هذا المكان، ورغم اختلاف لغاتهم ومقاماتهم إلا إن جميعهم يعظم صاحبة المكان، ويلجأ إليها ويسعد بالقرب منها، وهي تحتوي الكل فعلاً هي (أم الحنان)! ولا سيدة مثل السيدة زينب في جمال مقامها ومكانتها، هذا المكان لا يشبهه غيره.

مولد السيدة زينب فرحٌ ينسي البسطاء الهموم ولو
لوقت قليل، ويبعث في قلوبهم ألواناً من
السرور، الأطفال والنساء والرجال، الكل يغيب
عن اليوم واللحظة ولا يذكر من هموم قلبه هناك
شيئاً، وإن ذكر شيئاً في المقام الحنون مما يزعجه
فذكره بقصد المحو، فخرانة الأسرار تستوعبه
وآخرين، وتضمد جرحه، وتسكن أمه، فالسيدة
معطاءة، ولا يخيب قاصدها، وترنيمة الدرويش
الدائمة (كريمة ياسِت).

لا فرق بين رجلٍ وامرأة في الطريق، الكلُّ سواء،
فالرجال والنساء عند السيدة زينب معتقداتهم
واحدة، وكلماتهم واحدة، فالسيدة زينب تتادى
(ماما- أمّه- أم الحنان) بلسان الذكر والأنثى، وإن
تعطش الرجل إلى الحنان والحب في رحاب
السيدة، فكذلك الأنثى، ربما يكون الاختلاف الوحيد
في التعبير عن الفرح في زغاريد النساء التي

تختص بها دون الرجال، لكن الرجال لا يتوقفون في الإعلان عن محبتهم وفرحهم، بترديد الصلوات على حضرة النبي وإنشاد بعض الأشعار فرحين مستبشرين.

أصحاب الأحكام والمؤمنون بالصور وناصربو الأوثان ينشغلون دومًا بأحكام الرفض والقبول لمظاهر الفرخ (القليل) الذي يعيشه البسيط المقهور والمهدور دائماً من أهل الدين والسياسة والمجتمع، ولا يرون في الفرخ شيئاً طيباً ومطيباً لقلب هؤلاء الذين يمرحون أمامه، فهم في نظره (مخابيل) غرر بهم. لا يرون في (الفرخ) شكلاً من أشكال التقوى والعبادة، لأنهم لم ينخرطوا يوماً بعين الرضا أو بعين النظر المتمهلة في إصدار الحكم بعد معاينة وخبرة، لو تريتوا قليلاً ولمسوا إنساناً من هؤلاء لعينوا "أطعموا الطعام، وأفشوا السلام"

جسداً وحقيقة عند هؤلاء، فكل من قصد (السيدة الكريمة) يبذل كل ما في وسعه من كرم على قدر الطاقة، فالخبز يوزع، والسلام ينتشر، والابتسامة لا تفارق وجه العجائز، والأنفاس التي تهدأ بعد توتر تضي على الأجواء دفناً مفقوداً في غير هذه البقعة الطاهرة.

إن قراءة بعض كلمات منسوبة إلى السيدة زينب كانت عوناً لشيخ جليل لا يزال كرمه يشمل الكثيرين. فقد أورد الشيخ حسن الشافعي رئيس مجمع اللغة العربية وأستاذ الفلسفة الإسلامية في سيرته الذاتية حياتي في حكاياتي موقفاً يحسن بنا أن نسرده للقارئ الكريم. يقول في معرض حديثه عن مرحلة كان فيها سجيناً: "أعادوني إلى الزنزانة، في حالة متدهورة، بعد ليلة كاملة من الضرب المتواصل تقريباً، مع القيد الخلفي، ويدي وراء ظهري،

كخرقة بالية رُميت على أرض الغرفة، ومرّت
أوقاتٌ من الغيبوبة والصحو، حتى تماكثُ نفسي،
ونظرتُ إلى حائطٍ على يميني -وعلى شمالِ الباب-
فإذا بأربعة أبيات كتبها زائرٌ قبلي بخط جميلٍ،
قرأتها فيما بعد منسوبة إلى السيدة زينب
رضي الله عنها:

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ يدقُّ خفاهُ عن فهمِ الذكيِّ

وكم همّ تساءً به صباحاً وتعقبه المسرةُ في
العشيِّ

وكم يُسرٍ أتى من بعدِ عُسرٍ ففرَّجَ لوعةَ القلبِ
الشَّجيِّ

إذا ضاقت بك الأسباب يوماً فثق بالواحدِ الأحدِ
العليِّ

لقد كانت هذه الأبيات الأربعة بلسماً، وعوداً
ربّانياً لهذا المسكين، الذي كان الجنود يضربون
به المثل لمن عاد من الموت إلى الحياة.

(3)

ناصربو الأوثان ينكرون النذور والأضحيات
في الموالد، لكنهم يضحون بحقوق الناس
الموروثة، بفرحة قلوبهم، بهدوئهم، ويحاولون
إلغاء وجود وجه ظل مستمراً من وجوه الدين
الباسمة لجميع الخلائق!

نحتاج إلى كلمة تنبئ عن فهم عميق لخلفيات
البسطاء وممارساتهم لتكشف لنا عن المغزى
والدلالات، لا تسجن الآراء وتحاكم المعتقدات،

وتقتل المرح في قلوب تنشده كي تستريح من
وعناء هذا السفر الطويل.

نحتاج إلى من يكون مصباحه منيرًا للُحمة هذه
الثقافة العميقة، كما فعلت نادية أبو زهرة في
دراستها عن السيدة زينب "النقاء والسلطة:
دراسة في الشعائر الدينية في المجتمعات
الإسلامية" Abu-Zahra, Nadia, The Pure
and Powerful. Studies in
Contemporary Muslim Society,
Berkshire, Ithaca Press, 1997. إذ ركّزت
على دراسة الطقوس التي تحيط بضريح السيدة
زينب في القاهرة، فشعّ الدفاء والفهم والتعاطف
في تقديمها لهذه الدراسة.

فها هي السيدة زينب في القاهرة وفي قلوب
المصريين، ثم ها هي السيدة زينب ولية النساء

(الحلم والحقيقة) وتلا ذلك (حيوات النساء والفتاوى التي ترشدهن). بعدها دخلنا عالم المولد (احتفال الناس والحكومة) و (الليلة الكبيرة واحتفالات الفجر) أخيراً، دراسة ممتعة بكل المقاييس، فقد تمكّنت نادية أبو زهرة أن تقدّم صورة حيّة لقطاع عريض من الشعب المصري في جزئية من حياته اليومية ونشاطه في بؤرة محدودة من المكان، ولكنها في الوقت نفسه تستشف روح هذا الشعب في أفراحه وأتراحه، وشجاعته في مواجهة الصعاب والحرمان. ترددت نادية على مسجد السيدة زينب في القاهرة للقيام بدراستها الميدانية، وأجرت مقابلات مع زوار ضريح السيدة زينب من النساء على وجه الخصوص، ومع إمام الجامع، وكثير من المسؤولين في وزارة الأوقاف وإدارة الموالد، إلى غير ذلك من الجهات التي تساهم في إدارة شئون المساجد وإقامة الموالد في مصر، كما

اطلعت على المصادر التاريخية التي تعالج حياة السيدة زينب، والمصادر الفقهية التي تتناول الإرشادات الخاصة بزيارة الأضرحة والمشاركة في الموالد، ولم تكثف بهذه المصادر، ولكن عنيت أيضاً بنصوص أخرى لها أهميتها في تلمس الوازع الدفين الذي تتطلق منه الطقوس الخاصة بالسيدة زينب في مصر، مثل بردة الإمام البوصيري (بعض أبيات البردة منقوشة قبالة المحراب في المسجد الزينبي) وخطب الشيخ جلهوم إمام المسجد، إلى غير ذلك من نصوص تساعد في دراسة (رئيسة مملكة الديوان) والجالسة على عرش الولاية كما يعتقد أغلب الجمهور القاصد لمقامها.

في وقتٍ سابق كان الانخراط في الموالد صعباً للغاية، وبخاصة لو كان من الدارسين، ويحكي ج.و. مكفرسون شيئاً من الصعوبات التي واجهته في عمله الأبرز الموالد في مصر، يعرف القارئ من خلالها على مدى حرص الدارس الغربي ومثابرتة من أجل الوصول إلى حقيقة يطمئن إليها وهو يسجل وقائع هذه الملتقيات، ولا يخجل من تكرار كلمة "أنا أجهل" و "لا يمكنني أن أقول" ولا يدعي أنه وصل إلى حقيقة يمكن القطع بها! فاليقينيات والمسلمات لا يمكن البدء بها حين الدرس.

ومن الطرائف التي يحكيها مكفرسون في مشاركته وزيارته لمولد السيدة زينب عام ١٩٤٠، أنه تمّ تقديمه للشيوخ والأعيان كزائر تركيٍّ عظيم التقوى، كما قدّم صديقه هارولد بيز Harlod Base كدرويش أخرس، وتمّ

استقبالهما بكرم بالغ يصفه مكفرسون بالكرم الذي
وخز ضمائرنا، "فقد أجلسنا وشربنا القرفة وقدمت
أفضل ما في جُعبتي من التركية والعربية، وكنا
سعداء جميعًا، حتى سنحت لأحدهم فكرة شريرة
باستحضار أحد البكوات من إسطنبول إلى
مجموعتنا الصغيرة، والذي اعتقد أنه قد يجب
أن (يدررش) مع بعض مواطنيه. وقع حامد وأولاد
عرابي [الذين ساعدوا مكفرسون في حضور
المولد] في رعب شديد، وقبل أن نتحقق أنا وبيز
من الإجراء الذي نؤوا عمله، سارع أولاد عرابي
بالهرب من المسجد يتبعهم حامد الذي لم يكن
قد أتقن بعد طرق الدبلوماسية، ودون أن
يدرري الدرويش الأخرس وأنا بالمصير
الذي ينتظرنا، تبعناهم خارج المسجد بغاية
السرعة" ..

الأمر مختلف اليوم عما حكاه مكفرسون، إذ يستطيع غير المسلم أن يشارك الحاضرين احتفالاتهم، وبخاصة إن لم تبدُ عليه مظاهر الترف والأعجمية، وقد شاركني بعض أصدقائي المسيحيين زيارة المقامات في مصر سواء في القاهرة أو الصعيد، وما يوجّه إليهم من أسئلة -إن كان- يوجّه إليّ، فبمجرد أن تظهر بمظهر المرید للشرح والتفصيل أو الطالب للمعلومة، يبدأ الشيخ أو المتحدث بسؤالك عن أمورك الشخصية، لخشيته أن تكون من فريق يخاصم التصوف والصوفية.

وقد منعنا البعض ممن حصلوا على قدر من التعليم يصاحبه قدر من الحيطة، أن نقوم بتصوير أو تسجيل بعض الوقائع التي شاركنا فيها، خوفاً من أن تُستخدم المادة المرئية ضد الصوفية والتصوف، ورغم معرفة

حسن (أحد الدراويش الصوفية الذي اكتفى بأن يحصل على الثانوية العامة ويُطلق التعليم النظامي كما قال) بي منذ فترة بعيدة، حينما رأني في المولد طلب مني ألا أكتب شيئاً أنتقد فيه الممارسات التي قد تظهر لي في المولد.

الخوف من الكلام على الصوفية يمكن أن نفهمه في سياق ما حدث بعد إعلان (الإسلاميين) في مصر لأرائهم عن رفضهم للممارسات الصوفية المعلنة، فتوقف المديح والإنشاد لفترة في مقام المرسى أبي العباس مع تولى محمد مرسي الحكم في مصر، واعتبر بعض المشاركين في مولد أبي الحجاج الأقصري قبل عامين أن ما حدث لمرسي من (زوال حكمه) كان سببه غضب أهل الله عليه، إذ عزم وبعض من تشاركوا معه الحكم على إيقاف هذه التظاهرات التي تعبر عن فرح الصوفية بآل البيت والأولياء.

قد يبدو هذا سبباً مضحكاً، وقد يظهر للمتابع أن السلطة الحالية تتبنى التصوف وتدعمه، لكن من يقارن بين مظاهر مولد السيدة زينب اليوم -كمثال- واحتفاليات الأعوام الفائتة، سيعرف أن السلطة لا تعبأ بالمتصوفة ومثلهم كمثل بقية الجماهير الغفيرة، مهدورة حقوقهم.

شخصيات صوفية

الحلاج والتصوف

حينما سأل الشبلي الحلاج وهو على خشبة الصليب ما التصوف؟ قال "أهون شيء فيه هو ما ترى!" ورُوي عنه قوله الشهير: "ركعتان في العشق لا يصح وضوءهما إلا بالدم". اليوم كنا في سيرة الحلاج، هناك رواية لبداية حاله ولنهايته مروية عن ابنه، تقرأ في السيرة وتبتسم من هذا التكرار الهائل لكل فعل يقوم به العرب مع كل ناطق مختلف عن السائد. الجميل أن الحلاج كان صوفيًا ويعيش مع الصوفية ومن أنكروا عليه كانوا صوفية! أحدهم اعتبره خارجًا عن الطريق، وآخر وصفه بالساحر، وآخر بالكافر.

زاره صوفية في سجنه والتمسوا منه الفهم
والحكمة وتعلموا على يديه، وصوفية آخرون
راقبوه في السجن وصمتوا عن تعذيبه وانتقوا شر
الحكام، وآخر رأى أنه ما من توحيد على وجه
على الأرض أو إيمان إذا كان الحلاج كافرًا.
من الغريب بالنسبة إلي أن ابنه الذي سُجن
معه بضعة أشهر وهو لا يزال شابًا صغيرًا لم ير
من كتب والده سوى وريقات قليلة، حُرِم الابن
من ميراث والده، ورأى اختلاف الناس فيه،
ومسته صنوف العذاب كما دمرت أجزاء والده
وحولتها ترابًا، لكن ما مصير من أنكروا عليه
وحاولوا تلويث سيرته النورانية؟ طوي ذكر هؤلاء
جميعًا ولم يبق من سيرتهم شيء، وبقي الحلاج
حيًا بعد وفاته، وظل أثره في الهند والصين وبلاد
فارس وتركيا وبغداد ومصر، ولا يزال حتى يومنا
هذا موضوعًا للآداب والفنون، حتى أن واحدًا من

الدارسين خصص ثلاثة كتب لما كتب عن الحلاج،
لأنه أخلص وصدق وعاش ما آمن به.

الحلاج موضوعًا للآداب والفنون قديمًا وحديثًا

هو عنوان كتاب المرحوم كامل مصطفى الشيبلي تلميذ المرحوم علي سامي النشار، بمجرد قراءة العنوان أتذكر كتاب عبد الأمير الأعسم عن ابن الريوندي في المصادر العربية القديمة والحديثة، الفكرة واحدة في العملين، والشخصية موضوع الدراسة في العملين مثيرة للجدل، وإن كان الحلاج أعظم أثرًا في العالم الإسلامي من الهند إلى الصين، وحاضرًا في

الكتابات الغربية بشكل أكبر من ابن الریوندي، فكرة العمل حسب متابعتي لما كتب عن الحلاج تعود إلى اثنين لم يذكرهما المؤلف.

المصدر الأول للفكرة: هو المستشرق ماسنيون، الذي كتب بحثاً عنوانه: (حياة الحلاج بعد وفاته). تتبّع فيه حضور الحلاج في الأدبيات الشرقية عربية وفارسية وتركية وأوردية. وترجم البحث ونُشر في مجلة المورد العراقية، وقد كان الشيبّي على صلة وثيقة بماسنيون، فطالع أعماله واستدرك عليها، وكتبه الثلاثة عن الحلاج تدين له في كافة المعلومات والنتائج.

المصدر الثاني: أنماري شيمل، التي ألفت عن الحلاج كتاباً بعد رحلة معايشة لنصوصه منذ أن كانت فتاة صغيرة حتى صارت عالمة متبحرة في التصوف، وعادت إلى الخبير الفرنسي

في درس الحلاج لتعرض عليه فكرة عملها، وزودها بالكثير من المواد التي أفادتها في إصدار كتاب عنه، ومن حسن الحظ أن ملخصًا لهذا العمل ترجم إلى العربية قبل أربعين عامًا، وبسبب إتقان المرحوم حسين مجيب المصري للألمانية قدّم خلاصة لهذا العمل في أحد كتبه عن محمد إقبال دون أن يشير إلى شميل، وقد تابع الشيببي المعلومات عن حضور إقبال معتمدًا على عمل المصري، الذي كان أستاذًا زائرًا في ذلك الوقت في بغداد.

لفت نظري بعض الحدة عند الشيببي في الحديث عن جهود الآخرين في درس الحلاج، فتقيمه لعمل طه عبد الباقي سرور غير منصف، وبخاصة إذا قارنا كلامه عن الشيخ سرور بكلام شميل، فأقل ما يوصف به أنه كلام جاف لا يصح في درس كدرس التصوف. كذلك عند حديثه

عن ترجمة عزام لبعض أشعار إقبال والرومي،
يستخدم لفظ "عجز" فلان عن ترجمة كذا أو إدراج
لفظة كذا. وفلان الذي نتحدث عنه كان يتقن عشر
لغات شرقية وغربية، ويجتهد بمفرده في وقته أن
يقدم ما لا يمكن لفريق من الباحثين تقديمه اليوم،
في حين أن المرحوم الشيبني يعتمد من أول
الكتاب إلى آخره على جهود أصدقائه
الذين يعدوا بالعشرات، فلان يترجم له،
وفلان يصور وفلان يلخص وفلان يفهرس.
لكن يظل علمه من الأعمال الجديرة
بالمطالعة والتدبر!

الحلاج

أحبُّ أن أسمع وأقرأ كلام الحلاج عن نور النبوة وعن الحق والحقيقة وعن الفراشة والمصباح. كلامُ المحب لا مثيل له ولا يُطلب من غائب عن النور أن يدرك النور أو أن يرى النور. لكنني لا أجد في كلام آلاف المؤمنين عن موسى أو عيسى أو محمد ما يحرك المشاعر ويجعل الجسد ينتفض من رقاذه كما يفعل صاحب الطواسين بأحرفه المقطعة التي كتب بها. حروف الحلاج إلهية لا بشرية، حينما يصف النبي بما وصفه به من أراد أن يكون قاب قوسين أو أدنى، ويقول عنه: "ما كان محمد أباً أحد، ما دخل في حائه أحد، أنطق لسانه، أثبت بنيانه، رفع شأنه". الحقيقة فعلاً لا تليق بالخلقة، والخواطر عوائق تحجب عن صاحبها ما يصل إليه المحب وحده.

أحبَّ محمدًا ربه فوصله كما أراد. وعاش الحلاج معنى النبوة فأدرك ما لا يصل إليه غيره، فتحدّث من قلب مكافحاته فلم يعد يشكّل فارقاً عنده، كأني، وأنه، وهو وأنا، وهو.

أغمض الحلاج عينه عن الأغيار فأبصر. فمن تحدّث عن محمد وموسى وعيسى وهو يبصر كل هذه الآلاف غير المؤلفة قلوبهم، كيف يصلنا منه شيء يعبر عن نور النبوة في ظل عتمة حياته؟!

قال الحلاج: "يا بني، الأديان كلّها لله عزّ وجلّ، شغل بكل دين طائفة لا اختياراً فيهم بل اختياراً عليهم، فمن لأم أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنّه اختار ذلك لنفسه، وهذا مذهب القدريّة، والقدريّة مجوس هذه الأمّة. واعلم أنّ اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام وغير ذلك من الأديان هي

ألقابٌ مختلفة وأسام متغيرة، والمقصود منها لا يتغيّر ولا يختلف".

تلميذ الحلاج في تونس

في أنطاليا حاولت أن أتابع القراءة لكتاب أحبّه، فلم أتمكّن من ذلك، شكل البيوت في أنطاليا وألانيا يبدو ساحرًا للغاية، يمتلك أغلب الإيرانيين والتجار بيوتًا هناك، أقمت على الساحل ثلاثة أيام صامتًا، تذكرت المكان وأنا أقيم لأيام في منطقة البحيرة في تونس العاصمة، هنا دفء أكثر ورحمة أكبر، استطعت أن أتابع في المكان قراءة أخبار نسيمي البغدادي (تلميذ الحلاج فكرة وشبيهه

حياة وثورة ومماتا). في منطقة البحيرة محل تابع لرجل يهودي، قديماً كان يصنع طعاماً شهياً، كل طعام يمكن أن يكون شهياً إذا تقاسمته مع حي يعيش جزءاً مما تعيشه ويعاني مما تعانيه ولو كانت كسرة خبز، تنظر إلى البيوت من خلال وجوه أهلها، تتساءل عن بيتك وعن وجهك، هل تبدو ملامحك كما يبدو هؤلاء؟ هل يمكنك أن تغترب دوماً كما اغتربوا، أو تملك بعض الشجاعة لتبني بقعة لك وتغلقها عليك وتكتفي مدى الحياة؟

إنك تحتاج كي ترى وجهي إلى عين تستطيع أن ترى الله.

كيف تستطيع العين الكليّة أن ترى وجه الله؟! وأنا أقرأ عن ياقوتة حلب عماد الدين النسيمي تلميذ حلاج الأسرار والسائر على دربه، قرأت عن كيفية إعدامه من قبل السلطة الدينية في

عصره في عام 820 هجرية 1417م بسبب
دعوته إلى الحروفية التي نُظر إليها كقضية
سياسية، فمثل هذا الصوفي تتجذب إلى أفكاره
العوام ولا بد أن يكون عبرة لغيره، وذلك بأن يُعدم
على الطريقة المالكية، فيُسلخ جسده ويُشهر به في
حلب سبعة أيام، وينادى عليه وتُقطع أعضاؤه
ويُرسل منها شيء إلى بعض أتباعه. سُئلت عن
هذه الطريقة في التعذيب والقتل التي استحقها
النسيمي الصوفي "لكفره! كما زعم الفقهاء" أيهما
الكافر؟ القاتل أم المقتول؟

قلتُ هذه صورة من صور شتى تقنن فيها
المسلمون قديمًا، ومن يقرأ موسوعة العذاب
للمشالحي سيكتشف طرائق غير إنسانية عديدة تشير
إلى غياب الرحمة في دنيا السياسة.

أغلب من قتل بسيف الشرع هو في الحقيقة مقتول بسيف السياسة، لكن العوام لا تتابع إلا الغالب ولا تبحث عما يؤرق نوم عقلها. ومن حيل الفقهاء في حالة النسيمي أن واحداً منهم كما تزوي كتب الطبقات والتراجم، وضع في طباق نعل أهداه إلى النسيمي سورة (قل هو الله أحد) وأبلغ عنه، فاستخرجوا الورقة، فسلم الشيخ أمره الله وعلم أنه لا بد أن يُقتل! وأعدم النسيمي، أعدم من قال:

إنني شمس الحب على أفق الخلود. على وجهك
تكشف الحقيقة اليوم الموعود. كل دلالات الأحرف
تبرهن على ذلك. أنت الذي تُرى في وجهك مادة
الأزل، صورتك هي صورة الرحمان البديع!

الحكيم الترمذي الرجوع إلى السعادة البدائية

هو عنوان بحث من البحوث التي طالعته وأنا في سياق بحثي عن المكتوب عن الأنتى الصوفية، قرأته نهارًا بعد مطالعتي لرسالة الحكيم الترمذي عن "بدو شأنه" ذهب الحكيم بعيدًا عن هنا وراح يتحدث عن "فرح البدء" حيث لا رسالة ولا رسول ولا تعاليم تحدُّ من شأن الإنسان، لا جنَّة ولا نار، فرحٌ محض، فرح إله بإنسان، من أجل فرح الإنسان.

لم يصف الترمذي نفسه بالصوفي أو يتحدث عن التصوف بالرسم، وإن كانت حياته وأفكاره تسير وفق النهج الصوفي. وفي رسالته هذه شرح حاله دون أن يكون أنانيًا، بحيث

يخصُّ نفسه بحسن السيرة ويلوِّث غيره، بل إن ما تحدّث به عن نفسه ذكر ما هو أفضل منه لزوج الصالحة.

هنا يكتب الصوفي قبل ألف عام سيرته، ولا ينسى أن تشاركه الأنثى في تفوّقه وتجربته الروحية الثرية، التي خلفت مؤلفات في علوم الشريعة والحكمة لا يزال بعضها مخطوطاً إلى اليوم، وإن حظي الحكيم باهتمام الدارسين من مصر والمغرب وألمانيا وغيرها من البلدان.

إن ما خطّه الحكيم جميل، بداية من (فرح البدء) والقلب واللب والفؤاد، وانتهاء برسالته التي لم تنتشر بعد (عُرس الموحدين). كان الرجل سبباً لإلهام كثيرين، وعلى رأسهم ابن عربي (الشيخ الأكبر) و(مولانا جلال الدين الرومي)، فكلاهما كانت للمرأة مكانة كبيرة في حياته وتصوفه،

وعرف للمرأة مكانتها وقدرها، ولم ينسَ واحد
منهما أن يسجّل ذلك في مؤلفاته الخالدة، فعشرات
القصص عند سيد الصوفية (الرومي) تؤكد ذلك،
وقصة حياة ابن عربي التي أنضجت الأمومة
الروحية والحب الخالد فيها شخصه وأهمته
(ترجمان الأشواق) تؤكد ذلك، لكن الحكيم الناطق
بالعربية والفارسية غاب وغابت زوجته بعيداً،
غاب الرجل وفقدت الأنثى!

ابن عربي، الشيخ الأكبر!
صدقوا ما عاهدوا الله عليه

رأى الصوفية الكبار أصحاب التجارب الحقيقية لا الورثة الصوريون، أن الإسلام والإنسانية صنوان متقابلان متكاملان لا يصعد بالإنسان شيء أو ينحط به شيء، حاولوا أن يصيغوا تجاربهم بشكل يناسب ما تعلموه ولمسوه حقيقة وكابدوا من أجله. بعض المخلصين من أتباع هؤلاء الأكابر حاولوا أن يتعرفوا على إنتاجهم، فبدءوا بشرح وتلخيص أفكارهم، كل شارح حي أراد لنفسه الحياة ولغيره، أراد أن يقرب عالماً (إنسانياً) إلى الإنسان التائه الخائض في المندوب والمكروه والحرام والواجب، أراد أن ينتشل المهدرين من عبث الخصومات والعداء، أراد أن يعرفهم شيئاً جهلوه، ربما كان سبباً لنور يصيب القلب، فتنبت فيه حياة جديدة. فعل ذلك أبناء الشيخ الأكبر ابن عربي مع ميراث أبيهم الروحي، فكل ما كتبه القونوي وابن سودكين عن شيخهما وأبيهما كان

صورة تحاول تقريب هذا العالم، وحتى من لم يكن على نهج الشيخ الأكبر وطريقته، ورأى من نفسه حسن المطالعة، ورأى أن مجتمعه في حاجة إلى إبانة وتبيين، كالشعراني حينما لخص واختصر وضمّن كتاباته نصوص الشيخ الأكبر، أراد للأحياء في مجتمعه أن يتعرفوا على صورة من صور التصوف جديرة بال العناية، صحيح أنه قدّم ابن عربي في صورة ظاهرية تبتعد به عن روح من ترجم للروحانية الإسلامية في أبهى صورها -عبر فتوحاته- إلا إنه لبي حاجة مجتمعه.

العائش يحيا ويريد الحياة لغيره، يساهم في بناء الإنسان لا في إهدار ما بقي منه كما يُحسن كثيرون اليوم فعل ذلك من هدم ونقض! روح المثنوي وقميص يوسف الذي ردّ بصراً كان مفقوداً لأزمة طويلة في الهند وبلاد فارس وبلاد

ما وراء النهر، لم تصل هذه الروح
بإسرارية مدعاة أو تصوف زائف أو خصومة
لاذعة، بل وصلت إلى من آمنوا بقميص يوسف
الذي مهما طال غيابه سيعود يوماً ليعيد الحياة!
تجربة الصوفي تجربة ألم وحزن قبل أن تكون
تجربة سعة وبسط، فيها من القبض والألم ما
لا يعرفه غيرهم، وإلا كيف صاغ صاحب أجمل
ديوان شعري تجربته بعد أن أنشد أنشودة الناي
التي تتجدد في كل لحظة؟!!

القلوب والعقائد "القلوبُ بمنزلة الأرض تُتَبَّتُ
ألواناً من العقائد، والقرآن بمنزلة الماء يمدُّ
الكل". هذا من كلام الشيخ الأكبر ابن عربي،
في كتابه شجون المسجون. وأصله من كلام النبوة:

"مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ
فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ
أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ. فَشَرِبُوا مِنْهَا
وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا
هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ
مَنْ فُقِدَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ
وَعَلِمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا. وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى
اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ".

ابن عربي والتصوف

بما أننا نتحدث عن شخصية فريدة وغنية في التراث الصوفي والتراث الإنساني بصفة عامة، وهو ابن عربي أو الشيخ الأكبر أو الكبريت الأحمر أو الوارث لعلوم الصوفية والمؤصل لها، فالحديث سيكون محفوفًا بالمخاطر، لكن هذه الكلمة إرشادية أكثر للطالبيين والمحبيين لعالم الصوفية الواسع، حفزني عليها سؤال حول مَنْ تثق في كتاباتهم حول ابن عربي؟

بالنسبة إلي، أعتبر كتاب (موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان) كتابًا مدخليًا ومفتتحًا مناسبًا للدخول إلى علم التصوف، قد يبدو الكتاب للوهلة الأولى لمن يزن الكتب بعدد الصفحات كتابًا للمتخصصين، لكنه مادة معجمية صوفية جيدة تفهم من خلالها الكثير عن التصوف، وهو في أكثر من 30 مجلدًا، هذه بداية تبشر بالإرهاق والتعب، حسنًا، لا يجب عليك أن تقرأ

الموسوعة بأكملها، ستحتاجها للتعرف على مصطلحات أهل التصوف، كذلك الأمر بالنسبة إلى كتاب لأستاذتنا الحكيمة سعاد الحكيم التي عاشت مع ابن عربي ونصوصه فترة طويلة، بدأتها منذ مراحل الطلب الأولى ولم تنته حتى اليوم -أمد الله في عمرها- كتابها (المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة) سيكون عوناً كبيراً للتعرف على المتن الأكبر كما يرى شودوكيفيتش، وهو أهم متخصص في درس ابن عربي في أيامنا، وكتابها (ابن عربي ومولد لغة جديدة) وهو من الكتب التي أثنى عليها الأستاذ الراحل اليافي لاكتشافها فيه أصالة اللغة الأكبرية. لكن الكتاب المدخلي الأهم للتعرف على سيرة ابن عربي وفكره، هو كتاب كلود عدّاس (ابن عربي: سيرته وفكره) الذي تمّ تقليده عربياً حتى اليوم في أكثر من محاولة من كتاب عرب في مصر وسوريا والعراق وبيروت، لكن أحداً من

المقلدين لم يفلح في كتابة سيرة الشيخ على النحو
البارع الذي فعلته كلود عدّاس، والكتاب متوفر
ومتاح للجميع اليوم في ترجمة ومراجعة دقيقة.
يأتي بعد كتاب كلود عدّاس كتاب
شودكيفيتش (بحر بلا ساحل) الذي يعتبر عقدًا
لنظم أفكار ابن عربي وتأصيلها قرآنيًا، وهو
متوفر أيضًا في ترجمة دار المدار الإسلامي
كسابقه. والكتاب الثالث الذي اكتشفته في هذا
الشهر الذي يعدُّ تنميرًا لعمل شودكيفيتش لكن هذه
المرّة يؤصّل أفكار ابن عربي من مدونة السنة،
هو كتاب محمد أعمارش (النص والاختلاف:
هرمينوطيقا الصورة الإلهية عند ابن
عربي). في هذه الكتب بداية مضيئة للولوج
إلى هذا العالم الأكبر.

الرد على ابن عربي

يا بني، هذا قبر ابن عربي الصوفي الطائي؛ إياك والوقية فيه! فإن العلم أوسع، والوقت أضيق.

أعجبتني هذه العبارة التي قرأتها في كتب خصوم ابن عربي، ويمكن أن أقولها لنفسي وتقال لكل مخالف لنهج بعينه، وتقال في المعاملات والاجتماعيات، فيمكن أن نقول: يا بني، هذا بيت فلان وحرمه، إياك والوقية فيه، فالعالم أوسع والوقت أضيق من أن تبدده في خصومات لا تنفع، إن كنت تتويرياً فلا تخاصم أهل الأديان لأجل ما يعتقدونه حتى لو كان تافهاً! وإن كنت متديناً فلا تستخف بمن لا يعتقد في أهمية ما تؤمن به

وتخوض في عرضه وتدنسه وتستغفر الله وتستعيد
به من الشيطان الرجيم!

أُلفت كتبٌ كثيرةٌ في الرد على ابن عربي.
وفي القرن التاسع الهجري في مصر حدثت
فتنة تشبه فتنة خلق القرآن في القرون
الأولى، وترَّعَم برهان الدين البقاعي الدمشقي
مفسر القرآن حملة لتكفير ابن الفارض وابن
عربي؛ وتلقَّف أبناء مصر في العصر
الحديث كتابات البقاعي، فأعيد نشر ما كتبه
باعتبار أن ما يقوله هو الحق المبين وعلى
أساسه تم "فضح الصوفية"، ومن مصر
انتقلت رسائل البقاعي إلى بلاد الحجاز وأعيد
نشرها من جديد، وبحث بعض الطلاب عن
رسائل مصرية قديمة كتبت في وقت الفتنة،
فأعيد نشر بعض الرسائل التي ألفت في ذم ابن
عربي واعتبار كتاباته "قبوحات هلكية" لا

"فتوحات مكية". العجيب أن رسالة من هذه الرسائل ورد فيها حصر للعلماء الذين يعتقدون في ولاية ابن عربي من المشرق والمغرب، زاد عددهم عن 180 عالمًا ومن يميلون إلى ابن عربي ولم يصنفوا في تفسير وشرح كلماته 30 عالمًا، من بين هؤلاء من كان مذهبه شافعيًا وحنبليًا، ومن كان من أهل الحديث، ومن كان من أهل الفقه، ومن كان من القضاة، كل هؤلاء في وقت واحد على اختلاف مشاربهم وعلومهم اتفقوا على أن هذا الرجل عبقرية قل أن وجود الزمان بمثله، فهل يصح أن يجتمع هؤلاء على الخطأ؟

ذكرتُ أعلاه أن البقاعي تزعم الجماعة التي قامت بتكفير ابن عربي، وأنه مفسر للقرآن، وتفسيره بحسب إقراره وتأكيد علماء عصره لم يكن ليحمل قيمة علمية لولا اعتماده على الحرالي المراكشي الصوفي صاحب مفتاح الباب

المقل والمشهور بإتقانه لعلم الحروف صوفيًا، وهو من نفس المدرسة الصوفية الحاتمية! فكيف نعتمد كلام البقاعي في مسألة، ولا نعتمد الأخرى أو ننتبه إليها أو يثير ذلك في نفوسنا سؤالاً حول حقيقة التكفير ودواعيه وبحث المسألة بشكل أوسع اعتمادًا على وثائق اجتماعية وتاريخية؟

شمس المغرب

شمس المغرب، هو عنوان كتاب سيري عن الشيخ الأكبر ابن عربي، صاحب الكتاب من الشام، أحب ابن عربي وحاول أن يكتب عنه شيئاً مفيداً، يقترب الكتاب في صورته وتتبعه لمراحل حياة ابن عربي من كتاب السيدة كلود عداس، وكتاب

عداس أقرب إلى قلبي من حيث القبول. تذكرت عنوان الكتاب وأنا أقرأ نصًا حققه باحث من المغرب برعاية جامعة أم القرى، جل النص قدح في الميراث الأكبري والتأكيد على كفر ابن عربي، من الغريب أن أقرأ النص بعد لقائي بمحققه في مصر بسبعة عشر عامًا، صدفة كان لقاءنا في عام 2000 بدار الكتب المصرية، جعلني حديثه أشك في صداقته، بعد أن ادّعى أنه وجد نسخة من كتاب "الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل" وهو كتاب ردّ فيه السخاوي على البقاعي الذي رأى أن الكتاب المقدس غير محرف، وأسس على هذه الرؤية جواز النقل عنه والاستعانة به في شرح القرآن وتعاليمه.

في تحقيق الباحث المغربي يتكّر لكل ميراثه، ولمن علموه في المغرب، فالبلد التي تثبت

الأولياء في كل شبر من أرضها، تصبح من خلال كتاباته بلادًا كفرية بما فيها من خزعات ومخالفات عقدية! والحاكم والأصل الذي يقاس عليه هو المعتقد السعودي؛ معتقد أهل السنة والجماعة.

بدالي غريبًا جدًا ما يقوله الباحث وما يفعله. ومن العجيب أن ألتقي هذا الشاب في محطة القطار في الدار البيضاء.

لقد أصبح كبيرًا جدًا! في زيه الذي يشبه زي رجل قروسطي، لكن طفلًا صغيرًا وضعيفًا خلف هذا الركاب الهائل من الأقمشة والنظارة التي تحجب عنه رؤية السعة في تلك البلاد.

من العجيب أن المغرب وهي من أحب البلاد إلى قلب كل محب للروحانية، أن تكون مقصد كل طالب للراحة والاطمئنان شرقاً وغرباً ويفعل أبنائها في ميراثها ما يفعلونه اليوم. بعض الأوربيين دخلوا الإسلام وعشقوا هذا الدين، من خلال ما عرض لهم من الميراث الأكبري، وأصبحوا من المساهمين في دراسة الظاهرة الأكبرية تحقيقاً ودراسة وترجمة، هم يخدمون تراثنا، ونحن نكفر به ونشوّه ما تبقى لنا من جماله!

ليس هذا خاصاً بالمغرب فحسب، بل هو في مصر وكافة البلدان العربية ذات الميراث الثقافي الذي تشوّه بفعل "البعثات الخليجية"، وفرّخ وأثمر في ظل فقر روحي ودماعي وانهيار اقتصادي وتسلط من ساسة، آخر همهم الإنسان، وباسم الأديان لا يحسنون إلا تفعيل مقولة

المرحوم ماركس، فيخدرون شعوبًا بأكملها باسم
الدين وهم طين متبلد!

قراءات عن ابن عربي

في هذه الفترة تشرّفت بقراءة بحوث عديدة عن
الشيخ الأكبر ابن عربي، وتتبع الكثرين
ممن كتبوا عن هذه الشخصية العظيمة التي
لا يزال الناس يهتمون بتراثها وأفكارها،
بعضهم يبجلّها، وبعضهم ينتقدها، وبعضهم
يلبسها لباسًا قديمًا، وبعضهم يجعلها ناطقة
بلسان هذا العصر، بعضهم يجعل ابن عربي
وليًا، وبعضهم يعده ناشرًا لأفكار حدائثة. تتعدد

الاهتمامات بتعدد الكتاب والنظار، لكن قليلين جدًا من يتقنون الحديث عن هذا العالم الثري.

عاش الشيخ الأكبر في نفس الفترة التي عاش فيها مولانا جلال الدين الرومي، كتب الشيخ في قونية كثيرًا من كتبه وأذاعها ابنه وتلميذه القونوي، كان صيته ذائعًا ولا يزال في أقطار العالم الإسلامي في الهند وتركيا وإيران ومصر والشام وبغداد وبلاد المغرب، لمن أراد أن ينكر على الشيخ له الحرية أن يختار ما يريد، كان الشيخ كما كان الرومي كما كان مفكرو الإسلام القدامى؛ يحتجّون على ما يعتقدون بالقرآن، فأراؤهم قامت ونبعت من تدبر حقيقي للقرآن، لا بمجرد نقر الحروف للحظة أو لحظات سرعان ما تنتهي، بل من خلال معاشة مع النص، وللأسف هذه المعاشة أصبح من الصعب أن تتوفر لمسلم من مسلمي العصر الحديث، فمن من

المسلمين اليوم يعيش مع القرآن ساعات
وساعات يتفكر ويتدبر ويتساءل؟! ربما
تجد مستشرقاً يفعل ذلك وتنتظر نتائج أفكاره حتى
تعلق عليها وتناقشها، أو كما يفعل بعض
المتهورين؛ يحاسب من تفكر وتأمّل وهو متكئ
على أريكته!

قليلون من يدركون قيمة الكلمة، ونسأل الله أن
يبارك في أنفاسهم. انشغلنا بوحدة الوجود ولم ندر
ما تعنيه الكلمة، وتركنا عقولنا لبعض الوعاظ
تلعب بها كما تريد، فاخترلت معارف الصوفية في
هذا المذهب، والبعض ردد "أدين بدين الحب" كما
نردد في الأغاني "أدين بدين الجدعة"، وإذا سألت
عن معنى الحبسّر لك كل منشد ومغن ما يعتقد
من معنى لحظة نشوة الغناء، لكن واقّعنا مخالف
لما ندين به لفظاً!

"عقد الخلائق في الإله عقائد وأنا
اعتقدت جميع ما اعتقدوه"، ظل أحد المحققين
مشغولاً بهذه الكلمة، وعند اكتشاف نسخة من
فتوحات الشيخ الأكبر، صحح النصّ وشرحه. وكل
من يحب الشيخ يردد هذه الكلمة. لكن واقعنا
أيضاً يخالف ما نقول. كان الرومي
وابن عربي من المبدعين، حضر مجالس
الرومي من اليهود والمسيحيين والبوذيين خلق
كثير، واستفاد الشيخ الأكبر من معارف
السابقين، هضم هؤلاء الأعلام ما سبق وأنتجوا لنا
نماذج عالمية بالفعل، تحرص كل بلد
لها باع في المعرفة والحضارة أن تدرس
هؤلاء، وبعضهم يتمثل بأفكارهم ويثورها في
حياته فناً وأدباً وغير ذلك، فليس غريباً أو شاذاً أو
إلحاداً أن يهتم أبناء حضارة الإسلام بهؤلاء، لكن
من غير المعقول أن يكون اهتمامنا بمن ولدنا

وتربينا على ميراثهم اهتماماً سطحياً لا يعدو قشرة
اللسان والصورة!

سرُّ الفاتحة

في إحدى المرات شكا رجلٌ إلى سالك صوفي
حاله، كان الصوفي قد سافر إلى الهند وقتاً
وهناك غاب عن كل الملهيات والشواغل، طلب
الصوفي من الشاكي أن يسرد له ما يحزنه،
اعتبر العليل أن طاقة من السماء فتحت له،
فلعل دواءه مع الشيخ الصوفي، في النهاية نصحه
الشيخ أن يقرأ سورة الفاتحة ففيها حل لكل
مشكلاته، وسيكون له ما يريد بعد تلاوتها. تعجّب

الشاكي وروى لنا ما حدث، فليس معقولاً أن
تحل مشكلاته بقراءة سورة الفاتحة، أخبرته
ساعتها أن من يعتقد في شيء يتحقق له ما يريد،
في بعض الكربات ينصحنا البعض أن نردد قول
البوصيري مدّاح النبي الأعظم: "ومن تكن برسول
الله نصرته، إن تلقه الأسدُ في آجامها تجم" ويتحقق
لك ما تريد إن شاء الله.

قد يبدو هذا الكلام مضحكاً أو غير معقول بالمرّة،
لكننا نجد ولياً كبيراً مثل الشيخ الأكبر
-الولي العصامي- لم يعترف لأحد بالأبوة
الروحانية، واعترف للأنثى العظيمة في حياته
-شمس- بالأمومة الروحانية، وبفضلها فهم الفرق
بين نسب النور ونسب الطين، كانت تخبره
شمسٌ أن الله أعطاهم فاتحة الكتاب تخدمها، فكلما
أرادت أمراً بحضوره تقرأ فاتحة الكتاب ويقرأ
معها، تنشئ فاتحة الكتاب بقراءة هذه السيدة

النورانية صورة مجسّدة، ثم تطلب منها أن تفعل
كذا وكذا. فهي تتصرف في العالم ويظهر عنها
خرق عوائد بفاتحة الكتاب بحسب رواية ابن
عربي- وكانت السيدة شمس تظنُّ أن هذا متاح
لكلِّ أحد، بل وتعجب ممن يعناص عليه شيء
وعنده فاتحة الكتاب. ليس الاعتقاد في فاعلية
تلاوة الفاتحة مقتصرًا على عوام الصوفية،
بل يعتقد الكبار في ذلك، وهم أصحاب التجارب،
فإنكار ذلك كلية ما أسهله، لكن الفهم والتدبر
والإيمان هو الأصعب!

الإنسان الكامل

قبل قليل استمعتُ إلى محاضرة عن الإنسان
الكامل، بدا التركيب بالنسبة إليّ عزيز

المنال، فكيف نصف إنسانًا بالكمال؟ ربما نفعل ذلك مع نبي أو مصطفى أو رسول إلهي، سرعان ما يوجد للحظات ويختفي من حياتنا، نؤمن به ونشهد له ثم نمضي نتابع الحياة التي يصعب أن نصف أجزاء كثيرة منها بالكمال، أو أن نصف أنفسنا بالكمال، لحظات قليلة تمرُّ بنا كحلم تعلق فيها دهشتنا لا ندري كيف نتعامل معها، بسجود أم بصراخ، أم ببيكاء، أم بتسجيل لها على سنّة هذا العصر! لكنها تتقضي سريعًا، ونظل نبحث عن كيفية تجديدها، لكن ذلك لا يحدث. كيف يمكننا اليوم الحديث عن (إنسان كامل) نبتغيه، أو تحدّث عنه أجدادنا، حضًا على تخلقينا له، أو سعيًا لإيجاده من هذه النُطف المشوّهة، إنسان كامل في عصر من الصعب العثور فيه على إنسان يحاول متابعة سؤاله لنفسه! وتقويمه لها، إنسان كامل وأحدهم يبحث في وضوح النهار ويمسك بقنديل كي يعثر على

إنسان حق فلا يجد، إنسان كامل في ظل هذه
المعاملات الصعبة جدًّا والمرهقة بل والدمرة
أحيانًا للأدميين، فضلًا عن محوها
وسحقها للأحلام، خاطرتني هذه العبارة وأنا
أستمع إلى مداخلة كانت جيدة لغةً، ذكّرتني بما قاله
الصوفية بالأمس البعيد، لكن الواقع يطرقنا
بمطارق من حديد دون رحمة!

الإنسان الكامل عند ابن عربي

هو العارف بالأسماء الإلهية المدرك لها، المتجلية
فيه وله، ليس سفاكًا للدماء ولا مفسدًا في

الأرض كما تصوّرت الملائكة خطأ، لأنها بعد
اعتراضها اعترفت بأن لا علم لها.

أمّا السّفاح المفسد في الأرض فهو الإنسان
الحيوان، الذي لا انسجام في باطنه، تتصارع
بداخله الأسماء المتضادة، فتبقى روحه مرتبطة
بعلائق المادة، سقيمة غير معافاة، شقية لا تتال
الكمال والسعادة الحقّة، حبّها وشوقها في غير
محلّها، ليست سليمة ولا السلام حال بها. إن
صاحب هذه الروح إنسانٌ بالشكل، لا بالحقيقة، أمّا
الإنسان الحقُّ فهو الإنسانُ الكامل، المعافى،
السليم والخالد في دار السلام، تحقُّ عليه كلمة
السلام.

عبد الحليم محمود

(الحمد لله هذه حياتي)، كتاب للشيخ عبد الحليم محمود، هو سيرة لحياة صوفي معاصر، يبدأ بالحمد وينتهي بالحمد لله، يبدأ بالرضا ولا يخلو من الغضب، لكنه يعبر عن حياة ثرية بالأعمال التي لم تتوقف لحظة، يمكن أن يكون تعبيراً دقيقاً عن كيف عاش صوفي اليوم حياته الشخصية والعملية مقتدياً بالصوفية الأوائل، حتى أن آراءه في كافة فروع العلوم الإسلامية تعد امتداداً لآراء مشاهير الصوفية السابقين، ومن جميل ما يقدمه في هذا الكتاب، نظراته في القرآن التي تتقاطع في صورتها مع حديث معاصريه بصرف النظر عن اختلاف مشاربهم.

عبد الحليم محمود وأبو الحسن الشاذلي

"اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلي!"

زار الشيخ عبد الحليم محمود تونس مدة شهر واحد، ودرّس في الزيتونة ذلك الشهر، في الستينيات كانت ظروف البلاد العربية تتشابه إلى حد ما مع أجواء القرن السابع الهجري، كان الشيخ المصري قد عرف القليل عن أبي الحسن الشاذلي الشخصية الصوفية المشتركة بين مصر والمغرب الكبير، سمع بمكان تعبّده في الجبل قرب تونس العاصمة، فحرص على الذهاب إليه، في كل يوم أقيمت فيه الحاضرة شارك الشيخ عبد الحليم محمود فيها، قرأ الأوراد والأذكار حزباً كبيراً أو بسيطاً، وفرح بأن تعبّد في نفس المكان،

يريد للرؤيا أن تتحقق؛ فقد رأى في منامه وهو في مصر من يأمره بالكتابة عن الشاذلي، اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلي! انشغل الشيخ عبد الحليم محمود بكتابات أخرى عن الإيمان، عن سهل التستري، ضاعت أوراقه وكتبه، ويتذكر الهاتف في المنام: اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلي! كان الشيخ قد جمع مواد بحثه التي تساعده على التعرف على حياة الشاذلي والتعريف به، من مصر وتونس وليبيا، جمع مصادر كثيرة، مخطوطة ومطبوعة، لكن كل هذا لم يساعده على الكتابة، ما حرّكه وقوّى عزمه الحياة مع الشاذلي، والعيش مع موضوعه، مرت سنوات عدة لم يكتب فيها حرفاً عن الشاذلي، حتى نضجت الحياة وباح بما لديه بحبّ وبساطة وأريحية، فكتب عن الشاذلي تجربةً وتاريخاً، والشاذلية طريقةً وتطوراً!

الغزالي ورأينا صواب يحتمل الخطأ

بالأمس قرأت مادة عن الغزالي "حجة الإسلام" تحيل إلى أن الإحاطة بما كتب عن الغزالي يصعب جداً، والقطع بأن أحداً قرأ الغزالي ومدوناته كاملة وأدرك ما فيها أمر صعب للغاية، وقد وافقت على هذا الرأي، فادعاء الإحاطة بمسألة اليوم ادعاء يفتقر إلى التواضع وينافي روح البحث التي تكتشف الجديد كل يوم، فتجعل معارفنا بحاجة إلى تطوير دائم. سأضرب مثلاً على ذلك بالغزالي المصري المعاصر، خاصم الغزالي جزءاً كبيراً من المدونة الصوفية، ورأى أن فيه خرافات كانت من أسباب تدهور حال

المسلمين وتلويث سمعة الإسلام، يمكن عدّ رأي الغزالي امتداداً لرأي مؤسس جماعة الإخوان حسن البنا فيما يخص التصوف وأدبياته التي كانت بحاجة إلى تقويم، حاول هو أن يقوم به في وقت من الأوقات، لكنه فشل تارة ونجح تارة، فشل في قراءة قسط كبير من تعاليمه فلم يقرأها كما قرأها والده، حمل الغزالي على التفسير الصوفية حملة كبيرة في أكثر من مناسبة، لكن فعله هذا لم يحجب عنه معارف الصوفية أو يمنعه من الاستفادة منها، بل إنه ينص في إحدى مقالاته على أن من جملة ما حسنّ صلته بالإسلام كلام ابن عطاء الله السكندري، ويرى أن ما فعله الصوفية من ربط القلوب بالله لم يفعله أو يحسن فعله غيرهم، وأنها في حاجة ماسة إلى مشاركتهم في الحياة الاجتماعية حتى تكتمل دائرة الإسلام. وفي السياق نفسه ينعي على الفقهاء والمتكلمين ما انصرفوا إلى الاهتمام به من زائف

المشكلات... أغلب من كتب عن
الغزالي وغيره من المعاصرين يعدونه خصمًا
للتصوف ولا يراجع أحد نفسه فيما يحمله من
آراء، مثل هذا يجعلني أقف على نسبة أغلب
الآراء، واحتمال الخطأ في جميعها، فما نكتبه
مجرد قراءة من آلاف القراءات تحتاج إلى صقل
مدى الحياة!

الإخوان المفسدون!

كان حسن البناء المؤسس لجماعة الإخوان
(المفسدين) حسب وصف الشيخ عبد اللطيف
السبكي الأزهرى صوفيًا حصافيًا شاذليًا، وله في

التصوف بعض مقالات سار فيها على خَطِي
الجُنيد السالك- في صورته العربية- إذ الجُنيد عند
العرب صوفيٌّ صراطيٌّ لا يشطح ولا يسكر،
وعلى نقيض هذه الصورة عند أهل العرفان
الفارسي- تربيّ البنا على الفكر الصوفي، وعاصر
الشيخ محمود خطاب السبكي، وكان ذا صلة قوية
بدعوة الشيخ، كما كان البنا ذا صلة بمشاخ
التصوف في صعيد مصر والدلتا، بحكم ارتحاله
الكثير. وله في التصوف مقالات، وإن كانت تخلو
من الروح الصوفي المنشود، إلا إن نسبته إلى
التصوف لا يماري فيها من يطالع سيرته
ومذكراته وما كتب عنه! كذلك من يتابع سير
جماعته في مصر وفي كافة البلدان، يتعرف بدقة
على ما استفادة حسن البنا من الفكر
الصوفي واستغلاله لأغراض الدعوة. رحم الله
من مضى ومن لا يزال يكابد!

صورة حسن البنا

حكاية بالعامية المصرية: "كان فيه شيخ، لحيته طويله قوي وواحد من تلاميذه أشفق عليه، فقال له (يا عم الشيخ انت لما بتيجي تنام بتحط اللحية فوق الغطا واللا تحته؟)، قاله (يا ابني معرفش بحط جنبى ع الفراش وبنام وخلص) لما روح الشيخ عشان ينام فضل يحط اللحية مره فوق الغطا ومره تحته لحد الصبح، وراح النوم من عينه! لما شاف تلميذه الصبح، قاله (الله يسامحك! إنت كنت سبب في حرمانى من النوم)!"

ضرب الشيخ حسن البنا هذا المثل لتلميذ له
أنكر عليه اهتزاز جسده وهو يقرأ القرآن،
وحاول الشيخ الاستجابة لنصحه، لكن انشغاله
بالنصيحة فوّت عليه تدبر القرآن.

حينما يقدّم الشيخ حسن الشافعي رضي الله عنه،
حسن البنا على هذا النحو، فهو يقدّم شيخاً
جليل القدر كبير القلب والعقل، ربما لأنه عاش
في تلك الفترة، وتلقّى على أيدي المشايخ ورأى
منهم بعين المحب ما ساهم في تكوينه،
رسم هذه الصورة الجميلة، لكن في السياق نفسه
من خلال قراءتي لمذكرات البنا ورسائله، كان
البنا مشغولاً بالإنكار على الآخرين، فأبدى
اعتراضه على تقدير المريد لشيخه عند الصوفية،
كما اعترض على طرائق الذكر، ورغم أنه كان
يتقرّب إلى مشايخ الصوفية في بدو شأنه، بكل
إجلال وإكبار، إلا إنه سرعان ما انقلب عليهم،

والتصرفات نفسها التي أنكرها، يجدها المخاصم
لفكره بشكل أكبر عنده وعند أتباع جماعته.

في هذا السياق هناك إشارة مفيدة أيضاً
عند الدكتور بيومي، في كتابه عن الفكر
السياسي عند البناء، يتمكن الباحث من خلالها من
متابعة آراء البناء في التصوف، عبر مطالعته لستة
مقالات كتبها عن التصوف!

سيد قطب والتصوف

تعلم سيد قطب من الصوفية الكثير، يدرك ذلك من
قرأ أشعاره وطالع التفسير، كتب ضلاله هو، وبعيداً

عما أثير حول الظلال في الدول الإسلامية -مُحيت
الآن بعض هذه الآثار، ونُسي الظل وبقيت عند
بعض البشر صورة الرجل- قال الرجل في ختام
تسجيله لما ذاق من معاني: "هذه ظلالِي فاكتب
أنت أيضًا ظلالك". لكن الأتباع لا يكتبون بمداد
قلوبهم شيئًا، ويحبون أن يطعموا القديد ويُطعموا
غيرهم ما لم يعد له مذاق في أفواه من أرادوا
الحياة.

أكتبُ لنفسي لأتعرّف علي، هذا درس من دروس
الأحياء قَلَّ من يواظب عليه!

علي جمعة

الشيخ علي جمعة من المعلمين المهرة، وممن يحسنون تقديم المعلومة للطلاب بلغة مبسطة جدًا، يستطيع بأسلوبه أن يجمع الجماهير الغفيرة حوله، قدّم للطلاب في الأزهر خدمات جليلة ولا يزال يقدم للمغتربين قبل أبناء البلد. لو ظل الشيخ على هذا المسلك لكفاه، لكنه جمع إلى ذلك مسحة صوفية ميّزت تربيته للطلاب غير العرب، فزاد إحسانه. لكن الخسارة الكبيرة لهذا الشيخ الكبير صيتًا وسمعةً وعلماً أنه اقتحم مجال السياسة وتصدّرت طغمة من طلابه للحديث عما لا يتقنون، ومن هنا رغب الكثيرون عن متابعته بعد أن كانت الجماهير تسعى إليه، وصار المنفتح منغلقًا. ليت هذا الشيخ كان في بلاد غير هذه البلاد أو ليتنا لم نخلق هنا!

دراسات عن التصوف

كتب الدكتور أحمد الجزّار عدة دراسات عن التصوف وحضوره في فكر الأعلام في العصر الحديث، من أمثال الإمام محمد عبده والشيخ عبد القادر الجزائري وابن باديس، ومن أساتذته اختار الأستاذ أحمد محمود صبحي، ومما يعطي لدراساته كبير أهمية، مطالعته للتراث الصوفي ومساهمته فيه بالبحث والقراءة والتحليل، بداية من أطروحته عن شطحات الصوفية وكتاباتة عن الحب والولاية والفناء عند ابن عربي، وقراءته للدلالات الروحية للعبادات عند الصوفية، وعروجه إلى

عالم التصوف الفارسي الرحب. لفت نظري وأنا أطلع دراسته عن الإمام محمد عبده، تصحيحه لبعض المفاهيم المغلوطة عن رؤية الشيخ للتصوف، وتقريبه بين التصوف والصوفية، ولم يركز كعادة الطرقيين على نشأة محمد عبده الصوفية، بل بدأ من كيف يرى الإمام الدين وماذا يمكن أن يقدمه التصوف للفرد والمجتمع. تابع الأستاذ الجزار بعض آراء الشيخ مصطفى عبد الرازق تلميذ الإمام، ويظهر في دراسة الأستاذ الجزار تبجيل كبير للشيخ يخالف فيه أستاذه أحمد محمود صبحي، وتلك نقطة هامة تعني أن التقليد لا ينتج باحثاً، فليس شرطاً أن يتابع التلميذ أستاذه كما هو متبع اليوم، مما أنتج جيلاً مشوّهاً ودراسات لا تقيد أبداً. من دراسة الأستاذ الجزار عن الإمام الراحل انتقلت إلى قراءة دراسته عن أستاذه صبحي، وهي دراسة فيها كثير من العرفان بالجميل لهذا

الراحل الموسوعي، وتقدير لما قدمه لدرس الفلسفة الإسلامية، كانت معلوماتي عن الأستاذ صبحي مشوشة نوعاً ما، فضبطت بعضها بناء على هذه الدراسة، ثم رحلت أقرأ له من جديد، فطالعت دراسة للأستاذ صبحي عن حركة التجديد في العالم الإسلامي، كانت صورة محمد عبده في هذه الدراسة صورة رجل عادي، بل إن محمود تفوق عليه في بعض نظراته إلى القرآن! تذكرت وأنا أقرأ صورة الرجلين عبده والأفغاني عند العلامة بدوي، وإن لم يكن الأستاذ صبحي مجحفاً لهما كما فعل بدوي. لم يعول الأستاذ صبحي في دراسته على أحد من المصلحين أو المجددين باستثناء محمد إقبال، معتمداً على نظراته لكيفية التجديد وما يقدمه المجدد، وعول كثيراً على أهمية التصوف الذي لم يكن يظهر لي من قبل مكانته عنده.

مكانة التصوف في فكر الأستاذ صبحي هي ما جعلته يقدم قراءة لكتاب أستاذه زكي نجيب محمود (المعقول واللامعقول في تراثا الفكري) ينتقد فيها أستاذه في هدوء وأناة وعلمية راقية، ظهر في نقده كمدافع عن التصوف وأعلامه وأفكاره من أجل إحقاق حق يراه. مثل هذه الجوانب الراقية في تاريخنا الثقافي المصري كثيرة، تلتقط حبة من بذور المحبة التي ينثرها المخلصون فتفتح لك بستاناً، لا يكتب هؤلاء بغموض أو تعقيد، ولا يتكبر هؤلاء ويتواضعون للصغير والكبير، ولا تُوظف أقلامهم لخدمة فكر أو مذهب أو مؤسسة، بل من أجل العلم والمعرفة، لذا فإن متابعة هؤلاء تقيد كل من يحاول الفهم ويتابع البحث.

مريم و المسيح

شاهدت تمثالاً لونه أبيض يجسّد السيدة العذراء، لا أزال أذكر هذا التمثال الذي يذكرني بلون القلب الأبيض الحي، فكلما ذهبت بعيداً أتذكّره وأتذكر الصلاة التي صاحبت رؤيتي له، كانت الصلاة إسلامية، لكن ما سبقها وتلاها لا يمكن أن يوضع له اسم أو وصف لأنه كان متعالياً على الصفات، رحلة مريم أيضاً بكل ما لفّها من غموض بداية أو نهاية وما صاحبها من أساطير، لا يمكن أن توصف إلا بالمقدّس، الذي يعني من جملة ما يعنيه، التعالّي عن هوس الملاحقات، التعالّي عن الإمساك به أو نفيه أو إثباته، الحي المتجدد لا يسجن ولا يحدُّ. مريم إن

حرّم الفقيه تجسيدها في تمثال، وجعل بيتها سجنًا
لها، يظل قلبها مبتسمًا بما تطعمه من مائدة السماء،
تنزل المائدة لها دون طلب، لا تحتاج إلى
حواريين، قلبها الأبيض يغنيها عن صحبة
الزائلين، كل شعرة من مريم تتدلى منها ملايين
الأنفس، هي لا تنتظر عملاً بشريًا ولا
ملائكيًا، هي أقنوم كامل، وإنسان كامل، كلما
تساقطت من عنيتها دمة يمتلأ العالم من حولها
بالنور. مريم أمُّ النور، واهبة الحياة، القرب منها
وحده الحياة، بل هي الحياة كلها!

مريمُ هي المثال الأسمى في تذوق الكلام الإلهي والتعبير عن تجربة الحياة مع المطلق، ومن إشارتها تعلم الصوفية البوح بالرمز والإشارة! ولم يكلموا الناس إلا رمزاً وإن دونت أعمالهم في آلاف الصفحات!

استطاعت أنماري شيمل عاشقة الإسلام والتصوف، أن تتسج من درر الصوفية ثوباً لمريم المسلمة، وبصورة خاصة ما قرأته عند مولانا جلال الدين الرومي، فوجدتها عندهم بمنزلة النفس التي بصمت تتقبل قدرها؛ نفخ الروح من الله سبحانه.

نفس العاشق "نور على نور" مثل مريم التي حملت عيسى في بطنها. لأن النور الإلهي يجعل الصوفي حاملاً روحياً مثلها. مصابرتها ويقينها عوضاً فيما بعد بالرحمة الإلهية، عندما تساقط

عليها الرطب الجنى من النخلة الجافة، ولذلك
فإن النفس الكئيبة الآسية، التي تعاني آلام الولادة
الروحية الشديدة، تجد رطب الرحمة الجنى.

المعشوق نخلة عجيبة -تلك الشجرة التي تحتها
جربت مريم معجزة الرحمة الإلهية، عندما تساقط
عليها الرطب الجنى في أثناء آلام الوضع-
والعاشق يؤكد: لأنى أنام في ظل نخلته، صرت
أحلى من الرطب، أه نعم!

مريم

يكفى مريمُ شرفاً أن الله اختارها لتحمل من روحه
نفخة إلهية، يولد منها المسيح رمز النفس البشرية
التي تحققت بعد أن كانت روحاً فحسب. يقول
مولانا جلال الدين الرومى: "جسمنا يشبه

مريم العذراء: كل واحد منا يحمل عيسى
بداخله. لكن ما لم تظهر فينا آلام المخاض
فإن عيسانا لا يولد".

يشبه الصوفية قلب الإنسان بالمسيح الذي غُذي
لبن مريم الذي يماثل ذكر الله، ومن يذكر الله دومًا
يكون جليسه بعيدًا عن الزمان والمكان! قال الله:
أنا جليسٌ من ذكرني.

مُحَمَّدٌ وَمَرِيْمٌ

"عُذْرِيَّةٌ مَرِيْمٌ فِي مَقَابِلِ أُمَّيَّةِ مُحَمَّدٍ"، هَذَا
التعبير من التعابير الاستشراقية التي نجدها

عند أغلب من دونوا سيرة النبي محمد من المستشرقين، فلا تقرأ كتابًا من هذه الكتب إلا ويصادفك هذا التعبير، عُذرية مريم تقابلها أمية محمد، "فمريم حملت بكلمة من الله بغلام دون أن يمسه بشر، ومحمد حمل كلام الله وتلقَى البشارة (القرآن) دون أن يتلوث قلبه بالمعارف". و"المبشر بالكلمة في كلتا الحالتين هو الروح القدس، الملك جبريل، الذي يظهر بشكل رجل".

"وسؤال مريم: (أَنْتِ □ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا) [مريم: 20]، يقابله الاستنكار التعجبي الذي جعل محمدًا يردد في كل مرة يطلب منه الملك القراءة فيجيب: ما أنا بقارئ" ..

مريم هي التي أنتجت المسيح الذي صار فيما بعد لحم المسيحية ودمها وماءها وروحها. بدون المسيح لا خلاص للبشر، وبدون مريم لم يكن

المسيح يوماً. المسيح ليس بشراً فحسب عند من يؤمن بصورته الكاملة، المسيح حياة تبدأ ولا تنتهي أبداً! كذا محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي لم أراه ولن أرى منه إلا ظلاً من ظلال نوره، بدونه ما كان إسلام وما كانت معرفة بالله على الصورة التي وردت وتغنى بها أهل الكلام قديماً، وورثوا أهل الإسلام (كلاماً) لا (إيماناً)، لا يُنظر له عند فرق الإسلام كشخص عادي أو رسول ذكر في التاريخ وانتهى أمره بإبلاغه رسالة أو تأديته أمانة، محمدٌ في البداية (كان نبياً و آدم بين الماء والطين) و(أول ما خلق الله نوره) عند المسلمين. محمدٌ الشخص / الإنسان الكامل. محمدٌ الفكرة والبذرة (تقلَّب في الساجدين). على باب الجنة محمد، وفي الدنيا محمد، وفي الآخرة محمد هو الشفيع! لا إسلام دون محمد، ولا قرآن دون محمد، ولا خلاص ولا نجاة دون محمد.

ومن محبة المسلمين في السيدة مريم، أن الصوفية الجدد من المستشرقين الذين أسلموا في أوروبا أسسوا طريقة صوفية تُسمّى الطريقة المريمية، ويجد هؤلاء المثقفون في الشرق المسلم طريقاً لحياة الحكمة والاتصال مع العالم اللامحدود.

صورة السيد المسيح في التراث الصوفي

فَنَشَتْ عن صورة السيد المسيح في التراث الصوفي في أمور شتى، لكن ما أسعدني بالفعل تعامل الصوفية الراقية مع المسيح الغائب، الذي بحثوا عنه في أنفسهم فصار حياً بالجسد والتجربة والمواقف، ما سجّلوه عن المسيح قد يكون في أغلبه أسطورة أو رمزاً أو قصة من نسج خيالهم كان بطلها المسيح الحي حقاً بولادتهم.

حينما تقرأ أن صوفيًا يعتبر قلب الإنسان بمنزلة عيسى، وذكر الله كلبن مريم، فإذا منح الإنسان الروح غذاءها تطهرت وتقوت وولد عيسى الباطن في حناياها، تظل تبحث عن هذا المسيح الغائب دون أن تكون بحاجة إلى قصة من قصص بني إسرائيل أو النقاتة إلى ما يقوله التاريخ، هذا باب آخر من الأبواب المفتوحة على عالم لا تدركه الكلمات.

هنا تردد مع مولانا الرومي بمحبة: حبذا مائدة المسيح التي لا تنقص، وحبذا فاكهة مريم التي طلعت دون حديقة.

لأنه: ما لم يعف لسانك عن القول لن يعطك الله إذنًا بالكلام مرة ثانية.

لو لم تكن مريم قد انقطعت عن الكلام أولاً ما بادر المسيح إلى الحديث.

السيد المسيح بعيون صوفية

ختمت مقالاً عن السيد المسيح بهذه الكلمة: نقرأ اليوم كلام الصوفية عن المسيح، تتداعى إلى أذهاننا مشاهد العنف والكرهية، ونشعر أنه أريد بنا أن نقرأ حروف العدم مع (أساتذة ومشايخ وعلماء)! لا يعرفون شيئاً عن محمد ولم يلمسوا شيئاً من روحانية المسيح. خلق الصوفية عالمهم نعم، لكنهم خلقوا عالماً سامياً وجميلاً ليس للقبح فيه مكان، عجنوا طينتهم

الآدمية بمشاعر خالطت كل ذرة فيهم، فمن رأى أن عيسى عالج كل الأمراض إلا الحماسة كان مصيباً في رؤيته، ومن رأى أن حمار عيسى هو النفس البهيمية التي لا يصعد المرء بها إلى السماء كان مصيباً، ومن رأى أن حبة القمح لا تثمر إلا بكلمة عيسى كان مصيباً، ومن رأى أن شفة محبوبه هي عيسى كان مصيباً، ومن رأى أن أوتار الرباب كمرم إن كدح الإنسان وتعلم العزف استطاع أن يبعث من خلالها عيسى النغم كان مصيباً. على قدر اجتهادهم في صناعة عالم من الجمال أصابوا وأفادوا، وما دمّرت رؤيتهم أحداً ولا شوّهت عالماً، على عكس صنيع غيرهم الذي أتعس الإنسان ودمّره اليوم.

المسيح الذي نعرفه مسيح يتعالى علي التصنيفات والتحزب، مسيح لا يحرم أحداً حقّ تصويره لحياته، ينقلك من العتمة إلى النور، لا

يمتهن الميئة فضلا عن الأحياء، لا يحابي أحدًا من
أجل العملة، ترك ما لقيصر له ومضى في طريق
الله، علم أن الدنيا دار للغدر والخيانة، سعى قدمه
إلى حقه بنشره لرسالة، لم يعلن ذاته ليل نهار، بل
ظل يقول: "إلهي إلهي". صورة المسيح في تراثنا
الصوفي أجمل من كل الصور التي نقرأها عند
أهل المذاهب المتناحرة على امتلاكها وحدها
الصواب دون غيرها.

صورة السيد المسيح في أدبيات التصوف صورة
للصوفي السائح في الأرض، لا يحمل معه سوى
روحه ويرحل عن كل ما حوله، تاركًا خلفه كل
شيء، يترك الصخب والكلام والناس ويجدد
سنة الصوم للرحمن، يحمل معه مشطًا ليسرح
شعره، وزجاجة صغيرة من الماء، تنتزل عليه
الحكم وتطيعه الوحوش، ويعرف منطق الطير،
ويصل إلى سر الأسرار.

بيت الله قلب الإنسان

جميلة عبارة السيد المسيح عليه السلام في إنجيل متى: "بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" إذا فهمته على معناه الصوفي من أن بيت الله قلب الإنسان، إذا شغله بغير ما يستحق جعله نهباً للصوص لا يفترض أن لهم مكاناً خارج هذا البيت فضلاً عن دخولهم فيه وتنازعهم، كل واحد ينهب قطعة اللص (في كافة صوره) الذي جاور المسيح (النفس الإلهية) لا يستحق أن يجد طريقه إلى داخلنا، ومهما احتال بحيل كثيرة يجب على

البيت أن يتذكر العهد العتيق: "ونفخت فيه
من روعي" ويؤمن دومًا بالميلاد الجديد!

هو مسيحيٌّ. لماذا أنتم غير مسيحيين؟

أورد فروزانفر الرواية التالية في سيرة مولانا
معتبرًا إياها دليلًا على ترسيخه في حياته أصل
الصلح والمسالمة مع الملل والمذاهب، وأنه كان
يرى المسلمين واليهود والنصارى بنظر واحد،
وقد كان يدعو المريدين إلى ذلك أيضًا، ونصّ
الرواية: "في أحد الأيام انفعل مولانا كثيرًا
في السّماع واستغرق في لقاء الحبيب وكان يعيش
أحوالاً، وعلى حين غرّة دخل رجل سكرانٌ إلى

السَّماع فأخذ يتأوّه وكان يرمي بنفسه كمن فقد
الوعيَ على حضرة مولانا، فأذاه أصحابُ مولانا،
فقال: قد شرب شرابه، وأنتم تسيئون الخُلق في
السُّكر. قالوا: هو مسيحيٌّ. قال: هو مسيحيٌّ لماذا
أنتم غير مسيحيين؟ فأطرقوا وأخذوا في
الاستغفار".

إيمان العجائز

يُقصد بإيمان العجائز الاعتقاد البسيط الذي لا
يدخل في كثير من التفاصيل المقلقة أو العارضة
للأفكار على ميزان العقل أو النقل، هو إيمان
تسليمي لا يخوض في المشكلات الكلامية، ويكتفي

بالتطبيق والممارسة، ليس في حاجة إلى تنظير لإثبات حقيته، فله منطقه الخاص المستغني عن أي إحقاقات من قبل سلطة روحية أو زمنية، وهو مرغوب كثير من القلوب والعقول التي أرهقها البحث والتجريب، غير أن هذا الإيمان في الآونة الأخيرة أضحى عرضة للاستغلال من قبل تيارات عدّة، يستوي في ذلك التحديثي والسلفي، والمتابع للتدين المؤسسي، أغلب هؤلاء فرضوا على العجائز والعوام ألواناً من صنوف الاعتقادات أصبح لزاماً عليهم أن يعتقدوا فيها، ويطهروا أفكارهم من الموروثات التي اختلط فيها الديني بالمحلي، وصُنفت في إطار البدع والأهواء والمخالفات، وقد استسلم الكثيرون من العجائز لمن يحاولون "تطهير اعتقادهم" من "أدران الشرك" و "المخالفات العقدية" فجرى علي الألسنة ما كان حبيساً بين طيات الكتب، وأصبح المتدين (المتفقه) يجرهم

جرًا إلى مشكلات قديمة زائفة، كمشكلة خلق القرآن، وفتن الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد، مريدًا بذلك أن يكسب هؤلاء البسطاء إلى صفه، ويأخذ بأيديهم بعيدًا عن درك الانحدار.

دعاء الأمهات

في الليلة الماضية كنت أفكر في دعاء الأمهات، أربعون عامًا كلما تعاملت مع سيدة من الطبيبات أو تابعت حياتها، أجدها لا تكف عن الدعاء وتكثر من الصلاة والصيام وتظل تدعو ليل نهار بصلاح الحال والتوفيق والنجاح، في الشرق والغرب وفي كل الجهات أمهات على هذه الصورة، وواقع

الحال يخبر أن هذا الجيل من الأبناء يعيش أسوأ الظروف ويعاني ويكابد من أجل حياة بسيطة. هل الدعاء مجرد عبادة أو عادة تعبر عن ضعف الإنسان وقلة حيلته وعجزه؟

هل الدعاء مجرد كلمات يطلقها اللسان في الهواء؟ هل بالفعل يغيّر الدعاء القدر ويسمع الله من الضعفاء ويلبي حاجاتهم؟

تدين الصادقين

الذي يدرك الفارق الحقيقي بين الحلال والحرام والواجب والمكروه، هو أنا وأنت، والدك ووالدتك،

العجائز الذين لم يتلوثوا بعد بالطمع والجشع
ويدركون ما لهم وما عليهم، السكارى الذين
يحتجبون عن الخلق ولا ينشغلون إلا بأنفسهم
ولا ينظرون ولا يُنظر إليهم، العاملون في
المصانع من أجل أن يعطوا خبزهم كفافاً ويطلبون
بعد الكد والقهر وإهدار الكرامة من ربهم أن يغفر
لهم ذنوبهم. أما من يشرّع لي ولك ويحدد الصواب
والخطأ اليوم، غالباً ما يفرُّ من حيله إبليس
المسكين وينظر إلى السماء معلناً البراءة من
أفعاله!

حبُّ الوالدين للأبناء

ليس هناك شك في كون الوالدين يحبون الأبناء، ويعبرون عن ذلك بطرق قد لا تظهر هذه المحبة بل تظهر أحياناً العكس، بل وتغضبنا أحياناً وتجعل الحياة متشحة بالسواد.

في مرحلة معينة يمكننا إرضاء الوالدين بطرق عدة، لكننا نصل في وقت معين ونجد أننا كما يقول شمس تبريزي لم نقطع من نفس القماش، نجد أننا كصغار البط التي أنجبتها دجاجة بفعل وضع البيض قدرًا في هذا العش، نحبههم جدًّا، ونخشى أن نغضبهم، لكننا لا نجد وسيلة للتنازل عن أفكارنا التي بدأنا نكونها لبنة لبنة حتى يستقيم بناؤنا، أولياء النذرة هم الآباء والأمهات، لا شبيه لهم فيما انعقدت عليه قلوبهم، في دواخل قلوبهم بذرة الحياة الحقّة، لكنهم ورثوا تركة مزعجة لهم أخذت من لحومهم ودمائهم وحياتهم، ثقتهم أجسادهم بجراح طويلة دون رحمة، لم يعد لديهم

من الوقت أو القوة ما يمكنهم من النهوض والبدء
بمداواة هذه الآلام، تبكي الآباء في سرها دون أن
نراها، تصرخ الأمهات من آلامها دون أن نسمع،
يحبون لنا كل جميل حتى لو قطعوا قطعاً من
أجسادهم كي نحيا، لكن ألسنتهم لم تعد تسعفهم
للتعبير عن ذلك. لو سجدنا ألف سجدة في اليوم
على هبتهم لنا الحياة لن نوفيهم حقهم، نحن لا
نستطيع اليوم أن نهب أحداً حياة، ونحسب كل ثانية
كيف نحيا وكيف نستطيع النهوض، لكننا نرجو من
الآباء والأمهات أن يتركونا دون ميراث، لا نريد
ثلثاً ولا نصفاً، ولن يحتاج أحد منا إلى العول، كفانا
ما نراه من عويل وصراخ ويأس في عيون أطفال
وشباب أمثالهم في ركن آخر من هذا العالم
يعيشون الحياة كما يجب أن تعاش! هذه مجرد
سجدة أسجدها للوالدين ليرفعوا رءوسنا
وجباهنا من الأرض لنسعد بسمائنا نحن!

لا تجرح أحدًا في محبوبه

من يحب يرفع محبوبه فوق كل شيء ولا يرى شبيهًا أو مثيلًا له، فالله ليس كمثلته شيء، والنبى صلى الله عليه وسلم خلق مبرءًا من كل عيب إنسانًا كاملًا ونورًا تامًا، ومولانا جلال الدين الرومي يقول عنه شمس تبريزي مرآته وانعكاسه الحق: "لم يخلق الله على وجه الأرض من يمكن أن يكون شيخًا لمولانا"! بهذه الصورة من المحبة كتبت سيرة الأنبياء والأولياء، ومن أجل الدفاع عن هذه الصورة قامت حروب ومعارك منذ بداية الإسلام وحتى اليوم، لكن من يفهم يربح كثيرًا ويبتعد عن الصراع والدفاع ويجعل محبته في

صدره، كما حفظ البعض كلام الله في صدره
وتمثل به فرداً وعاش محباً وربح نفسه. من أجمل
القواعد التي علمنا إياها الصوفية الكرام "لا
تجرح أحداً في محبوبه".

كأنك تراه

تحبه كأنك تراه، تتكلم عنه كأنك تراه، تعبده كأنك
تراه، تقا تل من أجله كأنك تراه! فهل تراه حقاً أم
أنك كأنك تراه، وكل ما مضى من عمرك جداً
وهزلاً وكمدًا وفرحاً مجرد حلم تراه؟

لو رأيناها!

تصور أن يسألني شخص ماذا لو رأيت النبي الآن وماذا تقول له؟ هو نوع من العجز عن رؤية الشخص لما يعيشه الآن إن كان يعيش حقاً، هو بعد عن عيش الإنسان لوقته كما أدرك ذلك صوفية أمس، لا أتصور أن يجيب عن هذا السؤال واحد يلعب كمال أجسام فيخبرنا عن عضلات النبي وكيف كان رياضياً، لا أتصور أن يحدثنا صاحب محل عطور عن محبة النبي للعطور وخبرته بأنواعها. تصور الدعاة الجدد وبرامجهم العبتية للحديث عن الدين تخرج الناس من دين الله أفواجا، إن كانوا بعد لا يزالون في علاقة مع الدين. المهندس الذي فشل في مجاله

أو الطبيب الذي تقاعس عن إتمام عمله والصبي الذي استبدل الغناء ببعض الترانيم ووجدوا مجالاً رحباً في الإعلام للحديث عن النبي والرسالة والتفاسير، يجعلون هذه الشعوب العربية أضحوكة عند من يشاهدوننا ويتابعون أخبارنا. ما علاقة النبي بما تحتاجه أنت من ظهور وصورة ومكانة، النبي هنا مجرد وسيلة أنت لم ترها ولم تقدرها قدرها، مجرد جسر تعبر به إلى غاية ثم تلقي به بعيداً حتى لا تتذكر أحاديثه الأسطورية، فنتسج أنت أساطيرك وتريد من الجماهير عبادتك والتعبد بما تقول. هذا العبث الممنهج يتنزّل على صور كثيرة من الصور ذات العلاقة بالتدين، التصوف أيضاً مطية كالتسلف والثقافة مطية والأدب والشعر والرواية، مجرد وسيلة للعبث والإلهاء. الأصيل في كل هذا قليل ونادر، يحتاج شخصاً كإبراهيم يشك ويسأل ويشتكي

ويهاجر ويقارن ويبحث، لا يحتاج إلى الكسالى
ومسلوبي الإرادة ولا يقترب من رحابه العابثون.

نور النبوة

الجوهرة النبوية مطلبٌ كلِّ وليٍّ وفيلسوفٍ وباحث
عن الحقيقة، سكون الأنبياء بعد تعب ومعاناة
ومكافحة وصبر، ونطقهم عن الله بوحى
لا يزال محيّرًا للناس، يُحلل ويُناقش،
ويُرفضُ ويُنكر، ويُنسج على منواله، ويُطلب
محوه وحرقه ودفنه، ويقدّس، ويُدنّس
بالأفواه، يجعل ثمارهم حاضرة حتى نهاية
الحياة، طمح الفيلسوف إلى خلق نصٍّ مثل هذا

وأفضل، وطمح الباحث أن يمحو ما كان ويبدأ في بناء ما يحبه، ثم عاد الفيلسوف ليناجي ربّه من جديد ويحاول رؤية النبي الذي ما غاب عنه لحظة، ليرى في النبوة الوصلة التي لا تُمحي، ونماذج ذلك كثيرة في حياة السابقين.

الوراثة المحمدية

يتنازع أغلب المسلمين اليوم في امتلاكهم للإرث المحمدي، لكن من الصعب أن تجد عند أغلب هؤلاء شيئاً من ذلك الإرث المحمدي الذين يتحدثون عنه ليل نهار، إلا فئة قليلة من الصعب أن تشكل أو تساهم في بناء حقيقي ينتشل هذا

المجتمع مما وصل إليه. فكرت في هذا وأنا أقرأ حديثاً نسب إلي النبي صلى الله عليه وسلم وله أصل في الصحيحين: "جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، أعطني، فإنك لا تعطي من مالك ولا من مال أبيك. وأغلظ للنبي صلى الله عليه وسلم، فوثب أصحابه، فقالوا: يا عدو الله، تقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: عزمت عليكم لما أمسكتكم. فدعاه فدخل بيته فأعطاه، فقال: أرضيت؟ قال: لا. ثم أعطاه أيضاً، فقال: أرضيت؟ قال: لا. ثم أعطاه الثالثة، فقال:

أرضيت؟ قال: نعم. قال: فاخرج إلى أصحابي فأخبرهم أنك قد رضيت، فإن في قلوبهم عليك شيئاً!

النبيُّ هو الأصل

لو لم يقدّم الصوفية في صحيفة أعمالهم سوى محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وتقوية صلة المسلم بشخصية النبي لكفاهم ذلك. أتذكر كلمة محمد إقبال الآن: "يمكنك أن تتكر الله لكن لا يمكنك أن تتكر الرسول". حينما سُئل: ما الدليل على وجود الله؟ فكان جوابه: "يكفيني أن محمداً صلى الله عليه وسلم قال: إن الله موجود".

إقبال هنا لا يحتاج إلى دليل لإثبات واجب الوجود، ومسلكه هو مسلك الصوفية، فلا شيء عندهم يمكن أن ينهض دليلاً على إثبات

وجود الله، فالله نفسه هو الدليل على وجود الله،
والنبي هو الأصل في نقل التصور الذي نعرف الله
به. فالنبي مقدّم عندهم والإيمان به أولاً وأخيراً.

ومن هنا قال إقبال: يمكنك أن تتكر الله لكن لا
يمكنك أن تتكر النبي!

على هامش حوار عن أبي هريرة، وهل
أحبّ لقبه؟
وهل يقبل المسلمون مناقشة مرويات
الأحاديث والسيرة؟

كان أبو هريرة يحب القطط، وهذا اللقب كان محبباً إلى قلبه لأنه صدر عن محبوبه ومن لازمه عمراً طويلاً، ورُويت آثار تلك الصحبة بمبالغات أحياناً وحكايات وأساطير أحياناً، وسُجلت نقاشات حول تلك المرويات منذ القرن الثاني للهجرة، ولا تزال تلك المرويات محل نقاش من المسلمين حتى يومنا هذا. ومع بداية "النهضة والإصلاح" في مصر بدأ الشيخ أبو رية الكتابة عن علم الحديث بنظرة نقدية، فدوّن مقالاته الأولى في الدوريات المصرية عن تاريخ تدوين الحديث، ثم أصدرت المكتبة الثقافية له مدخلاً إلى تاريخ علم الحديث النبوي. لم يلقَ هذا الكتيب اهتماماً كما لقيت كتبه الأخرى (أضواء على السنة المحمدية)، (شيخ المضيرة: أبو هريرة). حافظ أبو رية على ميسمه الديني فارتضى لنفسه لقب الشيخ، وقُدّم بعد ذلك باعتباره وريثاً للتتويرين؛ محمد عبده والأفغاني، وطبعت

كتبه عشرات المرات في مصر والعالم العربي بل
وأحياناً درّست في المدارس وألقيت منها العظات
في برامج دينية!

ففي أول ظهور للباحثة ألفة يوسف ضمن حصص
دينية متلفزة في تونس كثيراً ما استشهدت به
كمراجع ديني!

كما اشتهر عمل أبي رية عند الإخوة المتخاصمين
(سنة/شيعة) فالسنة اعتبرت عمله "ظلمات"
والشيعة اعتبرت عمله "أنوار كاشفة لزيف
الصحابة المختلفين" واستفاد من عمل أبي رية
الباحثون الغربيون الذين خصصوا دراسات
للحديث وتناولوها في العصر الحديث.

على أن لقب (أبو هريرة) فتن كثيراً من الناس في
تركيا والهند والناطقين بغير العربية، وسجلت ذلك

أنماري شيمل في كتابها عن القطة الشرقية، الذي نبَّهنا إليه أول مترجم مصري لأعمالها (مصطفى ماهر)، وكانت رحمها الله تعتبر هذا اللقب من الألقاب المحببة إلى قلبها (أم هريرة) لأنها كانت تحب القطط، وتحب هذا العالم الإسلامي الواسع، الذي لم يتعرف المسلمون عليه كما عرفته وخبرته هي.

رحم الله أبا هريرة ورحم كل محبٍّ للإنسانية من أمثال الجميلة أنماري شيمل.

محبة الدين

ما يجعلني بالفعل أحب الإسلام كدين، وجود النبي وآل بيته، هذه السلسلة المباركة هي التي تربطني بالدين، وكل محبّ بسيط طيب القلب لم يتلوّث قلبه بالمعارف يقربنا كلما ابتعدنا، هؤلاء وحدهم رابطتي بالدين، لا يمكن فك حلقات هذه السلسلة الحنونة التي تجعل القلب مرتبطاً برحاب الرحمة، كما لا تلزمني هذه السلسلة بمتابعة رؤية أحد من المنتسبين إلى الدين اليوم. دينك واعتقادك يتكوّن كلّ يوم ويتطوّر كل لحظة، مهما حاولت الاقتراب من الصور المتاحة أمامك، ما يراه قلبك شيء لا يشبه كلّ هذا، ما يُدمع عينك غير هذا، ما يحققك لا يكون في وسط الركाम من حولك.

التراث الإسلامي

يظل التراث الإسلامي منجمًا وكنزًا من الكنوز التي لم تكتشف بعد، كل فكرة تتابعها في أعمال العلماء المسلمين قديمًا تدهشك عنايتهم بكل تفاصيلها بل وشرحها والسجال حولها شرقًا وغربًا في مهارة عجيبة، حتى الشروح والحواشي التي يستهجنها البعض، لن تقرأها إلا وتحصل الكثير من الفوائد.

أغلب تاريخ العلم لا يمكن الإمام به إلا من خلال هذه الكتب، التي توصف بالصفراء، وما الضعف والخلل الذي تراه في أطاريح المعاصرين عن الإسلام إلا نتيجة طبيعية لعدم معرفتهم بالتراث الإسلامي معرفة كافية. يمكنك أن تدرك ذلك بسهولة إذا قرأت كتابًا لأحدهم عن القرآن أو التفسير أو التصوف أو غيرها من الفنون التي لا

يمكنك التخصص فيها أو الحديث عنها إلا بعد متابعة لا تتوقف لتراث المسلمين وإسهاماتهم فيها.

خطرت ببالي أن أكتب هذه الكلمة وأنا أقرأ ما كُتِبَ عن محمد إقبال وموقفه من التراث، بعض الباحثين يبجله وبعضهم يتحدث عن شعره وعن مواقفه الإسلامية ويتجاوزون تماماً عدم إمام محمد إقبال بالتراث الإسلامي، وبصورة خاصة في علم التصوف، وهو نفسه يصرِّح بذلك في أكثر من موضع في رسائله إلى العلماء المعاصرين.

عدم إمامه الكافي بالتراث الصوفي سبب توتراً في مواقفه من التصوف، فمرة يكون شعره ثمرة من ثمار إيمانه بوحدة الوجود، ومرة في نثره ينتقد هذه الفكرة، ومرة يمدح ابن عربي، ومرة يتحدث عن عزمه لكتابة نقد لكتاب

ابن عربي فصوص الحكم لأن فصوص ابن عربي
من وجهة نظر إقبال تدعو إلى الإلحاد!

هذا التوتر يصرف النظر عنه أغلب قراء إقبال
والمساهمين في درسه، ويرفعون إقبالا
مكانة وقدرًا لأنه فيلسوف الشرق! ليس هذا
النموذج وحده الذي يحبب إلى المرء مطالعة
التراث بكنوزه، ولكن متابعة ما يكتب اليوم تجعل
الإنسان يزداد قلقًا، بل أحيانًا يبلغ عتبات الكفر بكل
شيء له علاقة بالمعرفة، بسبب من يساهمون في
تثقيفنا من الكتاب، فمتابعة سيرة كاتب أو كتاب
كيف صدر وما أسباب صدوره وما الغاية
المقصودة لكاتب السطور أو المترجم، كفيلة بأن
تجعلنا قانعين أن شيئًا من هذا لن يبقى ولن ينفع!

القرآن

يمكنك أن تنتشر من القرآن بعض آيات فتكون كالماء الذي يقع على تراب الإنسان وطينه فيعمي عينه، لأنك تنتشره بغم أشبه برياح عاتية لا تميّز بين الأرض الصالحة للغرس والأرض البوار، فضلاً عن كونك لا تتقن حرفة الزرع، لكن بعض الناس ينشر منه ما ينتج البساتين والأزهار والثمار التي تجعل العين تفيض من الدمع فتغسل بمائها ما علق بروح الإنسان من تراب، قليلون جداً اليوم من يوزعون هذه الورود على البشر من حدائق الوحي، وأقل منهم من يحافظ على حياة الوردة ولا يصلب زارعها.

درس القرآن صوفيًا

نشر صديقي كلمة عن كتاب أنجز بلغة أعجمية، بالطبع حول قصة الغرائيق، ناقش صاحبه كيفية استبعاد المجتمع المسلم في القرون المتأخرة ما أقره العلماء في القرون الأولى واعتقدوه، وقصة الغرائيق لعلها مثال على ذلك، ذكرني منشوره بما قرأته للأب بول نوي حول تفسير مقاتل للقرآن، قدّم الأب لدراسته في كتابه عن التأويل القرآني واللغة الصوفية بمقدمة ناقش فيها استبعاد الإسلام النصي للتفسير الصوفية الذي أكد عليه الدرس الغربي والمعتقد السلفي، أقصى التفسير الصوفي رغم ثرائه باعتباره بدعة وهرطقة ولا أصل له في الإسلام، ومن هنا استبعد بلاشير هذا اللون التأويلي للقرآن حينما أراد أن يدرس التفسير واللغة القرآنية،

حاول الأب نويًا أن يثبت خطأ ذلك. وقد نجح بالفعل من خلال دراسته النظرية للقرآن واللغة الصوفية، ومن خلال تحقيقاته للنصوص المؤسسة للتفسير الصوفي، ورغم عمره القصير الذي لم يمهله لإتمام مشروعه، تتبع تفاسير الصوفية للقرآن في مصر والمغرب وبغداد والشام وإيران، وقدم إنتاجًا ثريًا ليعبّد للدارسين من بعده هذه الطريق. لفت نظري في كتابه تناولته لتفسير مقاتل الشخصية التي يمكن اعتبارها قلقة في علم التفسير وعلم الحديث، هناك مقاتلان، مقاتل الذي لا يعتد به، ومقاتل الذي نجد لأقواله مكانة بارزة في التفاسير الإسلامية وعند الصوفية الكبار كالقشيري والخركوشي وغيرهم. حينما يبحث هؤلاء في موضوع إسلامي يدرسونه باحترام وعناية وإخلاص. هذه الدراسات تجعلنا نفكر في تسرعنا ويقيننا وقطعيتنا التي لا تُبنى على معرفة أو تدبر،

وتجعلنا نخجل بالفعل مما تنتجه الأقلام العربية
الكثيرة، وفي الآن نفسه تجعلنا نتمسك ببقية
المخلصين من أساتذتنا النذرة الذين يعلموننا
بأخلاقهم قبل رتبهم درس الإخلاص والمطالعة.

القرآن والكتاب المقدس

فكّرتُ أن أقرأ القرآن والتوراة والإنجيل، وأن أعي
وأندبّر ما أقرأ. لقد قرأنا القرآن ونحن صغار
وحفظنا رغم أنوفنا أجزاء منه وختمناه تلاوة
وحفظاً، كثيرون فعلوا ذلك، لكننا بالطبع كنّا
نتندر بما يقال في الكتاب المقدس، فأغلب
القسس يتحدثون وكأن أحدهم يدوس على أنفه

فيصدر أصواتا غريبة، وبالتالي فإن ما يرتلونه من كلام محض خرفات لا ينبغي الاهتمام بها. بعد فترة عرفنا جملة من الأحاديث وجزءًا من سير الصحابة والتابعين، وعلمنا أن أحدهم اشتهر بصاحب الزاملتين أي أنه كان يقرأ التوراة ليلة والإنجيل ليلة والقرآن ليلة، فعرفنا أن ما ورثناه من أفكار شعبية أو مدرسية هو محض ميراث أعوج وعادات لا أصل لها في الديانة إلا مسالك بعض الخائفين. السجال حول هذا الموضوع ظل حتى يومنا هذا، لكن من تدبّر نصوص الكتب الثلاثة سيعرف أن المعارف والمشاركات كثيرة بينها، وسيعرف أن كثيرًا من الأحاديث والتفاسير القرآنية وعى أصحابها ذلك، فاستندوا إلى الكتب السابقة باعتبارها "هدى ونور" كما نصّ على ذلك القرآن، إن تفسيرًا جامعًا للذوق والعقل والأثر كتفسير البقاعي (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) يوقف القارئ على مدى الاستفادة من

الكتاب المقدس ومطالعه بل والدفاع عنه، كما فعل البقاعي، دفاعاً استند إلى مطالعة لعدة نسخ من ترجمات التوراة والإنجيل والمقارنة بينها، والنقل عنها نقلاً جعل الناس في عصره ينتفضون لما فعل، فألف السخاوي محرماً ومجرماً فعله (الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل) وسلقه بلسانه سلقاً في كتابه الذي ترجم فيها لمعاصريه وأقرانه، مما جعل السيوطي وغير واحد من المعاصرين ومن أتوا بعده يدافعون عن البقاعي، مسجلين ذلك في نصوص لا يزال أغلبها مخطوطاً حتى يومنا هذا.

جربت بالفعل متأثراً بما أقرأ، أن تكون لي نسخة من القرآن أكتب على حواشيتها كما أكتب في الكتب، تدبّرت بعض السور بداية من سورة البقرة وآل عمران، لكن ذلك أخذ وقتاً طويلاً للغاية، فأغلب ما نمرُّ عليه من كلمات ونحن نقرأ تعبدًا لا

يصح في التدبر أن نمرَّ عليه مرور الكرام، فلا بد أن نبحث ونقرأ، كتبت جملة مما فهمت على حاشية المصحف، كل جملة تثير سؤالاً، كنت سعيداً بذلك للغاية حتى تمت سورة آل عمران، وهي سورة جميلة يستطيع الإنسان أن يعيش معها عامًا كاملًا، جعلني هذا أعود إلى عدة مؤلفات، وتحديدًا بعض المؤلفات التي قرأتها في بداية الطلب، وهي مؤلفات الشيخ محمد الغزالي عن القرآن، وهي كتابات نابغة من العيش مع القرآن، فقد روى عنه غير واحد وأوثقهم في الرواية ابنه، أنه كان يجلس بالساعات يقرأ القرآن متدبرًا وخاشعًا ومتأملًا، وكم من حديث للشيخ فضلًا عن كتاباته يثبت ذلك، تحدَّث الشيخ عن بعض من يتعاملون مع القرآن كنصٍّ خالٍ من القداسة، وحمل عليهم ووصفهم بأوصاف تقترب من خيانة دينهم وميراثهم. حملني ذلك على القراءة لمن قصدهم، فقرأت بعض ما كتبه أركون، وأذكر

أن الكتاب الذي طبع في عام 2000 في دار
الطلیعة لأركون بترجمة هاشم صالح قرأته ثلاث
مرات حتى أفهم إلى أي شيء يريد أركون أن
نصل معه من قراءاته لآیات الكلاله والفاثحة
وسورة أقرأ، ما فهمته جيداً أن أي قراءة أو
تدبر یحتاج بالفعل عمراً طویلاً، لا نقراً
لبعض الصفحات ثم كتابة بعض الادعاءات
اعتماداً على جهود السابقین، وإلا ما الفارق بین
وارث یكرر كلام سلفه الذي ورثه، وقارئ
معاصر!؟

المصحف والدراسات القرآنية

خلاص الفرد بيده، وكل إنسان عما يقدّمه يُسأل، هذا في العلاقة مع الله جميل جدًّا، وربما كان مفيدًا في الدعوة إلى الدين، لكن في مجال العلم والبحث لا ينتج بشكل يفيد أو ينفع إلا بعد عشرات السنين والعمر الطويل لمن يشهد ذلك.

حينما استمعت إلى مسيرة كتاب (المصحف وقرآته) أكبرت واحترمت رحلة الأستاذ عبد المجيد الشرفي الذي أتابع أعماله منذ عام 2000 هو وبعض تلامذته وأصدقائه من الباحثين الجادين، كان مشروع المصحف قد أثار جدًّا في المحيط العربي بعد انطلاق موقع الألوكة وموقع التفسير التابع لبلاد الحجاز وثقافته، تهكّم البعض على ما يفعله الفريق الألماني الذي يدرس تاريخ القرآن خلفًا لنولدكه وتلاميذه، وصدّورا الفكرة تحت عنوان (تحقيق القرآن) حتى ينتصر المسلمون متعلمين وغير

متعلمين للدفاع عن القرآن، لم يبق من هذا الجدل والانتصار بغير علم شيء، لم يبق إلا كل مكرّرٍ وغير نافع للمسلم أو المتعلم، العمل الوحيد الذي يذكر في هذا السياق رغم بعده عن ثقافة بلاد الحجاز، هو عمل الدكتور رضا الدقيقي الذي جاء بإشراف من مؤسسة الأزهر ودعم امتد سنوات، هنا يساهم الدقيقي في الدراسات القرآنية متابعًا مسيرة الأزهر التي شهدت بعض الفتور لسنوات طوال، فلم يظهر من إنتاجها بعد الترجمة والتعليق على دراسات المستشرقين للقرآن إلا بعض الأعمال الفردية، كعمل الأستاذ الجليل أبو ليلة الذي كان دفاعيًا وتأصيليًا في الوقت نفسه، ليس كبقية الأعمال التي صدرت على "مزاعم" و"شبهات" المستشرقين "اليهود الحاقدين" وتتهال عليهم بالسباب، فلا يستفيد المسلم العربي منها إلا تسنين (الشتم) واعتماده في الدراسات! رحلة الأستاذ الشرفي أثمرت بشكل

جيد وأضحى ما يقدمه دراسيًا ومعرفيًا تقليديًا
يحترم شرقًا وغربًا وإن اختلف المسلم مع
نتائج- لأنه يود المساهمة في تأسيس معرفة
تناسب عصره وتحترم هذا الميراث ولا تعبت به،
ما يحدث معنا هو العكس تمامًا، تأخذنا الحمية
والغيرة على الدين، فنفسق باسم الدين ونتناول كل
الجهود بخفة وطيش، ومن يحترم العلم والدين لا
مكان له وسط الجماهير الغفيرة التي تتساق دون
وعي لما يرسم لها. ما من جماعة تعمل اليوم إلا
ولديها فكرتها الخاصة وعقيدتها التي تعمل
مرسّخة لها. ولأن جماعة الأستاذ الشرفي
توصف بتبسيط بـ "العلمانية" أو "الملحدة"
أو "المفارقة للدين (موضوع الدراسة)" فلم يكتب
لخطابها الذبوع على المنابر أو التأثير في جمهور
المؤمنين، لكن كما حدث قديمًا في الأزهر وذاعت
الاصطلاحات الاستشراقية على ألسنة المشايخ
بوعي أو دون وعي، أصبحت الشباب التي تتلقى

هذه الأعمال وتتفاعل مع أصحابها، تتقل وتستخدم المفردات والاصطلاحات التي تقرأها في هذه الأدبيات، بالطبع دون امتلاك للمنهج أو الأدوات فضلاً عن الاطلاع على التراث والبحث في بطون الكتب. الذي حدث أن هذه الأعمال التي يراها المسلم المعاصر خطراً على عقيدته، هي التي ذاعت وأصبحت تطلب، وهو من ورائها يسعى لالتقاط بعض المفردات أو تكرار ما ورد فيها بصورة أو بأخرى، ثم يدخن لفافة تبغ نافخاً في الهواء أو يكتب مقالة ألهم فكرتها عبر محادثة لدقائق في علوم تحتاج أعماراً ورحلات. يطول الكلام في هذا الموضوع، لكنني وددت أن أنبه على أن كل جماعة تحترم العلم وتسعى إليه يكتب لأعمالها البقاء، أما علماء "الكلام" يموت كلامهم بموتهم، ولا يتذكر أحدٌ بلاغتهم وحسن بيانهم العظيم!

من حوار مع صديقي عن القرآن

أكل رغيف من الخبز أو رغيفين مفيدٌ، يستفيد منه بدن الإنسان. لكن من يضع الخبز في فمه دون مضغ ثم يلفظه، في مقدوره أن يأكل آلاف الأطنان ولا يستفيد منها وسيتعب نفسه ويضر الآخرين. بعض صحابة النبي ذكر في مناقبه أنه يحفظ سورة من القرآن أو شطر سورة ولم يكملها، كانت تلك منقبة ليس لاستظهاره الأحرف والجمل، بل لأنه هضم وعاش ما حفظ، صدق ما سمع واختار لنفسه قطعة من قطع النور تضيء له حياته. بعض الناس كان لديه من الوعي وفهم ذلك السلوك من صحابة النبي ونبّه على

ضرورة الالتفات إليه، وبعضهم اعتبر الحديث عن الحفظ توهيناً لعزائم المؤمنين، ويصب في صالح ما يقوله العلمانيون! ومما يحسن ذكره في هذا السياق أن الشيخ محمد الغزالي (ت1996) في عيشه مع القرآن، حاول أن يثوّر هذا المعنى، وأن يقطف المؤمن من القرآن خبزاً يقيم بناء روحه ولا يمضغ ويلفظ ويرجع مقولات تخالف روح القرآن. على أن الحفظ ليس مذموماً إذا تذكّرنا مقولة الجاحظ: "إذا نكح الفكر الحفظ ولد العجائب" لكن الجاحظ عندنا أمسى ذكره للتفكّه أو للتفسيق وتبيان مخالفة العقيدة المستقيمة. النقطة الثانية: أن كثيرين ممن علّمونا وهم من أهل الديانة والمحبين لهذا الدين، استتكروا ما يقوله الدعائيون اليوم عن القرآن من كونه كتاب كيمياء وفيزياء ويخبر عن شبكة الإنترنت وتكنولوجيا النانو وكل شيء سيظهر من اختراعات هو في القرآن، مثل هذه الأقوال

صدرت عن أناس صرعى ومجانين، لم يفلحوا في تخصصاتهم العلمية، فراحوا يهرفون بكلام ضرراً العقلاء وضرر بسمعة الدين، وإن أعجب هذا الكلام الجماهير الغفيرة التي تعشق المخدرات والغياب ولا تقوى على ما يقوى عليه العقلاء.

محمد حميد الله وترجمة القرآن

قرأت اليوم مقدمة هذا العمل التي تجاوزت الـ60 صفحة، ومشكوراً قام الأستاذ أحميدة النيفر بعرض موجز لمسيرة الترجمات الأوربية للقرآن الكريم، كما ترجم تعليقات العلامة

حميد الله على الآيات القرآنية والتي تبدو للوهلة الأولى كتفسير الجلالين، لكنها تحتاج إلى دراسة وافية، وهو ما لم يحدث في مقدمة هذا العمل. خطر لي وأنا أقرأ التقديم وقطعاً من التفسير، أنه لم تُكتب حتى اليوم دراسة عربية عن حميد الله التي تجاوزت مؤلفاته المئة وقاربت بحوثه ومقالاته الألف بالفرنسية والإنجليزية والأوردية، هذا إذا ما استثنينا مقالاً كتبه أحد تلامذته ونشره في دراسة له عن الاقتصاد في الكويت. يطمع القارئ العربي في المزيد عن هذه الشخصية الثرية، لكن واحداً من المتقنين للغة الفرنسية لم يفعل، وقد كان نشر هذا الكتاب فرصة عظيمة لدراسة من هذا النوع!

قراءة القرآن والحديث عنه

"أنا أقرأ القرآن كل يوم خمس ساعات. هذا وردي اليومي" قال لي هذه الجملة أستاذ غير عربي بالطبع. لماذا يقرأ القرآن وتفسيره كل يوم ويتابع كل كلمة تنشر من تراث المسلمين؟ ببساطة لأنه يحب إتقان ما يكتب عنه! تذكرت هذه الجملة التي سمعتها قبل خمسة عشر عاماً وأن أنظم عملاً عن (القراءات الحداثية للقرآن!) جمع اللقاء أساتذة من توجّهات شتى، لم يكن واحد منهم لديه عشرة في المئة من إخلاص الأستاذ البعيد عن بلاد العرب. أذكر طرفة عجيبة سمعتها من أحدهم حينما تحدث عن (اللقاء بين الغزالي ونصر أبو زيد) اندهشت للوهلة الأولى، وسألته عن موضع اللقاء بينهما في النظرة للقرآن، فأخبرني أنه طالع المجلدات الأربعة لكتاب الغزالي (نحو تفسير

موضوعي لسور القرآن الكريم) وفيه كذا وكذا، لم أخبره أنني أتممت قراءة أغلب ما كتبه الغزالي بدل المرة مرتين، ولم أعقب عليه أن تفسير الغزالي محاولة اجتهادية طبعت في دفتر واحد غلافه أسود في دار الشروق، ولا يُعرف له ملحق فضلاً عن أن يكون أربعة مجلدات! كانت الأطاريح طريفة للغاية من الفرق المختلفة، كان القرآن مجرد وسيلة ولعبة في الحلبة، كما هو شأن التعامل معه من قديم، كان غير مفيد أن نتحدث مع الأساتذة الكبار عن أطاريح علمية أجزت عربياً وتخطت هذه الأطاريح المتهالكة التي يدندنون ببعض عناوينها، وفي تناولهم الاطلاع عليها لكنهم لا يفعلون! كلما تابعنا حادثة من حوادث العرب المثقفين، نزداد كفرةً بهذه المساحة الجغرافية، بكل ما يحدث فيها، بكل ما يستجد من إحياء وبعث للطرقات القديمة. صدق النبي

المجهول الذي قال لأننا أمة لا تحسن إلا الكلام
كانت معجزتنا مجرد كلام!

حديث الثقافة المزعج

المثقف ونسيان القيم من أكثر الأشياء سوءًا وترديًا في عالم الأفكار اليوم، ابتلاع المراكز والمؤسسات لأشخاص كان من المتوقع يومًا ما أن يولدوا ويصبحوا أفرادًا متحققين، لا مجرد مكعبات جمادية في أرضية بناء، تُرص رصًا بمواد واهية، ثم تُداس بالأقدام لتأتي غيرها فتداس مثلها. يحدث هذا كل يوم تحت اسم وعنوان مغاير، في البداية يشارك الشخص بوضع لبنةٍ معتدًا بذاته، ثم يصبح بعد فترة قصيرة صديقًا!

عزيزًا! لمن كان يخالفه نهجًا ومبادئ! ثم يتحول إلى متسوّل لهذا الصديق والأخ العزيز!

أفكار وسلوكيات تكفّر الإنسان الصالح وتطمس
معالمه، فهنيئاً لمن يقبلون على عالم فكري كهذا!

يكتبُ المثقّون اليوم لبعضهم البعض،
ولا يكتبون للجماهير، بعضهم يتبرّع ويقرأ
للآخر! وبعضهم يتعالى عن القراءة للآخر حتى
في مجال تخصصه! لك أن تتخيل ذلك ولا تتدهش
فكلنا أمراض وقلوبنا لا تحبُّ أن تغتسل من
أمراضها، فكل واحدٍ منا أنه متضخمة، إن
لم يبجله الآخرون ضرب صفحاً عنهم
وأسقطهم من حسابه! إن ناقشه أحدٌ في
فكرة ولم يصفق له، غضب وشطب
المناقش من دفتر الوجود، كتّاب ومثقفون كثيرون
على هذه الصورة يقودون المشهد الثقافي
ويتصدّرون لتثقيف الجماهير! لا أظن أن هؤلاء
يغيّرون شيئاً من واقع متأزّم أو يساهمون في خلق
جديد، هم أنفسهم في حاجة ماسة إلى خلق

جديد، وهم مرض كغيرهم ينبغي أن يُعالج حتى يستعيد هذا الجسد العربي المريض صحته وعافيته، ويعود من جديد ليسير على درب الإنسانية!

كيف تصبح مثقفاً؟!

إن وضع الكرسي أمام المنضدة بشكل أنيق لا يجعل منك كاتباً، شراء أدوات قرطاسية كثيرة كذلك لا يمكنك من الكتابة، الدفاتر التي توضع فوق بعضها أو تصوّر رحلات مشابهة لا تعاونك كثيراً. تذكرة قطار قد تسجّل عليها فكرة لا تأتيك في بهو مكتبة مليئة بالكتب، علبة سجائر يمكنك أن

تكتب على ظهرها ما لا يمكن أن تلهم به
في حرم الجامعة، جلوسك مع شخص بعيد
عن صراعات البشر اليومية يمنحك ما تبحث
عنه لأعوام سابقة، الذاتي هو الأصل وهو
الموضوع الذي يجعلك تعثر على مفقودك!

الخصال المتوفرة

أمران يصنعان لك حياة جميلة في البلدان الفقيرة:
الكبر والكذب. ما دمت تحلّيت بهاتين الخصلتين
فلا تخش على نفسك من أي شيء أبدًا، ستُفتح لك
كل الأبواب المغلقة وتصل إلى مكانة لم يصل إليها
نبي أو ولي، ولك أن تقول بعدها بملء فمك

"سبحاني ما أعظم شاني"! لن يتجاسر أحد
لاتهامك بخرق قانون أو المساس بمعتقد،
ومن الحاشية والبطانة سيولد ألف عالم لغوي
ليفسر للجمهور كلماتك النادرة!

ما نفتقده في بلادنا كثير

أكثر شيء نفتقده في بلداننا العربية في
تعاملاتنا هو (الاحترام). من النادر أن
نتعامل مع شخصية محترمة تبادلك الاحترام
الذي تحافظ عليه في معاملاتك. الاحترام يمنح هنا
للشخص المتكف والمتكبر والمتعجرف، خوفاً
منه، طلباً لشيء عنده، تزلفاً له، لكن أن يكون

سلوكا طبيعياً يتحلى به الإنسان مؤمناً به
ومستمرّاً عليه من أجل الإنسان، فهذا نادر
جداً، وبالطبع ليس في مصر وحدها، بل في أغلب
بلداننا العربية (الفقيرة عقلاً وإبداعاً)! الله يهدي
الناس. وكما يقول البسطاء "إللي مش يهديه، ياخده
ويريح الناس منه"!

في عالم الغياب لإثبات الحضور

في عالم الغياب هذا، يفعل الناس كل شيء ممكن
ولا يلتفتون إلى كرامتهم المهذرة، يتاجرون
بأي شيء، يلوثون كل شيء، أتابع بعض
المنشورات فأخجل من كمّ الأمراض النفسية التي

تظهر في صورة الحضور المخجلة، تضع امرأة صورة تظهر جزءاً من كتفها أو أصابع قدمها فتجري جماهير الكبار لتتشيد بالصورة، وتعلق بمناسبة وبدون مناسبة على أي شيء تكتبه المرأة. هذا أستاذ آخر يحب أن يذل نفسه للصحافيين والمشاهير فيطلب آراءهم في كل كلمة يكتبها، ولا حياة له إلا في شتم هذا أو ذلك وهو العبقرى الذي لا ينتج شيئاً في حياته، وهذا رجل متزوج يدور على السيدات هنا بالحكمة والبخور، يصبح ولياً في لحظة ولا بد أن ينام الولي في حجر السيدات. مخجلة الصور التي نشاهدها لعالم فقير من القيم، لعالم فقير حضارة وإنساناً، لعالم لا يعرف إلا أكل بعضه وتحطيم كل شيء يمكن أن يعيده للحياة.

لكل مجتهد نصيب!

حينما ينطق الناس في بلادنا "لكل مجتهد نصيب" يفتحون باب الاجتهاد على مصراعيه للجميع، فأهل الإعلام العربي مجتهدون، وأهل السوق مجتهدون، والمدرسون الذين يجمعون الثروات من عرق الأكباد مجتهدون، والناقرون للحوم الجميع مجتهدون. إن لم ترسخ لهذا الاجتهاد المثمر لكل شيء باستثناء الإنسان، فأنت لست إنساناً سويّاً في نظر أهل الحل والعقد المعدودين بالملايين، لذا عليك أن تؤمن -شئت أم أبيت- بقاعدة الحياة: "لكل مجتهد نصيب".

الكلاب والطعام

هناك مثل شهير في مصر يشير إلى وفرة الطعام والشراب مهما كانت الظروف قاسية، تلخّصه عبارة أن الكلاب في الشوارع تنام على الطعام، فأكل العيش ليس صعباً مهما قست الظروف، يدرك ذلك الفقراء ويتمثلونه جيداً في حياتهم ومعاملاتهم. لكن طبقة القراء الناقرين والمتقفين السوريين من حولنا يتعللون بأكل العيش ليل نهار، فهو المتحكم في سلوكهم وإنتاجهم، ولديهم ما يؤمّن ضروريات الحياة، ما يبحث عنه هؤلاء ليس له علاقة بإقامة الإنسان وخدمته، بل بخدمة صورهم وتلميعها. ممن يطلبون ذلك؟ لا أدري! من متقفين

أمثالهم يعجبون بكلماتهم ويطرونهم على صفحات الإنترنت! من متهاكين أمثالهم على صورة أو منصب أو رفاهية حديثة! لا همّ لكثير من هؤلاء في تحصيل معرفة أو ثقيف غيرهم، دين هؤلاء النقض والهدم للآخرين من أجل أن يرتفعوا هم.

البحث والصحافة

(إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)! لم تعد أغلب الصفات التي تطلق على الأشخاص ذات معنى، فأن يوصف شخص بالباحث أو الصحفي ليس

شرطاً أن يعبر الوصف عن حقيقته. كانت الأوصاف ذات قيمة من قبل، فنقرأ لداعية ما لا تقرؤه لعالم شهير محسوب اليوم على اختصاص العلوم الشرعية، وتقرأ لصحافي ما لا تطالعه في كتب الأدب والنقد والتاريخ الثقافي اليوم. لكن لما أصبحت الأوصاف هي المقدّمة على الأعمال، صرت تسمع عن باحث أو عن أستاذ وترى سلوكه فتتعجب، فمثل هذا السلوك لا يصدر عن شخص جلف يعيش في الأسواق. أحد المشتغلين بالصحافة قبل أشهر كنا نتحدث معاً عن شخصية مصرية كان لها عطاء في درس الفرق الإسلامية (محمد كامل حسين) كان ما يقوله عن رحلته مع هذه الشخصية وبحثه عن أعمال صاحبها وتحريره لأخطاء تتعلق بتاريخه وتاريخ شخص آخر يحمل نفس الاسم، لا يقل في أهميته عن عمل باحث غربي على شخصية تراثية اليوم، هذا الشخص احترمتُ فيه جداً

مثارته وبحثه في التعامل مع المادة التي يعمل عليها.

ليس من الإنصاف أن تصف هذا الشخص بصفة يشترك معه فيها من ينقر بعض الجمل نقلًا عن الإنترنت أو اعتمادًا على معلومة وردت في برنامج إعلامي مشوّه أو إذاعة بعض الناس لمعلومات تقتقر إلى الصحة، هذا الشخص مثال للعامل في حقله بإخلاص. هب أنك تحب أن تعمل على موضوع بعينه تقريرًا صحافيًا وتنتشر وعيًا حقيقيًا يليق بقارئك، وأنت كسول جدًا لا تريد أن تفتح كتابًا أو تراجع وثائق تفيدك في هذا الموضوع، ولا تريد أن تستخدم شيئًا غير الإنترنت، فلا أقل من أن تراجع المجالات المتاحة على الإنترنت، والتي بطبيعة الحال استهلكت الحديث في هذا الموضوع، أما ما يحدث اليوم من سلوكيات المحسوبيين على الصحافة أو

البحث، فهي سلوكات تعبّر عن أمراض
مجتمعاتنا وهشاشة الإنسان وضعفه، وغير مفيد
الحديث عن الشائنه فهو كثير جداً!

التنوير الزائف

خابت آمال الناس في التنوير الذي أدى إلى
الاستعمار ووطن للاستبداد، وخاب سعي
كثير من المجددين عن تغيير كثير من
الأفكار التي يلتزم بها بعض المتدينين، وتؤدي
بهم إلى التطرف والعنف وإراقة الدماء؛ لذا كان لا
بد من السعي نحو روحانية الإسلام والكتابة عن
أعلامها الكبار من أمثال ابن عربي والرومي

والحلاج وغيرهم؛ فلم يقتصر اهتمام الباحثين غرباً كما يقال على الخارجين عن حدود التسنن والشريعة، بل شمل أصحاب التجارب ومن استتدت الطرق فيما بعد على خطابهم كالجنيد والمحاسبي والسهروردي وزروق. سافر هؤلاء إلى بلاد لم يعترزم أحد المسلمين اليوم السفر إليها وإن امتلك إمكانات ووسائل السفر، وسمع من أهل الصحراء والتمس من معارفهم ما يعينه على اكتشاف هذا العالم وسبر أغواره، قليلون من أهل الشرق من التفتوا إلى هذا المسعى، وهم إما معتزلون أو مكفرون، أما الخفافيش فتسرح وتسعى في وضح النهار!

في البحوث نتعلم من الأساتذة (بحق) أن نكتب شيئاً لم يكتبه غيرنا، أن نبدع فكرة، أن نستخرج شيئاً يميزنا، أن نخلص لقضية نشبعها بحثاً لتطور معارفنا وربما تساهم القضية في صنعنا وتميزنا.

(في الحياة) تختلف الأمور، ينصحنا الكبار ألا نجرب شيئاً، ألا نخرق عادة وإن آمنا بالمعجزات، أن نراعي فلاناً وفلاناً الذي لم ولن يهتم إلا بصورنا المتحركة. في البحوث نتجاوز نصح الأساتذة وندساق إلى عالم المقطعات ونغرق في تفاصيل لا تخدم قضية أو إنسان، ورغم ذلك ينال باحثونا امتيازات وتشريفات عالية ومراتب تصنعها المجاملات أو مراعاة الأحوال... يغفر لنا كثيراً هنا، لكن لا يغفر لنا في الحياة أي فعل، وتأثم أفعالنا وتجرم وتجعلنا في معسكر الدنس الذي تلاحقنا "شبهاته"، وإن

عرجت أرواحنا إلى السموات العلا ونحن نرتكب
ما يوصف بالآثام.

الهنود والغرب

بعض المؤمنين وهم كثيرون، اتهموا
الهنود بالعمالة والخيانة، ومن حصل منهم على
لقب "سير" لا بد أن نشك في ديانتهم واعتقاده. إن
فئة ليست بالقليلة تضع هذا في رءوس الطلاب
والمسلمين العرب، وجولة سريعة على
الإنترنت نكتب فيها اسم رجل من علماء الهند في
العصر الحديث تقفنا على ما زرع في
أدمغتنا من معلومات خاطئة. العجيب أن حال

هؤلاء الهنود الكبار لم يكن ليتغير أو يتطور إلا عبر اتصاله بالغرب وتلقيه المعارف الإسلامية على يديه، لم يفهم أو يبدع في الفكر الاسلامي إلا بعد هذا التواصل، والشيء الجيد الذي امتاز به أعلام الهند والباكستان الراحلون، أنهم تعلموا ثم تطوروا وخطوا خطوات واسعة فرضوا أنفسهم على العالم بعدها، فدرّسوا في أكبر الجامعات وترجمت أعمالهم إلى شتى اللغات، ولأن الزمان يدور، العرب الشاتمون هم أنفسهم من يسعون حتى هذه اللحظة لقطف ثمار الهنود الراحلين، أصحاب الخلل العقيدي! المتعاونين مع الاستعمار، الأشرار!

القوة والبقاء بالعمل لا بالصورة القوة بالعمل
وبإنجاز شيء يبقى. القوة بالأخلاق واحترام
الآدمية. القوة بالرحمة بالخلائق. القوة بالصدق مع
النفس.

القوة بتتبع النفس ومشاهدتها جيداً والتعرف
عليها، ما أخفقت فيه وما نجحت، متابعة
تطورها للتعرف على دروس تفيدنا في بقية
الحياة. ما يصنعك ويحققك بعيد تماماً عن الصور
والاجتماع مع بشر غائبين لتعلن في ظل هذه
الغيبية أنك موجود وكائن مثلهم، كل هذا مجرد
قشرة ينبغي أن تبتعد عنها حتى تدرك أصلك!

الأدب والمعرفة

يلتقت كل جالس في حضرة السيدة زينب إلى سلوك بعض الزوار الذين خالطت قلوبهم محبة الأم الفريدة، فلا يعطون ظهورهم للمقام وهم يودّعونها تأدّباً مع مقامها الشريف.

يتذكر المرء عند رؤيته لذلك، سلوك بعض المخالطين للأساتذة وأصحاب الهيئات والمراكز وتعاملاتهم التي تخلو من مسحة الأدب، وأقل وصف لها الصلف والجلافة وقلة الذوق، يُفترض بالقرب من أستاذ أو عالم أو شيخ أو متصدر للتعامل مع الباحثين، أن يلتقط من الكبار مواقفهم الإنسانية الآسرة، ويحاول أن يقتدي بهم ويتمثل ما يشاهد في حياته وتعاملاته، أن يتعلم الأدب قبل أن يتعرّف على الآخرين ويتواصل معهم، لأن تواجهه في حضرة العلماء والمشايخ يلقي على عاتقه مسؤوليات كبرى، لكن القليل في

بلادنا من يعرف ذلك ويتحلى به. أذكر أن واحداً ممن كانوا يحملون حذاء شيخ شهير جعله صاحب حظوة عند الشيخ، كان إذا تعامل مع الطلاب بعد مغادرة الشيخ، يتعامل معهم كرب يرزق العبيد، وواحد آخر كانت وظيفته في المجالس الكبرى إضحاك الضيوف! كان يتحدث مع من هم بعيدون عن شيخه وهو لا ينظر إليهم، ويوجّه ظهره قائلاً لمحدثه أكمل أنا أسمعك! بالطبع كان مسلك الشيخ الكبير بخلاف مسلك اللاعقين للأحذية والمتصدرين، لكن للأسف لا يتواصل الناس مع الشيخ بقدر تواصلهم مع أصحاب الأمراض القريبين منه، وقل مثل ذلك عن الأساتذة الأجلاء، فحول كل أستاذ هنا جماعة من المرضى لا يتعلمون منه أدباً ولا معرفة، وكذلك الأمر مع المتصدرين في الهيئات والمراكز والمؤسسات. أمراض مجتمعنا عسية على العلاج، لأن أصحاب الأمراض لا يلتفتون

إلى مشاكلهم وعاهاتهم فيحاولون علاجها، بل
ينشرون أمراضهم لتصبح ثقافة، إذا ما أردت
الخطوة والوصول فعليك بإنقاذها!

حديث الترجمة!

كانت من فوائد الحديث عن الترجمة والمترجمين
اليوم مع أهل الخبرة بها، أن هذا العمل شاق
وجبار. كبار الأسماء على سبيل المثال في مصر
رحلوا عن عالمنا وبعضهم لم يترجم سوى
كتاب أو كتابين، لكن ترجماتهم صارت
نموذجاً على الإتقان والمعرفة، أسماء أخرى كبيرة
عاشت في بلاد الغرب وقتاً طويلاً ولم تسلم

ترجماتهم من العيوب والأخطاء، حينما تقرأ
الانتقادات الموجهة إلى أعمالهم، تبتسم وأنت
تطالع هذا الكم من الكتب المترجمة لأناس لم
يغادروا عتبات غرف (الجوجل) أو يتمكنوا
من إجراء محادثة صحيحة باللغة التي يتحفظوننا
بالنقل عنها، هذه الكوارث الكبرى في النقل،
ألا تجعلنا نشك في كتابات هؤلاء المدندنين
بالمصطلحات وفي فهمهم لما يتكلمون عنهم؟!
لماذا يصمت المثقفون والعارفون ولا يتحدثون عن
هذه المصائب؟!

رحلة حياة

قراءتك لرحلة حياة ثرية جمع فيها صاحبها بين مخالطة الناس شرقاً وغرباً، بدأت رحلته من ريف مصر ونيلها ولا تزال جارية في ختامها خارج بلاد الإسلام في ألمانيا، قراءتك لهذه الرحلة التي امتلأت بأحداث جسام وإنجازات ومعارك، ولا تشعر للحظة واحدة بغضب أو سخط، بل يتسرب إلى قلبك هدوء ورضا في كل ورقة تتصفحها وفي كل صفحة يطويها صاحبها، قراءتك هذي تجعلك مندهشاً من نفسك ومن سخط ينتابك في أوقات كثيرة. صاحب الرحلة العالم المصري محمود حمدي زقزوق أستاذ الفلسفة الذي حصل على الدكتوراه من ألمانيا، كتب عن الغزالي وديكارت وكتب عن الاستشراق، وأشرف على دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بأقلام عربية، وكان سبباً في إعادة خمسة وتسعين في المئة من أوقاف الأقباط

إلى الكنيسة المصرية، ودعم الحوار الإسلامي المسيحي وآمن بالتقريب بين أهل المذاهب الإسلامية، وألف بالعربية والإنجليزية والألمانية، وترأس الجمعية الفلسفية المصرية، وبعد الثورة المصرية أشرف على مجلة الأزهر، ثم انتقل ليعيش الآن في هدوء الديار الألمانية مع زوجته التي آمنت به وبدينه ودعمته في مسيرته الحياتية، وابنته التي ترعاها خير رعاية بعيداً عن ضجيج الناس هنا. هذه السيرة تعلم المرء دروساً كثيرة، منها: الثقة في النفس والاستمرار في العمل مهما حدث للإنسان من مشكلات ومهما صرخ الناس من حوله. عدم الاقتراب من رجال الدين وعدم الدخول في سلك الموظفين في جامعة أو مدرسة إلا لمن استطاع تحمل الرعونات والخصومات. البحث أفضل شيء للباحث، مهما مُنح من منح وعطايا فلن تضاهي نعمة البحث. كتب الدكتور زقزوق رحلة حياته متأسياً بحجة

الإسلام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال). أو (المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال)

ماذا يقدم العرب في تركيا؟!

في منطقة فاتح، ومحمود أفندي لا يمكنك سوى تقديم نسخة مشوّهة من الشروح العربية للحواشي الأزهرية، بأسلوب من حيث الصورة قريب مما كان يقدم في الأزهر.

في الجامعات ستجد فرصة للحديث أكثر مع صديقك العربي سورياً كان أو مصرياً، حول الحديث عن السياسات العربية والقضايا التي تشغل الرأي العام، لن يكون هناك حديث حول معرفة أو علم بحجم الحديث عن السياسات، وسيكون هذا الحديث مع تركي يتقن بعض اللغات الأعجمية أو مصري اعتزل دنيا السياسة ووجد في هذا المكان مساحة للتفرغ للعمل على ما يؤمن به ويراه مفيداً في مشواره العلمي، لاحظت ذلك أكثر من مرة، وأحزنني أن يعمل العرب هناك في الجامعات بحسب مبدأ "الزبون عاوز كده"، قليلون جداً من يتقون الله ويقدمون شيئاً مفيداً لمن حولهم، وأقل منهم من يبدع ويذكر اسمه هناك. استدعيت في حديثي مع أستاذ لعلوم القرآن تلقى تعليمه في جامعة (بييل) سيرة محمد حميد الله الذي بفضلله أصبحت الدراسات الإسلامية في تركيا تقسّم إلى مرحلتين؛ ما قبل حميد الله وما

بعده، وتحدثنا عن أنماري شيمل التي ترجمت من الفارسية إلى التركية عدة نصوص ودرّست علوم الدين المقارن طيلة سنوات هناك، حتى أضحت علماً لا يمكن نسيانه أو تخطيه عند القراءة في العلوم الإسلامية، وأغلب كتبها منقولة إلى التركية. وكم أسعدني أن نتناقش أنا وأستاذ يعلم التصوف فيما خصصته من كتب حول مولانا جلال الدين الرومي، وتحديدًا كتابها (الشمس المنتصرة: دراسة في آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي) التي اتخذت من شمس تبريزي عنواناً لإعلان الرومي عن ذاته، ودرست أفكاره في أسلوب بديع يجمع بين المحبة والعلم، وكم هذا نادر. لا يقتصر الاندهاش على سلوك العرب في تركيا، بل إننا نجد ذلك في البلاد الأوربية، فبعض المشتغلين بالعلم صورة يستدعون أمثالهم من أهل الصورة ليتحدثوا عن أمور ليسوا أهلاً

لها، لا لشيء سوى أن ذلك يدعم توجههم السياسي ويعضد مكانتهم في مؤسساتهم، والعلم له أرباب متشاكسون كهُبل ورسولته سجاح. كان غريباً على الأستاذ التركي أن أحداً كتب في علوم القرآن غير مشايخ السنة والشيعة، فما يدرّسه الأستاذ لطلبة الدكتوراه مذكرةً لا يمكن أن تقرر في مصر على طلاب العلوم الشرعية في عامهم الأول. ذكرت له نماذج من الأعمال كتبت في مصر في الستينيات، كدراسة مصطفى مندور وعبد الصبور شاهين وغيرهم أسماء عديدة، لو بحث له مساعده عنها لوجد ما يساعده ويبيّض وجه العرب، لكن العرب يداومون على بيع الحشيش والبرسيم لمن يعبد البقر. في بلادنا رغم كوارثها أمور جميلة، لكنها لا تظهر بسبب ما نحن فيه وما نحب أن نظل فيه، ومنتازل عن حقوقنا لقوم سفهاء لا يحسنون شيئاً غير التدمير والمحو!

لماذا نضطر إلى التعامل مع البشر؟!

أحاول طيلة الوقت أن أمشي في الطرقات واضعاً سماعة الأذن، في المواصلات، في البيت، في المقامات والمساجد!

حتى لا أسمع أحداً، وأتخشى تماماً التعامل مع البشر لافتقادهم أبجديات إنسانية فضلاً عن غياب الاحترام في أغلب تعاملاتهم إلا بالاعتماد على الصور الزائفة التي يصدرونها أو يصدرها من يتعامل معهم. الناس مساكين، نعم مساكين حد البؤس! كنت أقرأ عملاً لأحد الباحثين المغاربة فجر هذا اليوم عن

الحكيم الترمذي، أزعجني للغاية في كتابه (العلمي!) استخفافه بالآخرين وإطنابه في ذم المشتغلين على نصوص الحكيم الترمذي، ومحاولته التقليل من جهود السابقين وغض الطرف عن أحسنوا إلى ميراث هذا الحكيم، حتى أنه استبعد عملاً كعمل العالم الأزهري عبد الفتاح بركة الذي كتب مجلدين عن الحكيم في وقت ربما لم يكن قد ولد هذا الباحث المغربي، ولم يكن المطبوع من مؤلفات الترمذي سوى ورقات معدودات.

سلوك هذا الباحث يعبر عن تعاملاتنا اليومية التي أصابها الخلل، ففي الوقت الذي يمدح فيه الباحث من هو مضطر إلى مدحهم من مشرف على الطبع ومن مشرفة على عمله مستشرقة، لا يكف للحظة عن تجريح أعمال الآخرين، ومن يمدحه هؤلاء يتابع هو مدحهم. لسنا مضطرين إلى التعامل مع

البشر التي لا تحترم الأبجدية الإنسانية وتقدرها،
لسنا مضطرين إلى تغيير وجوهنا حتى نرضي
90 في المئة ممن يشاركوننا العيش صورة ولا
يقتربون من حياتنا ولا نحب أن نكون مثلهم يوماً!
أقول هذا لجميع من أتعامل معهم مضطراً في هذه
الأيام التعيسة البائسة! أو من تعاملت معهم سابقاً!

تعريب أنماري شيمل

أمضيتُ اليوم في القراءة عن رامون لول
Raymond Lulle المبشر المسيحي، فأعدت
قراءة ما كُتب عنه من دراسات عربية أو معرّبة.
الجميل أن أغلب ما كتب عنه طبع في مصر قبل

مئة عام أو خمسين عامًا، وما نُشر في مصر هو أفضل ما كتب عنه حتى اليوم بالعربية، فالترجمة المختصرة التي قدمها يوسف كرم رحمه الله، ثم المقالة التي ترجمتها أنماري شيمل عن الألمانية إلى العربية، وما ترجمه الطاهر مكي من أفضل ما يقرؤه الباحث عن هذه الشخصية المحيرة بإنتاجها الضخم، حتى كتاب زويمر الذي طبع في القاهرة قبل مئة عام عارضًا لحياته وسيرته بشكل تبجيلي لا غنى عنه. أسعدني بالفعل أن يكون هذا الإنتاج المعرفي صادرًا في مصر. ومن المواد التي تضيء هذه الشخصية ما كتبه عبد الواحد العسري في مؤلفه الثري (الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني: من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس) لكنني توقفت أكثر مع دراسة كتبها خالد زهري من المغرب أيضًا عن لول وتأثره بالسيرة النبوية، كان عنوانها جاذبًا

للغاية، فمن المعروف عن لول مخلصته للإسلام، فكيف يتأثر بالنبي وسيرته؟! على مدار أربعين صفحة تحدث فيه زهري عن موضوع بحثه، لم يقدم علامات لهذا التأثير ولم يناقش ما طرحه من فكرة في بداية بحثه، رغم وفرة المراجع التي يدرجها ضمن حواشي بحثه. وبقراءة البحث مرتين ندرك أن بحثه ما هو إلا هوامش وتعليقات على مقالة فيشر الألماني، الذي أفدت من قراءته أكثر، فهو المقال الذي لم ينشغل بوصف لول سلبيًا أو إيجابيًا، وراح يركز على حضور التصوف في حياته ومؤلفاته. سعدت جدًا بقراءة هذه العبارة التي أرفقتها هنا كصورة، وسعدت بقراءة كلمات للمبشر هي في أصلها ترجمات لما قالته رابعة والغزالي وابن الفارض، وتذكرت كلام عبد الرحمن بدوي عن فكرة التحول من المخلصمة إلى الإيمان والدفاع عما نحبه ونؤمن به.

الكتابة والادعاء

كنتُ أقرأ بعض الدراسات فتشجَّعني على أن أستمِر في القراءة والمُدارسة والبحث، وأخجل من التقاعس عن المضي قدماً في هذا الطريق المسعد والمحقق للذات، كان هذا الشعور يشاركني فيه غيري من طلبة العلم الذين يوثُّون الخير لأنفسهم وربما عاد نفع بسبب اجتهادهم على غيرهم. اليوم تتكاثر الكتابات بحيث يعجز المتابع على مطالعة أغلبها في فن واحد، ويخجل الصادق والعارف بنفسه أن يدَّعي إماماً بجزء منها، أو دراية بكل ما جاء فيها، أو استفاضة منها، لكن الصادق نادر، والادعاء والكذب مرضنا

جميعاً من الرأس إلى القدم، ف "لا أعرف"، أو "في حدودي علمي"، أو "ليس في استطاعتي طرح تصور متكامل عن هذا الموضوع"، أو "أنا لست أهلاً بعد للخوض في هذا المجال" لم تعد هذه الكلمات موجودة بعد أن كانت ترد على لسان أهل الصدق والإخلاص ممن سبقوا، ليس بقرون ولكن بسنوات معددوات. أعرف بعض النابتة (صبية وشيوخاً) ممن فسدت بذرتهم بفعل الريح والماء العكر، يتجاسرون على ركوب بعضهم البعض، ويجتمعون كإخوة يوسف لا للكذب فحسب، بل لرص الأحجار الرخيصة في بناء الثقافة العربية المترهل من الوهن. لا ألوم هذه النخبة!

بل ألوم من يصدّرون أمثال هؤلاء وينشرون الزيف في مجتمعنا باسم (تشجيع النوابت)!

الترسّم العلمي

الرجل لا يكون عالمًا بسبب الجبة والعمامة؛ ذلك أن العالمية فضيلة في ذاته، لبس العمامة أو ارتدى الأسمال أو تقطعت ثيابه، لا علاقة للمظهر صورة أو جسدًا بما يقال، ولا يغير من الأمر شيئًا ما يرتديه، لكن الأصل كثيرًا ما يغيب عن الناس ويتمسكون بالصور والظواهر. يقول مولانا: "انشد الإنسانية، هذا هو المقصود، والباقي مجرد إسهاب!"

محزنة أحوالنا

محزن جداً أن هذا الوقت من الخراب في بلادنا هو وقت بناء الثروات عند آخرين. محزن جداً أن زملاء لنا في وقت من الأوقات أوهمونا أنهم مع الحرية والإنسانية والكرامة، وهم سبب في الحط من كرامات الآخرين. محزن جداً ألا تجد العاهرات عملاً لها بعد أن زاحمهن وجود أكثر منهم حملة الشهادات العليا والناطقون باسم الفكر والثقافة.

محزن جداً أن عشرات من الخلق ساعدناهم في أوقات معينة ظناً منا بأنهم يستحقون فرصة للحياة أكرم مما كانوا فيه، وما إن وانتهم الفرصة ليكونوا عبيداً حتى خنعوا ولوّثوا كل جميل بقي لنا. محزن جداً أن تجد امرأة عرجاء

أو رجلاً أعرج العقل بالطبع، يتحدث عن
الفكر بمجرد بيعه وشرائه لكتاب. محزن جداً أن
يملك بعضهم عدة السنة فقط لبيع لحوم البشر
ومضغها في الساحات.

محزن جداً أن تعيش وسط هؤلاء ويفترض لكي
تستقيم حياتك أن تصبح مثلهم في يوم من الأيام.
محزنة الثياب التي يحيكها الخياطون الذئاب كي
نرتديها على لحومنا المأكولة كل يوم ونقنع
بالغياب.

كلّ شيء هنا محزن ولا يدعو شيء إلى الفرح
أبدًا، ربما كانت القسوس والشيعية على حق في
التزامهم بالسواد لونها دائماً لهذه الرحلة القصيرة
في الحياة. محزنة أفهامكم، محزنة اهتماماتكم،
محزنة كلماتكم، محزنة حياتكم!

لحظة يأس

هذه الأوقات أوقات شدة وتعب لكثيرين، تحتاج فيها إلى صحبة، تفتقد فيها السكينة، تبحث فيها عن راحة، تفكر أن تبكي، أن تصلي، أن تهاجر، أن تنام نومًا طويلًا كأهل الكهف، أن تحلم ولا تقيق من حلمك، أن تتناول دواء كل يوم، أن تعاند نفسك ولا تعترف بمرضك، وتلقي بالدواء أرضًا. الحياة في دنيانا مرض في حد ذاتها، حطام من تجارب، صراع على حطام جديد، لن يخرجك من هذه الدائرة سوى نفسك، قد يعينك بعض الناس للحظات، لكنك وحدك عليك أن تخوض هذه الحياة حتى تنتقل من هنا إلى رحاب جديد، يقول الناس فيه أيضًا: نفسي نفسي!

ما يشغل الباحث

الباحث لا يشغله غير بحثه شيء، إن مُنح شيئاً فَقَدَ بقدر ما مُنح، فالبحث حياة مستمرة لا تتوقف ولو للحظة. كل ما يضيع من أجل هذه الحياة يعود في صور أبهى، ولحظات لا يعوضها شيء، لا يعرف جمال هذه الصور واللحظات غيره، وليس مطلوباً منه أن ينقلها إلى غيره، كل ما يصدر عن الداخل لا يعوّض بشيء من الخارج أبداً!

قيمة الحروف العربية

لا شيء يستحق أن تتعصب بشأنه، خاصة إذا كان مكتوبًا باللغة العربية، أغلبه يجف حبره سريعًا، مكوناته في الأصل ليست ذاتية، حرف ملتقط من هنا وحرف ملتقط من هناك، حتى إنك مع الوقت صرت تسمع كل أسبوع اصطلاحات وترهات جديدة، حروفها عربية لكن ليس فيها شيء من حرارة نطق الشافعي أو مسحة من عقل أبي عيسى الوراق.

حتى الكفر لا يمكن أن ينتج لك زمردة من زمردات الراوندي. لذا لا تتعصب ولا تغضب، قطرات ماء قليلة سرعان ما تمحو هذا الجفاف، لك أن تتابع بقية الصالحين الصامتين، ابحث عنهم، وحتماً ستجد خيطًا يوصلك بسند

قلوبهم الطيب، هم ليسو هنا، ولا يجلسون
على عتبات الزيف والوهم يتابعون خطى
المرتزقة المأجورين أو الثكالى العابثين.

قسمة غير عادلة

بالأمس قرأت نصًّا احتقى به غير واحد
من السادة الأزهرية، وكان الشاهد العظيم
فيه أن شيخًا من رواة الحديث لم يخيب
رجاء كلب قصده، فجبر بخاطره واعتنى
به. خطر لي وأنا أقرأ التعاليق عليه عند ناقله، كم
من شخص مظلوم استجد بكبير من الناقلين
والمرددين لهذا النص وأشباهه من النصوص

القديمة وخاب رجاؤه! بل كم من شخص مظلوم
أعان المشايخ الظالم على الاستمرار في ظلمه
وتدمير حياته، كم من شخص يتم إقصاؤه من قبل
هؤلاء لمجرد اختلافه في الرأي، الاحتفاء بمروية
عن كلب ورقّة قلوب السابقين ليس كافيًا، بل تمثل
ذلك مع البشر وكافة المخلوقات دون تمييز هو ما
يعوّل عليه!

المشغول لا يُشغل

هذه القاعدة يمكن أن ينطق بها اليوم الأعاجم
صارخين بها في وجوه العرب، لا شغل لهم إلا
بالتوافه من الأمور وما يوضع لهم من برامج

يسيرون عليها ولا يخيبون ظنَّ من يشاهدهم،
ينتظرون كل حدث ليلتقوا حوله، إما منددين أو
محللين. في النهاية هم مجرد متكلمين لا فعل لهم
يغيّر من حياتهم، ولا صمت لهم يجعلهم يتدبرون
ما هم فيه، هم أعداء أنفسهم ولا عدو لهم غيرهم.

الأساتذة والقراءة!

أذكر أن أحد أصدقائي الذي غادر مصر منذ فترة
طويلة، كان حزيناً للغاية حينما تقدم ببحث للجنة
مناقشة ومُنح تقدير (امتياز) وهو تقدير شعبي
أضحى متعارفاً عليه في الجامعات المصرية،
كان سبب حزن صديقي أنه تقدّم ببحث تعب
عليه كثيراً، وقد قرأتُ كثيراً منه وتناقشنا معاً في
موضوعات عديدة تعرّض لها، كان

الموضوع كأي موضوع يوضع على طاولة البحث، يستوجب القراءة والمناقشة في كافة تفاصيله ليقوم ويستفيد الطالب وتتطور خبرته ومعارفه، لكن الأساتذة لم يفعلوا ذلك! وترك صديقي البلاد وغادرها من أجل ميلاد جديد. فيما بعد عرفت من كثير من الأساتذة أنه لا وقت لديهم للقراءة، وبالكاد يجدون وقتاً ضئيلاً يلزمهم أن يكتبوا فيه بعض البحوث اعتماداً على خبرتهم السابقة، من أجل تحصيل معاشهم، فراتب الجامعة لا يكفي، وقراءة أطروحة ومناقشتها مجرد تحصيل حاصل، وأتعاب ذلك مخيبة للأمل بل ومهينة، فمراجعة أطروحة يعوض بدراهم معدودات. أذكر هذا المثال من باب أن بعض الناس لا تزال ضمائرهم حيّة ونفوسهم تائقة للمعرفة والطلب والتحصيل، فما تقدمه الأساتذة لهم من قراءة أو تقويم يساعدهم في

مسيرتهم العلمية ويرسّخ الكثير من القيم الخلقية
في نفوسهم، فمن الواجب مراعاة هؤلاء والعناية
بما يقدمونه حتى نساهم في سقاية بذور تتجينا من
هذا البوار!

مناجاة

حديث مع الله

وقت السحر في الثلث الأخير من الليل، حينما ينزل الله، سأحكي له عن أشياء كثيرة لا أحكيها مع الناس هنا، خوفاً أو خجلاً، أنا أثق أن الله سيسمع وسيفهم كلامي دون حاجة إلى إيضاح، ودون خوف من تأويل. سأحكي له عن رجل عاجز يموت وقبل موته يصرخ آلاف المرات ولا يسمع له أحد، ويدعو الناس ربهم بالرحمة له حيًّا وميتًا، فلا يتوقف الصراخ ولا يرد الدعاء القدر. سأحكي له عن كون الحلال المشروع أمسى مسخًا شائهاً، فلا علاقة مما نشاهدها اليوم تحت هذا المسمى لها معنى أو تخرج لنا إنساناً صحيحاً خالياً من

الأمراض. سأحكي له عن طفل كبير وشاب شعره
ولا يزال يحاول أن يربّي نفسه على بعض ما
يمكنه من الحياة، سأخبره أن الطفل يحبه ويبتهل
إليه وهو في الحانة بصدق أكثر من ابتهل الشيوخ
في القاعات والبيوت والمسجد، هو يعرف ذلك
جيداً لكني سأحكي له، ربما يضحك أو يبتسم، ليس
على سنة التراث المروي، بل من أجل الطفل
المقهور.

سأحكي له عن نسوة في طريق الحياة هن دوماً
أصدق من الرجال، سأحكي له عن صليب مقدّس
نبتت شجرته بدماء المقهورين، لا تكتب دماؤهم
الله على الأرض، لأن حاكم الأرض يمحو كل
مكتوب ويخلع ليل نهار من القلوب ما أضمر.

خذني من نفسي

لا يعرف ما بيننا سواك! لقد ألقيت أنت هذا الدعاء في قلبي، وأشعلت كثيراً من الآمال بين جوانحي، فاقبل كسرة الخبز الواحدة واعفُ بها عني!

وجودي معك تحليقٌ وطيران. وجودي مع نفسي لا أبصر فيه من نفسي إلا فقدي لكل ما وهبتي من نعم وجمال!

خذني إليك وخذني من نفسي، ولا تردني مرة ثانية إلى هذا الفقد البائس الذي يسمّى حياة!

ضاق العالم على عبادك يا الله، ضاق جداً جداً! وكثر الظلم للمساكين! وضجَّ الناس وأصابتهم الأمراض من الكمد والغیظ والقهر، إن لم يصابوا بها في السجن. أنت تخبرنا دوماً أنك

تحب عبادك، فأظهر لعبادك رحمتك! كما دعاك
سنائي والعتار والرومي من قبل!

قَدَّرَ اللهُ

قَدَّرَ اللهُ أن تميّز بين الوهم الذي لا ينفكك والأصل
الذي ترى نفسك فيه، هذه نعمة تستوجب
الشكر، لا تجعلك قانطاً من رحمة تشملك وتشمل
من لا يميّز ويرى بعيون الآخرين المطموسة. قَدَّرَ
الله ألا تشغل نفسك بدعاء أو صلاة أو قراءة ترجو
استحقاق ثمارها تراباً وطيناً، هذه نعمة
تستوجب الشكر، لأن غيرك يبيع نفسه
بالصلاة والقراءة والتمتمات، ويزيد كثافة روحه

ويثقل العالم من بظلمه لذاته. قدّر الله أن تدرك
نعمة الابتسامة برؤيتك لوجه تحبّه وتشتاقه،
وتغنيك الرؤية للحظة عن آلاف الأجساد
المتكدّسة من حولك، قد تكفر أحياناً بهذه
الابتسامة، لكنك حينما تشتاق إلى حقّ ترى نفسك
فيه، لا تغنيك هذه الوجوه الزرقاء ولا تسعك أرض
أو سماء، وجه المحبوب وحده هو من يلبي عطش
قلبك ويسعد إنسانك الحي. قدّر الله أن تلتمس أخيراً
العذر للشيخ الطاعن في عجز النفس عن
إدراك حقيقة الرجولة، ولبائع الوهم،
ولمنكّس الرأس لقاء بضع كلمات من الإعجاب، أو
حصد مكانة في دنيا الهياكل التي لا يغني معها ماء
الحياة أو قوت القلوب. قدّر الله أن تدرك قيمة معنى
أن يكون فلان فرداً أو صادقاً أو مكتفياً. فالحمد لله
على تقديره وتدبيره ما كشف منه وما ستر،
والحمد لله على من رزقك رؤيته وأعاد إليك
الحياة.

أنا منك فردني إليك

بدت لي صورة اليوم تتلاشى فيها كل الصور،
كانت القاعة مليئةً بأناس بعدد المقاعد، كل قاعد لا
ترى سوى يده ترتفع في الهواء، لا ترى جسده ولا
عينيه، أيادٍ تتطاير في الهواء لا تعرف
صاحبها، لا تدري أيصلي هذا أم يذبح
نفسه ويضحّي بحياته السابقة قرباناً ليولد من
جديد، أو يرى معجزة أبلغ وأجدى من
القربان. (أدعوك) دوماً تتطاير كصحيفة عدم
أمام قربان النفس، أنا منك فردني إليك، تسمعها أو
تتطققها لا فرق، لا تعرف مرادها أهي كفرٌ مرٌّ بكل
ما هنا، أم إيمان بما هناك أكثر، هناك المجهول

الذي تسكن إليه، أهي انتحار أيضًا وذبح جديد؟
لكني حين دنوت لم أر موتاً! وهل يرى من فقد
عينيه وصورته؟ حسبنا أننا لم نعد نرى أنه يحق
لنا أن نرى، أن نبصر، أن نحيا، أن امرأتنا لا يحق
لها أن تلد.

الطريق بين اثنين لا ثالث لهما

حينما يسألني الله يوم القيامة عن ماذا فعلت في
موضوع كذا أو كذا الذي سقناه إليك لتخدم فيه،
سأبتسم خجلاً خشية الرد، وسأسعد فرحاً أحياناً،
فبعض ما وضعت فيه أحسنت الخدمة ما
استطعت، واستنفدت الوسع فيه كي يخرج بهيئاً

ء

جميلاً، سأصمت أحياناً، وأبكي أحياناً، ليس بسبب نقصيري ولكن لأنني بددت عطيته وغبث عنها، سأرفع رأسي برحمته وأخبره بما هو أدري به؛ أنه لم يكن في مستطاعي تحريك أصبعي، ويد قدرته وقهره أقوى من عزمي الواهن كله. لن أخشى أو أخاف منه، فما عرفته منذ زمن بعيد أنه غير ما يُقال عنه من بطش شديد، سينبض قلبي بغير هذا كله، سينطق ولن يتوقف عن الكلام، ستتوقف أيدي الملائكة مهما كانوا كراماً عن التسجيل والتقييد، سيغيبون حيث لا نجد واحداً منهم، سيغيب كل السجال الماضي وتكفُّ الألسن عن الحديث مدحاً أو ذمّاً أو لوماً أو شكرًا. سنكون وجهًا لوجه، في نضرة النعيم.

الخطأ جزءٌ منِّي

في طريقي إلى الله تتحني رأسي من ثقل خطاياي،
 يرفع رأسي، ليس هناك خطأ بل كلها خطوات
 تؤدي بك إلينا، اجعل روحك تستنشق عبير الوحي
 المقدّس (وهو معكم أينما كنتم) لا يفارقك في
 الصواب أو الخطأ، وكل خطوة مكتوب مقدّر. في
 طريقي إلى الله تغتسل روعي بدمعة عين صادقة،
 وعمل أستشعر قبوله ورضا الله بحضوره فيه
 وملازمتي معه، وكلما بكت روعي أشعر بالحياة
 وأحمد الله على أنني ما زلت معه ولم أغادر باب
 الرجاء والأمل. في طريقي إلى الله أحدث نفسي
 أنه لن يمنحك كل شيء، لا يمكن أن يكتمل مشهد
 قبل اكتمال رؤيتك، الأرواح التي توصف

بالأزهار المقدسة لا تكتمل إلا بعد غرس طويل،
وتخمير بالماء الرقيق، وتحفها الأشواك من كل
جانب، فإن سألت عطاءً جديداً، احمد الله أو لا على
القديم.

حديث العصاة مع الله

لنا ربُّ نحن العصاة نؤمن برحمته ونؤمن أن كلَّ
معصية بيننا وبينه مغفورة بإذنه ومشيبته، وكما
تغفر الأم لأبنائها مهما اقترفوا من آثام في حقها،
يفغر الله لنا. وكما ترى الأم طفل الأمس وتفرح به
حينما ينضج ويصبح مكتملاً، يفرح الله بنضج
عياله، أطاعوه أو اجترحوا ما نهى عنه، فكل فعل

نفعله جزء من تجربتنا، خيرًا كان أم شرًا،
يساعدنا. ما دمننا لا نزال من بني الإنسان
ولم نصبح بعد آلهة، أو مجسدين لأدوار لم
نُخلق لها!

حديث العصاة والمُجان عن الله حديث يلمس
القلوب، لا نفاق فيه ولا رياء، خالصًا لوجه
الإنسان ووجه الله. حينما تسمع مدحًا للنبي من
شخص مدخن للحشيش، وحينما يُذكر اسم النبي
بيكي ويتأوه في حنين إلى ذلك الطهر الإنساني،
تبكي معه ولا تفكر. على عكس ما نراه
من ضيقي الفهم وفقراء التجارب، ذكرٌ
وأمداح أمام الناس وأخلاق ومعاملة لا تعترف
ولا تقدس سوى الأصنام.

الله أجمل

الله جميل، أجمل من مخلوقاته التي تذكر اسمه في العلو وتتنساه في الخلوة. الله لطيف لا يزعب أحدًا ولا يريد بأحد شرًا، حتى الأشرار جبلة وقود نار الدنيا يحسن إليهم وإن لم يحسنوا لعباده. أرى رحمة الله وجماله في كثير من مخلوقاته، نعم أراها لحظة سريعة، فالعذر للرأي أنه لم يغسل عينيه دومًا ويجدد وضوءًا أفسدته نواقض الجمال.

تكفينا اللحظة منك يا رب، تكفينا صورة ننظر إليها، تكفينا بسمة، تكفينا نعمة أردت لقلوبنا أن نسمعها. الحمد لك على ما كان وما سيكون.

على باب الله نرجو رحمته وفضله

"على باب الله" كما تقولها السيدات العجائز والرجال الطيبون، لا على باب الله لنخرج أحداً من رحمته، أو نعتمد ونعمد الآخرين، أو نصلب ذاتنا أو نعلق أجسادهم. على باب الله: كلامنا آراء وظنون نلتمس صدقها كلما حاولنا ألا نقطع بيقينيتها! على باب الله: ما نختاره صواباً كان أم خطأ، نرجو الله قلباً لا يسكن إلى الخطأ ويعيشه دوماً، ونطلب الهداية حتى الرمق الأخير. على باب الله: عصاة كئنا نعمل ما نظنه صالحاً حتى يتقبلنا!

الرحمة!

إني أطايب عبادي بما أشاء من اللغات، وأريهم من الصور ما يسعد قلوبهم. أنا أكبر مما تصف ألسنتهم وأرحم وأقرب إليهم من كل من حولهم.

حين تضطرب أمواج الرحمة ترتوي كل ذرة تشتاق إلى الحياة، لكن لا يعلم أحد سواه متى تبدأ الحركة وما السبب في ركود الماء وانبساط الأرض الجذباء! كل الأصوات المزعجة تشبه بعضها البعض وتلقي بغيوم تحجب الأبصار عن رؤية رحمته، أو تسمع قطرات الندى وهي مشتاقة للوصول إلى مسامع طلاب الحياة. يظل هو وحده الأمل!

يا إلهي

اجعل الليل نهارًا في حياتي ربّ وانصرني على
الدهر وهبْ لي أمنياتي مثلما ينتصر النورُ ويجلو
الظلماتِ، فحياتي ليلةٌ أياسها الليل البليدُ، ربّ
فاكشفْ ظلمتي بسنا فجرٍ جديدٍ، واجعل اللهم
وجهي ساطعًا كالنور دوماً.

شكرٌ واجبٌ

جزيل شكري لرمضان بسطاويسي السالك الصوفي الهادي، والأستاذ المتواضع الذي شجّعني على للمة شتات أفكاري وقدّر ما كتبتّه بشكل انطباعي في كتاباتي السابقة وكتب عنه مثبتاً غير منكر. جزيل شكري لسعاد الحكيم الإنسانية والأستاذة التي التمسّت من تعاملاتها مع الإنسان ما ينفعني ويفيدني ويسقي بذرتي. جزيل شكري لأسماء التي حضّنتي على أن أكتب عن الواقع واليومي والإنساني في مناسبات عدّة، جزيل شكري لبلقيس التي قرأت هذا العمل، وساعدتني في نقل كثير مما أهتم به إلى لغة أعجمية لا أحسن النطق والبيان بها. جزيل شكري

لعائشة موماد التي آمنت بهميّ البحثي، وشاركتني
في جزء منه أنتج بعض الثمار، جزيل شكري
لأحمد محمود الذي لم يقرأ هذا العمل، لكنه كثيراً
ما حفّزني على جمع ما تناثر من أوراق. جزيل
شكري لأصدقائي الذين تقبلوا صحبتي
الأعوام الفائتة وجلست معهم وأنا مطمئن وآمن،
لا أخشى أن أحاكم بفعل فعلته، أو أصنّف ضمن
طائفة لستُ منها، ويلخّص هؤلاء الأصدقاء جميعاً
شعودة ومايكل.

نبذة عن الكاتب خالد محمد عبده

يعمل باحثاً في الإسلاميات والتصوف ومديراً لموقع طواسين، صدر له العديد من الكتب، نذكر منها:

1 - شمس تبريزي، دار بدائل، القاهرة 2018. وهو أول دراسة عربية عن شمس تبريزي، حققت فيه سيرته وتاريخه ونشرت فيه مختارات من كتابه المقالات، تعبر عن رأيه في المسائل الصوفية.

2 - سفراء التصوف في العالم الإسلامي، منشورات كنز، بيروت 2017. وهو كتاب ضمن سلسلة تحمل هذا العنوان تتحدث عن أعلام الدارسين للتصوف الإسلامي والمترجمين للنصوص الصوفية الفارسية والأوردية.

3 - مهمّات الواصلين من الصوفية البالغين، لشمس الدين الديلمي، تحقيق لنص مخطوط وترجمة لدراسة عن اللغة الإنجليزية، صدر عن منشورات طواسين 2017.

4 - جلال الدين الرومي والمولوية العربية، ويشتمل الكتاب على ثلاثة نصوص تراثية عن الرومي والمولوية تُنشر للمرة الأولى باللغة العربية، صدر عن منشورات طواسين 2017.

5 - ردّ المفترّي عن الطعن في الششثري، تحقيق
ودراسة لنصّ عن تمثّلات المسيحية في التراث
الصوفي، دار مداد بيروت 2016.

6 - مسألة الإيمان للإمام الأشعري، تحقيق
ودراسة لنصّ عقائدي، دار مداد بيروت 2016.

7 - مولانا جلال الدين الرومي، بيروت 2016.
وهو دراسة وتعليق على محاضرة أنا ماري شيمل
عن الرومي.

8 - المستشرقون والتصوف الإسلامي
(مجموعة من المقالات)، مركز المحروسة،
مصر 2016.

9 - مولانا جلال الدين الرومي في الهند، مركز
المحروسة، مصر 2015.

10 - الرومي بين الشرق والغرب، تأليف
بالاشتراك مع عائشة موماد من المملكة
المغربية، مركز المحروسة، مصر 2015.
صدرت طبعتان له.

11 - أميَّة الرسول، تأليف بالاشتراك مع سباستيان
غونتر من ألمانيا، دار سجال، مصر 2014.
وصدرت له طبعة ثانية في مصر 2017 عن
مركز المحروسة وطبعة ثالثة عن نفس الدار.

12 - معنى أن تكون صوفيًّا، (في أصله
مجموعة من المقالات تعرض للتصوف بشكل
مبسّط) مركز المحروسة، مصر 2015.
وصدرت له طبعة ثانية في مصر
2017. وترجمت بعض فصوله إلى الإنجليزية.

13 - الدين والدولة في إثبات نبوة النبي، صدر في سلطنة عمان 2013 وهو نصّ تراثي من نصوص الدفاع عن الإسلام، يعدّ أقدم ما وصلنا باللغة العربية من نصوص أدب الدفاع.

14 - تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل، مطبوع في مصر عام 2006. وهو نصّ تراثي من نصوص الجدل الإسلامي المسيحي.

15 - الأعمال الصوفية لعبد الوهاب عزّام (إعداد وتقديم)، دار المحروسة القاهرة.

مؤتمرات دولية ومحاضرات، [نذكر منها]:

1 - مؤتمر أقيم بالمملكة المغربية تحت عنوان: الملتقى الدولي الأول للتصوف عند الشيخ

ماء العينين تحت شعار: "الشيخ ماء العينين
رمز التسامح والمخاواة" بأكادير يوم الجمعة 16
ماي 2014، شارك فيه ببحث عنوانه "من
الطريقة إلى الطريق: رحلة مع كتاب الشيخ ماء
العينين مفيد الراوي على أني مخاوي".

2 - شارك ببحث عنوانه "من الإسلام السياسي
إلى الإسلام الصوفي، الفرار إلى روحانية
الإسلام" في الملتقى العالمي الثاني حول
التصوف، بدولة السنغال، بعنوان: "أي دور
للتصوف في حياة الأمة الإسلامية"، وذلك في
الفترة من 22 - 26 نوفمبر 2014.

3 - شارك ببحث عنوانه "التطرف في مواجهة
التطرف" في مؤتمر أقامته الجمعية العمانية
للكتاب، سلطنة عُمان، بعنوان: "التطرف

الفكري ومدى تأثيره على المجتمع العربي"
ونُشرت الورقة البحثية ضمن أعمال المؤتمر.

4 - شارك ببحث عن "الأخلاق عند الرومي" في
مؤتمر أقامته جمعية باسطنبول
(Istanbul) تحت عنوان:

Ahi-order and Ahi Evran وذلك في أكتوبر
2016 تركيا.

5 - شارك في الاحتفال بيوم عُرس مولانا جلال
الدين الرومي بدعوة من المركز الثقافي التركي،
وألقى محاضرة في قونيه/تركيا، ديسمبر 2017.

مؤتمرات وندوات ومحاضرات: [نذكر منها]:

1 - شارك ببحث عن "التصوف الفارسي وترجماته العربية" في مؤتمر أقامته جمعية كشيدة بقاعة المؤتمرات بمدينة نصر، تحت عنوان "الأدب الصوفي وموقعه في حياتنا" فبراير 2016.

2 - ألقى محاضرة في المملكة المغربية، عن حضور الرومي في الثقافة العربية بجمعية منية مراكش 2013.

3 - ألقى محاضرة في المملكة المغربية، فاس في مهرجان الثقافة الصوفية 2017.

4 - ألقى محاضرة في جامعة الزيتونة، تونس، عن علم الكلام وصلته بالتصوف الإسلامي 2017.

5 - ألقى محاضرة في جامعة منوبة، تونس، عن التصوف كنمط من أنماط التدين المعاصر 2017.

6 - شارك في مؤتمر علماء قارص، بجامعة القوقاز، تركيا، بدراسة عن الإمام داود القارصي 2018.

7 - ألقى محاضرة لطلاب الدراسات العليا بكلية الآداب بالمحمدية، المملكة المغربية، عن المرأة في التصوف الإسلامي 2018.

8 - شارك في مهرجان الثقافة الصوفية بفاس، المملكة المغربية، بمحاضرة عن الحاجة إلى التصوف اليوم 2018.

9 - شارك في مؤتمر بجنيف-سويسرا، تابع للأمم المتحدة، لإعداد وثيقة تتعلق بصياغة مبادئ مشتركة لرجال الدين 2018.

مشاركات ثقافية وندوات حول كتب: [نذكر منها]:

1 - "دروس من المثنوي" لقاءات متجددة لمناقشة قصص المثنوي وأفكاره، بدار الأوبرا بالقاهرة، تمت تغطيتها إعلامياً، ويمكن متابعة ذلك من خلال ما نشره العربي الجديد.

2 - ندوة حول كتاب "الرومي بين الشرق والغرب"، في مكتبة البلد، ، القاهرة 2016.

3 - إيفا دوفـيـتري مـيـروفـيتش (Eva de Vitray Meyerovitch) الرومي في الثقافة المغربية" مقدمة كتاب رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة عائشة موماد 2016.

4 - "عبد الوهاب عزّام والدرس الصوفي"، مقدمة
لكتاب فريد الدين العطار وتصوفه، مركز
المحروسة، مصر 2017.

5 - من رموز العلم المقدّس (René
Guénon)، مقدمة لكتاب الشيخ عبد الحلیم
محمود (الفيلسوف المسلم عبد الواحد يحيى) كنز
ناشرون، بيروت 2017.

6 - مقدمة لكتاب الدكتورة سعاد الحكيم (المرأة
والتصوف والحياة) كنز ناشرون، بيروت 2017.

7 - المشاركة في الدورة التدريبية
الخاصة بالتراث الصوفي التي أقامها مركز
المخطوطات وقطاع التواصل الثقافي بمكتبة
الإسكندرية، بإلقاء محاضرة عن التراث
الصوفي الفارسي المترجم إلى اللغة العربية.

8 - ندوة مكتبة الإسكندرية عن الاحتفاء الرومي شرقاً وغرباً وهي الندوة العلمية الرابعة التي نظمها مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية.

9 - مقدّمة لكتاب (قميص يوسف) ترجمة لرباعيات جلال الدين الرومي، لعائشة موماد، المحروسة، القاهرة 2018.

الإشراف وتحرير الكتب:

1 - أشرف على إصدار كتاب المولوية والتصوف: التاريخ - النصوص - الآفاق، وشارك بدراسة فيه عن (التلقي السلفي للرومي والمولوية) عقب مقترح دراسي قدّمه لمركز المسبار لدراسة التصوف الشعبي في

الأناضول ممثلاً في ثلاثة طرق كبرى (النقشبندية، البكتاشية، المولوية) وقد صدر هذا الكتاب الأول في دبي عن مركز المسبار (ديسمبر 2015).

2 - أشرف على إصدار كتاب البكتاشية والإسلام الموازي في تركيا، وشارك فيه بدراسة عن البكتاشية وحضورها في مصر، وصدر الكتاب عن مركز المسبار للدراسات والبحوث- دبي (مايو 2016).

3 - أشرف على إصدار كتاب النقشبندية، وشارك فيه بدراسة عن نقشبندي في بلاد الأناضول، والكتاب صدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث- دبي.

4 - أشرف على إصدار كتاب التصوف الأكبر، وعمل على تحريره، صدر عن مركز المسبار

يناير 2018 بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لوفاة
الشيخ الأكبر ابن عربي.

أبحاث ومقالات محكمة:

1 - الديوان العربي لمولانا جلال الدين
الرومي، مجلة الكسنزان، بغداد العدد رقم
13 ربيع 2013.

2 - "من رموز العلم المقدّس" مجلة آفاق الثقافة
والتراث، دبي، العدد رقم 86، 1 يوليو 2014.

3 - المستشرقون الألمان، مجلة المشرق، بيروت،
السنة الواحدة والتسعون - الجزء الثاني
تمّوز - كانون الأول 2017.

4 - إنكار النبوة: تاريخ فكرة، مجلة المشكاة، جامعة الزيتونة - تونس، ع11،12، عام 2014.

5 - صورة شمس تبريزي في الأدبيات الحديثة، مجلة المشرق، بيروت، السنة الواحدة والتسعون - الجزء الثاني تموز - كانون الأول 2017.

6 - سامي مكارم والدرس الصوفي العربي، عدد خاص من مجلة «الأبحاث» بالجامعة الأميركية صدر بمناسبة الذكرى الـ150 لتأسيس الجامعة الأميركية ببيروت عن كلية الآداب والعلوم في الجامعة. 2016-2017.

7 - مجادلة حول قطعة من الصليب: من تاريخ العلاقات المسيحية اليهودية الإسلامية في

مصر في العصر الوسيط، مجلة المشرق
الرقميّة العدد الحادي عشر 2018.

8 - آثار شمس الدين الديلمي المخطوطة،
مجلة علم المخطوط، العدد الأول، مكتبة
الإسكندرية، مصر، 2018.

9 - موقف الإمام داود القارصي من التصوف
والمتصوفة، الكتاب الجماعي لمؤتمر علماء
قارص، تركيا، 2018.

يمكن الحصول على بعض هذه الأبحاث من خلال
صفحة الباحث على موقع أكاديميا.

مشاركات إعلامية ومقابلات: [تذكر منها]:

1 - سيرة مولانا جلال الدين الرومي، مقابلة تلفزيونية مع قناة النيل الثقافية بمصر يناير 2016. يمكن مشاهدتها على موقع [youtube](https://www.youtube.com).

2 - "الأزهر والشريعة" حصة حوارية بحضور ممثل الشيعة في مصر وممثل مؤسسة الأزهر على قناة (ON TV) القاهرة 2012 يمكن مشاهدتها على موقع [youtube](https://www.youtube.com).

3 - مقابلة تلفزيونية لمناقشة أعماله عن التصوف في قناة فلسطين اليوم، بيروت 2016 يمكن مشاهدتها على موقع [youtube](https://www.youtube.com).

4 - مقابلة تلفزيونية على قناة النيل المصرية الناطقة بالإنجليزية، سُجِّلت على حلقتين، وأذيعت في برنامج حُرَّاس الحضارات. (الحلقة الأولى)، (الحلقة الثانية).

حلقات دراسية:

2016: "قطوف من المثنوي"، من 31 أغسطس إلى 5 سبتمبر في العاصمة البحرينية المنامة، ويمكن متابعة تقرير المحاضرات على موقع جريدة الوسط وجريدة الأيام البحرينية.

حوارات وتقارير عن الباحث:

On the Meaning of Being a Sufi: - 1
The Wayfarer in the Footsteps of Al-Hallaj، تقرير كتبته الأستاذة أمنية النجار في الجامعة الأميركية بالقاهرة عن نشاطي في مصر في نشر المعرفة الصوفية ومتابعة لما قدّمت

على مدار الأعوام الماضية. نشرته:
.egyptianstreets

2 - حوار أجرته معي مؤسسة مؤمنون بلا حدود
بعنوان:

التصوف والمعارف الصوفية في مصر. يمكن
متابعته على موقع المؤسسة.

3 - حوار أجرته معي جريدة الميادين -
بيروت، عن التعرف على مولانا جلال الدين
الرومي في البلاد العربية.

4 - حوار أجرته معي شؤون عمانية عن مجمل
أعمالي عن التصوف الإسلامي.

** انتہی **